
كتابي
50
هنري بوردو
الابن الضال
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الابن الضال



القسم الأول

١ ـ حصاد الكروم

من قمة التل الصغير ، ارتفع صوت مسيو « فرانسوا روكفيار » يخاطب حاصدات العنب اللواتى انتشرن على طول الطريق المنحدر ، يخففن الكروم من أثقال عناقيدها السوداء : « لقد أقبل الليل ، فهيا إلى جولة أخيرة » .

قالها صاحب الضيعة فى صوت رقيق ــ ولكنه آمر ــ بعث النشاط فى الأيدى ، وأحنى من جديد ظهور العاملات المتباطئات .. فاذا بهن قد اقبلن على العمل !.. ثم أضاف السيد فى لهجة مرحة : « انهن فى الصباح أكثر خفة ورشاقة من العصافير ، فاذا أقبل العصر تحولن إلى ثرثارات ! » .

واستثارت هذه الملاحظة ضحكهن جميعا ، فأجبن فى صوت واحد : « أجل ، أيها السيد المحامى » .

لم يكن صاحب مزرعة « البرج » يخاطب من فلاحيه إلا بهذا اللقب . وكانت المزرعة ضيعة جميلة تتألف من قطعة واحدة ، مزروعة بالغابات والحقول والكروم ، تقع فى أقصى مقاطعة (كونيان) ، على مسافة ثلاثة أو اربعة كيلومترات من مدينة (شامبيرى) ، ويمكن الوصول اليها بالسير فى طريق زراعى وعبور قنطرة قديمة قائمة على نهر (الايير) ذى المياه

المنخفضة . وهى تطل على الطريق المؤدى إلى مدينة (ليون) ، الذى كان فيمـا مضى يربط مقاطعة (السـافوا) بالأقاليم الفرنسية المجاورة ، عبر صخور (ايشيل) المنحوتة . وقد اطلق عليها اسم مزرعة « البرج » نسـبة إلى برج قديم كان يتوج قمـة تلك الصخور ، ولم يبق منه الآن اى اثر . وتملك المزرعة منذ قرون عديدة اسرة « روكفيار » التى دأبت على توسيع رقعتها شيئا فشيئا ، كما يدل على ذلك المنزل الريفى المقام فيها ، وسائر المبانى التى تتكون من وحـدات وحجرات غير متجانسة ، وإن كانت « معبرة » ، كوجـه الشيخ الذى تتلخص فى تجاعيده حياة باكملهـا !.. فهنـا يتمثـل ماضى اسرة عريقة ، وفية لأرض الآباء والأجـداد . وقد كان آل « روكفيار » جميعا ، ابا عن جد ، من رجال القانون: فكان منهم نقباء للمحامين ، وقضاة ، ورؤساء لمجلس الشيوخ الإقليمى القديم .. كما كان منهم مستشار فى محكمة الاستئناف الجديدة بلغ به تعلقه بموطنه ، وحرصه على ان يموت فى مسقط راسه ، حدا جعله يرفض كل ترقية !.. ومن هنا درج اهل البـلدة على اعتبار اسـلاف « روكفيار » جميعـا ـ بلا تفرقة ـ من المحامين ، مستمدين من تسميتهم هذه معنى الحماية ! وقد زاد من جدارة المالك الحالى للضيعة ـ مسيو « فرانسوا روكفيار » ـ بهذه التسمية ، انه مارس مهنة المحاماة زهاء اربعين عاما ، اكتسب خلالها الماما دقيقا بالقانون ، ولسانا ذربا بليغـا فى الدفاع !

وكانت كروم العنب متراصة فى صفوف منتظمـة تجعـل مهمة الإشراف على الحصاد سهلة . وكان اللون الذى اصطبغت

به أوراق الكروم ينبىء بحلول شهر اكتوبر . وفوق التـلال بدت الأرض اقوى ضياء فى مواجهة السماء الشاحبة . ومن خلال الأغصان الوضاءة ، كانت عناقيد العنب القائمة تسترعى الالتفات . وكانت حاصدات العنب وهن يسرعن الخطى ، وقد شهرن فى ايديهن السكاكين المخضبة بدماء العناقيد ، يشبهن الكهنة الذين يعالجون الذبائح بضربـة قاضية مفاجئة !.. فاذا ما هوت العناقيد تحت ضرباتهن ، القين بها فى السلال . وكن جميعا يرفعن ملابسهن ويثبتنها إلى الخلف لتسهل عليهن الحركة فـوق تلك الأرض الرخـوة ، وقد عصبن رؤوسهن بمناديل تقيهن حرارة الشمس . وبين وقت وآخـر ، كانت الواحدة منهن تنصب قامتهـا فتبرز فوق مستوى الكروم ، كالسمكة التى تقفز فوق سطح المـاء لتتنفس قليلا ثم تغوص فى جوف المـاء من جديد . وكانت بينهن عجـائز مقوسـات الظهور ، مجعدات الوجوه ، بطيئـات الحركة ، يابسـات الأجسام ، ومع ذلك فقد كن يتمتعن بقـدرة على التحمـل ، وبيقظة واعية لكل ما كان يدور حولهن ، حرصـا منهن على الاحتفاظ بآخر فرصة لهن فى العمل بعد ان لم يعد يستخدمهن احـد .

كما ضمت صفوف الحاصدات فتيـات فى نحـو العشرين اكثر انتصابا فى القامة وخفة فى الحركة من الأخريات ، وقـد عرضن ـ بلا خوف ـ وجوههن وسواعدهن عارية لوهـج الشمس الذى راح يلثم بشرتهن. وكانت هناك ـ إلى جانبهن ـ صبايا لم يكتمل نموهن بعد ، فهن اقل جلدا على العمـل ،

يقفزن من مكان إلى مكان ، فيحدث اضطرابا فى الصفوف ، أو يجلسن فى دعة وهدوء وقد غمرتهن غبطة التلميذات الصغيرات فى الأقسام الداخلية من المدارس ، حين يسمح لهن بالخروج فى يوم العطلة المدرسية ، وقد انثنت أعطافهن انثناءة أغصان الكروم الرخصة فى أيديهن !

واخيرا كان هناك صبية صغار سرحتهم أمهاتهم من البيوت ليسترحن من شغبهم وضوضائهم ، فجاءوا إلى الحقل يعيثون فيه فسادا ، ويحصدون العنب ولكن لحسابهم الخاص ! فكانوا يأكلون ما يحصدون ، ويلطخون به شفاههم وخدودهم، كسكارى ماجنين .. ولكن قبل الأوان !

* * *

وفى الطريق الذى يتوسط المزرعة ، وقفت عربة شد إليها ثوران كبيران اشقران ، لهما قرنان انتصبا على شكل قيثارة .. وكانت هذه العربة تنتظر — فى صبر — ساعة انطلاقها إلى المعصرة ، بعد أن حملها الزراع بما يفوق طاقتها من اكداس العنب .. ولم يكن هؤلاء الزراع يغرقون فى الضحك كالفتيات ، وإنما اكتفوا بتبادل بعض العبارات والايضاحات المختصرة . وكان الصغار منهم يضعون على رؤوسهم قلنسوات بيضاء ، ويرتدون ثيابا من التيل لا تعوق حركاتهم ، على نسق زى صيادى جبال الألب الذى انتشر بين فتيان إقليم (السافوا) بدافع المحاكاة .. وبعد أن انفذ القوم عصا خشبية صلبة فى أذنى الوعاء الطافح بالعنب حتى حافته ، تعاونوا جميعا على رفعه إلى اكتافهم ، وساروا به فى

خطى خفيفة متزنة ، حتى رفعوه فوق العربة ، التى وقف على سطحها شيخ مسن ذو لحية بيضاء ، أخذ يضغط بيديه القويتين العنب الذى أفعم به الوعاء . وبين آونة وأخرى كان ينصب قامته ، فتبدو يداه فى شكل يبعث على التقزز ، وقد تخضبتا بدماء العنقايد .

وفى مواجهة مزرعة « البرج » ، كانت أطياف المساء قد بدأت تغزو تلال (فيمين) و (سان سوبليس) القريبة من سلسلة جبال (ليبين) التى كانت تستقبل الشمس الغاربة .. بينما بدا — إلى أسفل — وادى (سان تيبو دوكو) ، ووادى (ايشيل) المتعرجان . واغرق ضياء الغروب الكرم بأصباغ من الأرجوان والذهب ، فكشف حاصدات العنب فى صفوفهن المتراصة ، واحاط بهالاته رؤوسهن المتشحة بالمناديل ، وراح يتراقص على قرون الثيران ، واضرم « النار » فى لحية « خولى الضيعة » الغبراء ووجهه الأحمر ، وهو واقف فوق العربة .. كما أضاء وجه مسيو « روكفيار » الذى بدا ممتلئا بالحيوية تحت حافة قبعته . وإلى أعلى ، انعكس الضياء على مرج « مونتاينول » الشامخ ليرتمى آخر الأمر فى جراة ، فوجها صخرة (مونت جرانييه) ذات الشهرة الخرافية القديمة .

وكانت العاملات قد تجمعن حول بعض الكروم الباقية يقطفن عناقيدها الأخيرة . ولم يكد الوعاء الأخير يرفع إلى العربة ، حتى صاح الشيخ المسن «جيريمى» من فوقها متهللا : « ها نحن قد انتهينا اخيرا يا سيدى المحامى » .. فسأله السيد : « كم بلغ عدد العربات ؟ »

— اثنتا عشرة .

فقال : « إنها سنة طيبة » .. وأردف ، وقد بدات الثيران سيرها ، تتبعها جموع العاملات : « فلأمض أنا بدورى ! » .

وبلغت العاملات قمة التل وهن يحملن سلالهن فى أذرعهن وسكاكينهن أو مناجلهن فى أيديهن .. وهناك ، أحطن بمسيو « روكفيار » ، الذى غرس عصاه الحديدية فى الأرض ، وأخرج من جيبه كيسا صغيرا تناول منه قطعا من النقود النحاسية والفضية .. فكفت من كانت تتكلم منهن ، ولذن جميعا بالصمت .. كانت لحظة لها رهبة خاصة .. لحظة توزيع الأجور !

وخلف الجمع الحاشد ، كانت الواح من الزجاج واسطح من الأردواز تعكس — كالمرايا — آخر ومضات الشمس الغاربة .. واخذ صاحب الضيعة ينادى كل عاملة باسمها المجرد فى غير ما كلفة .. فقد اعتاد رؤية المسنات منهن طوال حياته ، كما عرف الأخريات منذ حداثتهن . واقبلن جميعا يتسلمن أجر يومهن ، مشفوعا بكلمة رقيقة منه كن يجبنه عليها بقولهن : « شكرا يا سيدى المحامى » .. أما إذا صادف عاملة منهن أظهرت كسلا أثناء العمل ، فانه كان يخصها بكلمة توبيخ ، تخفف من وقعها لهجته الرقيقة ، كى يظهر لها ان عين السيد يقظة لا تغفل !.. ومع ان الأطفال كانوا يتقاضون أجرهم عينا — من العنب — فانه لم يبخل عليهم ايضا ببضعة دراهم تدخل السرور على قلوبهم .

* * *

وقال مسيو « روكفيار » مداعبا ، أثناء انهماكه فى دفع الأجور : « فلتلزم اللواتى قبضن أجرهن ناحية اليسار حتى لا يختلط على الأمر فاكرر الدفع إلى ما لا نهاية ! » .. فأجابته فتاة حسناء فى نحو الثامنة عشرة أو العشرين : « لا ضير فى ذلك على اية حال ! » .. ولم تكن تلك الفتاة تغطى رأسها كزميلاتها ، وكأنما كانت تتحدى بشبابها حرارة الشمس .. وقد تدلت على جبينها خصلات من شعرها الأشعث ، ونمت سمات وجهها على انها من طبقة العامة .. غير انها كانت موفورة الصحة ، ذات فم بالغ الاتساع ، وعينين حادتين ، وبشرة ذهبية فى لون حبات العنب البيضاء الممتلئة ، التى صيرتها الحرارة شقراء ، والتى بدت كما لو كانت مغمسة باكسير الشمس .

وحدجها مسيو « روكفيار » بنظرة فاحصة ، ثم قال لها : « لكم ترعرعت بسرعة يا كاترين !.. فمتى تتزوجين ؟» .. فارتج القول على الفتاة إزاء هذه المفاجاة العلنية . ثم لم تلبث ان اجابت وقد احمر وجهها سرورا : « هذه مسالة تحتاج إلى تفكير ! » .. فضحك السيد وأردف يقول : « إنك تروقين للعين على كل حال يا كاترين » . ونفحها بقطعة من النقود شفعها بهذه النصيحة فى لهجة حازمة : « كونى عاقلة أيتها الصغيرة فان الفضيلة أهم من الجمال ! » .. فأمنت على قوله بغير ابطاء : « هذا صحيح يا سيدى المحامى » .

وبعد أن فرغ مسيو «روكفيار» من عملية دفع الأجور ، نظر إلى الجميع متسائلا : « أمسرورات أنتن جميعا ؟ » .. وإذا

بعشرين صوتا تجيبه معا بكلمات الشكر . وهنـا أشار طفل بأصبعه إلى امرأة عجوز انتحت مكانا قصيا فى خجل وانكسار، وقال : « ها هى ذى مدام فوشوا ! » .. ولم يأبه أحد لإشارة الطفل ، وكأن العجوز لم تؤد عمـلا تستحق عليه أى أجر.. بينما استأنف مسيو « روكفيار » حديثه إلى العاملات ــ قائلا بصوته اللطيف : « والآن أسعد الله مساءكن . سوف تصلن إلى (سان ــ كاسان) و (فيمين) قبـل هبـوط الظلام » ، فرددن عليه قائلات : «أسعد الله مساءك أيها السيد المحامى».

ووقف السيد « روكفيار » فى مكانه يرقب حاصـدات العنب وهن يبتعدن ، وقد أخذت ظلالهن تتضـاءل ــ أمام الشمس الغاربة ــ حتى تلاشت تماما ، بينمـا ظلت أصواتهن تتصاعد إليه من أسفل التل .. ثم انقسمن إلى فريقين : فريق اتجـه إلى (فيمين) ، والآخر إلى (سان ــ كاسان) .. وراح هذا الفريق الثانى يردد الأناشيد والأغانى الريفية الشائعة .. وكانت الشمس المحتضرة قد لامست الجبل فى تلك الأثناء .

أما المرأة العجوز ــ « مدام فوشوا » ــ فقد ظلت واقفة إلى جانب السيد ، لا تتحرك أو تطالب بشىء ، فناداها باسـمها قائلا : « بييريت ! » .. وإذ ذاك مالت برأسـها إلى الأمام ، فبدا وجهها وقد ارتسمت عليه دلائل الألم والقلق أكثر ممـا ارتسمت عليه تجاعيد الشيخوخة ، وتمتمت تقول : « مسيو فرانسوا » .. فأجابها : « هاك مائة درهم ، خذيها واذهبى لتناول الحساء فى المنزل » .. فنظـرت العجوز إلى الدراهم

البيضاء فى يدها الخشنة ، وقالت : « لكن هـذا أجر ثلاثة أيام ، وليس لى سوى أجر يوم واحد ؟! » .

ــ لا بأس . خذيها ! وكيف حال ابنتك ؟!

ــ لقد سافرت إلى (ليون) .

ــ وهل وجدت عملا هناك ؟

فتركت العجوز ذراعيها تسقطان إلى جانبيهـا ، ولم تحر جوابا ! .. فعاد السيد يسألها : « لكنها يجب أن تعمل ».

ــ إنها لا تستطيع العثور على عمل منذ قضى عليهـا .. بأنها لصة !

ــ فأجاب المحامى ، محاولا أن يلتمس للابنة عذرا مخففا : « إنها قد ارتكبت فعلتها بدافع الطيش والاستهتار والغرور .. إنها ليست شريرة بطبعها ، وفى مثل سنها يمكن إصلاحها . ولكن من أى مورد تعيش الآن ؟ » .

ــ من أى مورد تريدها أن تعيش ؟.. من الرجال الضالين!

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ لقد أرسـلت إليها فى الأيام الأولى من محنتهـا حوالة بريدية بمبلغ صغير لمساعدتها ، ولكنها ردتهـا إلى مرفقة بحوالة أخرى بمبلغ كبير .. فما كان منى إلا أن أحرقتها !

ــ ماذا أحرقت ؟

ــ أحرقت المال الذى جاء ثمرة العار يا سيدى فرانسوا !

وهنا انتصبت قمة الفلاحة العجوز من الغضب ، ورفعت يدها إلى السماء مهددة ، كما لو كانت تتهم القدر ، واستطردت

تقول : « لست أعرف كيف أنجبت هـذه الابنة !.. لم يكن فى أسرتنا سوى أنـاس شرفـاء ، أمـا الآن فان الخـزى يغمرنى ! » .

ـ لكنها ليست غلطتك يا ببيريت !

فهزت المرأة رأسها ، وأجابت فى لهجة التوكيد : « إنهـا غلطة الأسرة دائمـا ! وانت أول من يعرف ذلك جيدا ، لأنك أنت الذى قلت هذا ! » .. فقاطعها متسائلا فى دهشـة : « انا ؟ » .. فقالت : « أجل ، انت . قلته لها أمامى قبل صدور الحكم عليها . فلقد كان القلق يسـاورنى من ناحيتها ، فجئت بها إليك ذات يوم ... » .

ـ اذكر ذلك .. وماذا قلت لها ؟

ـ لقد قلت لها إنه إذا أتيحت للإنسان فرصة الانتماء إلى اسرة شريفة ، فعليه أن يصون هـذه النعمة باحترام كرامة الأسرة ، إذ جرت العادة فى الأسرات على أن يتقاسم جميـع أفرادها الخير والشر .. وثمار الخلق الطيب ، وتبعات الخلق المعوج !

ـ ولكن احـدا لا يستطيع إلقاء تبعة تصرفات ابنتك على عاتقك .

ـ ولكن الناس يحملوننى التبعة برغم ذلك .. ولهم العذر ، فقد شاء القدر أن يموت زوجى وهى ما زالت صغيرة .

ـ لو كان زوجك حيا لدافع عنها !

ـ بل قل لدق عنقها !

ـ وانت ، هل ما زلت تحبينها ؟

ـ إنها ابنتى !

ـ خففى عنك يابيبريت ، ولا تستسلمى لليأس ، فان الأمل لا يضيع طالمـا ظل الإنسان على قيد الحياة . هيا عودى إلى المنزل ، فانى ذاهب إلى المعصرة لأرى إن كانت الدنـان قـد وصـلت سالمة !

ـ شكرا يا سيدى فرانسوا

❊ ❊ ❊

وكانت المرأة قد اعتـادت القيـام ببعض الأعمـال فى مزرعة « البرج » ، كغسيل الملابس ، وحصد العنب ، والعمل فى المطبخ فى غياب الطاهى . ولم يبادر مسـيو روكفيار إلى الانصراف بعد ذهابها ، بل راح ـ بنظرات المحب الواله ـ يتأمل الأرض المنبسطة تحت قدميه .. ويرمق الكروم وقـد جردت من عناقيدها التى كان يجد فى عصيرها فتنة الأرجوان والذهب .. ويرقب المروج والمراعى التى حصدت مرتين .. وذلك المجرى الصغير المجهول الاسم ، الذى كان يفصـل بين مقاطعتى (كونيان) و (سان ـ كاسان) .. وغابات البلوط والزان التى بدت تحت سماء الخريف أشـبه بباقة باهتة ..

ولم يكن يقرأ على صفحة هذه الأرض ـ المتباينة الزرع ـ قصة تعاقب الفصول ، وإنما راح يقرأ تاريخ أسرته : فهـذا الحقل اشتراه جده « فلان » ، وذاك الكرم زرعه جد آخر ..

وهو ، الم يتجاوز حدود المقاطعة ، كى يضيف إلى المزرعة هذه الأشجار الكثيفة التى حان قطافها ؟.. وإذ استدار إلى مبانى المزرعة ، تعرف على الكوخ القديم المتواضع الذى بناه الفلاحون الأوائل من أسرة « روكفيار » — والذى أعيد ترميمه بعد ذلك مرارا — فقارنه بمسكنه الراسخ الدعائم ، الفسيح ، الذى يزينه كرم مزدهر بكر .. فى هذه البقعة ولد أسلافه وعاشوا ، وفيها يعيش الأحفاد الآن ، وقد زادهم قوة — من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء — ماض عريق من الشرف ، والعمل الدؤوب ، والمال المدخر . واشتد اعتزازه بنسبه وهو يكرر لنفسه العبارة التى قالتها له العجوز « فوشوا » منذ لحظات : « إنها غلطة الأسرة دائما ! » .. لقد أمدت أسرته البلاد برجال أكفاء فى أداء الواجب العام ، وفى إدارة شئونهم الخاصة على السواء . وهكذا تدعم الأجيال المتعاقبة بعضها بعضا من أجل رفاهية الجميع !.. أو لم يعبد له أجداده الأقدمون الطريق ؟.. ولقد اشتهوا قبله أن يتملكوا هذه الأرض التى يطؤها الآن بقدميه ، وخلب لبهم هذا الأفق الذى يحتويها بين احضانه !

وأحس بشىء من الألم وهو يرد طرفه عن أملاكه ، ليتأمل من جديد ما كانوا قد رأوه قبله من مجموعة الخطوط والألوان التى يتألف منها المنظر ، والتى تركزت فيها مشاعرهم ، كما تتركز فيها مشاعره الآن !.. ذلك أن المزروعات تستطيع أن تغير من شكل الأرض ، بينما يعجز الإنسان عن أن يحدث فيها أى تغيير .. لا فى صبغتها ، ولا فى مدى اتساع رقعتها .

إنه قد يضيف إليها بعض التعديلات المميزة فحسب ، كبيت ينبعث من سطحه دخان يوحى بأنه مأهول ويثير فى النفس الحنين إلى الدفء ، أو طريق ، أو سياج ، أو ناقوس يدعو بدقاته إلى الصلاة !

وإلى جانب شعور السيد « روكفيار » — فى وحدته تلك فوق التل — داخله ارتياح انبعث عن اتصاله الروحى بأسلافه ، فأحس بما كان لهذه البقعة من قيمة فى الماضى السحيق . وسرح بصره ، فاذا سلسلة جبال (ليبين) فى مواجهته ، وقد حفت بها حمرة الشمس الآفلة ، وقطعت استرسالها الرتيب مرتفعات (سنيال) . وانحدر بصره إلى السهل فانطلق لحظة مع طريق (ايشيل) البديعة ، التى كانت السفوح الدنيا للجبال تحف بها وكأنها تحرسها .. ثم صعد بصره إلى النتوءات البارزة فى جبال (كوربيليه) و (جوانى) و (جرانبيه) ، ليرتد من جديد إلى التلال القريبة ، والوديان المتدرجة ذات التعرجات المتناسقة . وتمثل الرجل صفات من أسلافه فى هذه الطبيعة المتباينة التى تصور الجبروت آنا ، وتصور الخمول آنا آخر .. فهى — من ناحية — تمثل بسالة جده الذى وهب نفسه للجيش فى عهد الثورة .. وهى ، من ناحية أخرى ، تصور له ترهل أبيه الذى أوشك أن يعرض هذا التراث المقدس للضياع ، باستسلامه لحياة الدعة !

واخذ يحدث نفسه : « لن يستطيع احد أن يستوعب مثلى روعة مغيب الشمس عن هذا المكان .. لسوف يفطن إلى هذه


فلم يفطن فى استغراقه إلى امرأة غادرت المنزل وأخذت تسعى إليه .. وكانت امرأة متقدمة فى السن..

الروعة ــ بعد موتى ــ أحد أولادى .. اولادى الذين سيواصلون أداء الرسالة ، ويكونون ذرية صالحة ! » .

***

وعلى ضوء الماضى ، اخذ يستعرض المستقبل فى ثقة واطمئنان ، فلم يفطن فى استغراقه إلى امرأة غادرت المنزل واخذت تسعى إليه .. وكانت امرأة متقدمة فى السن ، تضع على كتفيها شالا قاتما ، وتتكىء على عصا ، وقد بدا عليها الإعياء الشديد . وكان وجهها ــ الذى انعكست عليه ظلال المساء ــ يوحى بما كانت عليه فى شبابها من جمال أذبلته السنون دون ان تفقده سمات الطهر والبراءة التى كانت تأخذك منه فى البداية ، ثم تجتذبك !.. كان ذلك الوجه صورة حية لنفس مستقيمة مبراة من كل شر ، ونزعة إلى التصوف !

وسألت « مدام روكفيار » ـ إذ كانت هى القادمة ـ زوجها: « ألم يصل الأولاد بعد ؟ » .. فأجابها : « ها هم أولاء قادمون يا فالنتين » . وكان الزوجان يعنيان أولادهما . وأشار الزوج بيده إلى جمع غفير يصعد الطريق من أسفل المنحدر ، وعلى رأسه طفلان تعرفت عليهما جدتهما ، فقالت : « ها هما بيير وأدريين ، يسلكان الطريق المختصرة . ولكنى لا ارى الصغير جوليان ؟ » .

ــ لا بد أنه ممسك بيد عمته « مرجريت » ، فهو لا يتركها مطلقا .

ــ هذا صحيح ، فإنى ألمحه بين مرجريت وخطيبها . أن هذا الخبيث يفصل بينهما !.. وأمه ، أين هى ؟

— إنها تسير خلفهم ، فى تؤدة كعادتها ، وبجوارها أخوها « هوبير » .

— وابننا الأكبر ، هل يمكنك أن تميز الوسام الذى يحلى به صدره ؟

فابتسم السيد « روكفيار » ، والتفت إلى زوجته قائلا : « كيف تريدين منى أن أميزه من هـذا البعد ؟ » .. مضحكت زوجته بدورها فى سماحة ، وأردفت : « هناك شريط أحمر كبير يصعد الجبل » .. فقال الزوج مازحا :

— ولعلك ترين على صفحة السماء هذه العبارة : « هوبير روكفيار : ٢٨ سنة ، ضابط فى مشاة البحرية ، أنعم عليه بوسام البسالة فى الحرب ، مرشح للترقية ، وقد اشترك فى حملة الصين والدفاع عن بيتانج » !

فقالت الزوجة فى تأكيد : « إننى أقرؤها بوضوح ، دون ريب ! » .. ثم نظرت من جديد إلى الطريق بعين فاحصة وتساءلت : « وموريس ؟ لست أرى موريس » .. فأجابها : « إنه يسير فى المؤخرة على ما أظن ، مع شخص آخر » . فوضعت مدام روكفيار يدها على كتف زوجها فى ارتياح وأردفت : « لعله شارل مارسيلاز ، زوج ابنتنا . لقد اكتمل عددهم .. إننى أراهم الآن وأحصيهم كما كانوا صغارا : جيرمين ، وهوبير ، وموريس ، ومرجريت ... » ، فقاطعها زوجها : « لا ينقصهم غير فيليسى التى نفتقدها دائما » .. وغامت على وجهه سحابة من الكآبة .. فهو لم يكن قد ألف

بعد غياب ابنته الثانية ، التى عبرت البحار لتكون راهبة تقف حياتها على العناية بالمرضى الفقراء فى مستشفى (هانوي) بالصين ؟

واتكأت الأم بقوة على كتف زوجها وقالت : « كلا يا فرانسوا ! .. إنها ليست بعيدة عنا ، فهى معنا بروحها . إننى موقنة بذلك ، وأحسه . لقد قابلها هوبير قبل عودته من الصين فوجدها سعيدة .. وسيأتى يوم نلتقى فيه جميعا ! » .. فلم يشأ الرجل أن يترك لعواطفه العنان أمام زوجته ، بل قال مغيرا مجرى الحديث : « إنه ليس شارل الذى يسير بجوار موريس .. إنها امرأة . ولقد تركا الطريق المختصرة ليسلكا الطريق الطويلة » .

— لعلها تكون مدام فرازن . هل ترى زوجها ؟

— نعم ، إنها هى .. ولكنى لا أرى زوجها موثق العقود !

— إنه سيأتى مع شارل بعد قليل ، فإن عملهما يعوقهما حتى الساعة السادسة .

— إن فرازن وزوجته سيتناولان العشاء هنا الليلة ، أليس كذلك ؟

— نعم ، فلقد سألنى موريس أن أدعوهما للعشاء لأنه طالما دعى عندهما .

ولاذ الاثنان بالصمت برهة ، وقد اعتراهما قلق واحد مشترك !.. ثم قطعت الزوجة حبل الصمت قائلة : « إننى

لا احب هذه المرأة ! » .. ودهش الزوج ، لا من الملاحظة ذاتها ، وإنما لصدورها من زوجته التى كانت بطبعها انموذجا حيا للسماحة !.. فسألها ــ بدلا من أن يقر كلامها : « لماذا ؟ » .. وحدجت مدام روكفيار ــ بعينيها الصافيتين ــ الشمس الغاربة وأجابت : « لست أدرى لماذا . فإن أحدا لا يعرف من أين اتت ، وإننى لأرتعد عندما افكر فى المدى الذى تنوى أن تمضى إليه !.. إنها ليست جميلة ، ومع ذلك فان مجرد النظر إليها يكفى لإثارة قلق الأمهات على أولادهن ، والزوجات على أزواجهن ! » .

ــ هذا يدعو للرثاء !.. من الذى حدثك عنها ؟

ــ لم يحدثنى عنها احد ، ولست أعرب إلا عما يخامرنى . إن الذين يسرفون فى الصلاة ليسوا اقل الناس دراية بهذه الأمور إن لهذه المرأة عينين غريبتين ، سوداوين ، يشع منهما لهب ! إنها تخيفنى !

ــ آه ! صحيح ! إن اهل المدينة يتحدثون عنها وعن ابننا .

ــ يجب أن ننبه موريس .. أن نحذره بلا إبطاء !

ــ وكيف يا عزيزتى ؟.. لسنا متأكدين من شىء على وجه التحديد .. إنها شائعات ، فما قيمة الشائعات ؟

ــ إنها ليست شائعات ، فاننى أكاد ألمسها . إن ابننا فى خطر !

فقال السيد روكفيار : « إن بعض العواطف قد تزداد تدعما إذا نحن كافحناها ! ولعلك مقتنعة بذلك ، وإلا ما وافقت

موريس على دعوة الزوجين . ثم أن الشبان لا يطيقون مثل هذا التدخل فى حياتهم، لا سيما وأن موريس دكتور فى القانون: فهو شديد الاعتداد بنفسه ، والتعلق بنظريات سخيفة عن حق الإنسان فى السعادة ، وفى أن يكون حرا فى تنمية شخصيته !.. إن باريس تثقفهم ، ولكنها تبث الثورة فى نفوسهم ، فلابد لهم من التجارب حتى يتعقلوا ويتزنوا » .

ــ إذن فقد كان هذا الأمر يقلق بالك، دون أن تحدثنى عنه !

ــ ولماذا اثير شجونك وحزنك ، وقد ضعفت صحتك .

ــ اجل ، يجب ان اقوى ، إذ لابد للأم من أن تكون قوية . على ان لديك انت من القوة ما يكفى كلينا !

ــ لقد اخطانا بوضعه فى مكتب الأستاذ فرازن ! على اننى اردت ان اتيح له فرصة الإلمام العملى بالقضايا ، لا سيما ما يتعلق منها بالمواريث وتصفية المتلكات ، قبل ان يتخذ لنفسه مكتبا مستقلا .. ولما كان الأستاذ فرازن هو خليفة الأستاذ كليرفال ، الذى كان صديقى . كما كان موكلا بعقود أسرتنا ، فقد حرصت من جانبى على احترام احد تقاليد الأسرة .. ولكننى اخطأت ! على ان كل شىء لن يلبث ان يتغير عما قريب ..

وتساءلت فى دهشة : « عما قريب ؟ » ، فقال : « أجل !.. سآخذ موريس فى مكتبى حيث يتم فترة التمرين ، أو ليتدرب

على الإجراءات القضائية لدى مارسيلاز . وسأنبئه بهذا بمجرد استقرارنا فى المدينة » . . فشدت على يده قائلة : « لا بأس ، فبهذا تقل فرص مقابلته لها ! ولكن هذا لا يكفى ، فأنت تراه ميالا إلى العقل والمنطق ، اما انا فأراه خياليا عاطفيا ، وبودى أن أشغل خياله ! » . فتساءل الأب : « وكيف ؟ » .

ـ بان ادبر له خطبة مبكرة مثلا . فان الخطبات الطويلة الأمد تشغل الشبان وتذكى وجدهم . . إننا فى فرنسا نتعجل الزواج ، فى حين أنه أمر وثيق العلاقة بالحياة وبالأسرة وبالمستقبل !

ـ هذا صحيح .

ـ ولقد فكرت مرجريت فى « جان ساسيناى » الشابة . فقال السيد روكفيار : « ولكنها طفلة ؟! » ، فأجابت : « طفلة جميلة نشأت فى أحضان ام قديسة ! » .

* * *

وقطعت عليهما الحديث صرخات الصغار : « مساء الخير يا جدتى . . مساء الخير يا جدى ! » . . كانت طليعة الأولاد قد وصلت ، مؤلفة من «بيير» و « أدريين » اللذين راحا يلهثان تعبا ، بعد أن تسابقا فى العدو ، برغم صيحات مدام روكفيار : « لا تجريا بهذه السرعة ! » . وتلقاهما جدهما بين ذراعيه ، فقالت « أدريين » فى جراة ودون ما كلفة ، شأنها مع الجميع :

« لقد آثر جوليان البقاء مع عمتى مرجريت ، برغم أن أمى أوصته بأن يصحبنا ! » . . وما لبث الشبان الذين صعدوا السفح أن صاحوا بدورهم : « مساء الخير ! » .

ولم يتخلف عن المساهمة فى هذا اللقاء العائلى سوى « موريس » و « مدام فرازن » الذين كانا بمبعدة ، وقد أخذا يتعمدان الإبطاء ـ كلما اقتربا من القمة ـ ليظلا على مسافة طويلة من بقية الجماعة ، برغم أن مرجريت استدارت عدة مرات لتناديهما . وحجبت نهاية منعرج الطريق الجبل ، إلا أن موريس والمراة استطاعا أن يلمحا السيد روكفيار وزوجته فوق القمة ، وقد انتصبا كطيفين فى الفضاء ، وإذ ذاك ألقت المراة نظرة ذات معنى على زميلها ـ الذى أهاجت الخلوة لواعجه ـ وقالت : « لابد أن اباك كان اجمل منك ! » ، ثم عقبت بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها : « إنه يعرف بغيته وكيف ينالها ! » . فتضايق موريس ، ولكنه رمقها فى صمت فابتسمت لغيظه وتساءلت : « كم عمر أبيك ؟ » .

ـ ستون عاما على ما اظن !

ـ ستون عاما ! . . إنه يبغضنى ، ولا يحجم عن القضاء على إذا شاء !

ـ تخطئين الظن ، فهو يحسن استقبالك دائما .

ـ هذه أمور يحسها المرء فى قرارة نفسه . . إنه يكرهنى ، ومع ذلك فهو يعجبنى ! إننى احب الرجل ذا الشخصية !

ودارت بهما الطريق قبل ان يبلغ منتهاها ، فكشفت لهما عن منظر جديد كانت تحده من اليمين رمال ، ومن اليسار أشجار حال لونها فاصبحت مزيجا من خضرة الربيع وصفرة الخـريف الذهبية .. ولاح لهما فجـأة جبل (نيفوليه) بقوامه البديـع المتناسق ، وقد انعكست عليه فلول أشعة الشمس الآفلة .. واصطبغت الأعشاب النحيلة ـ التى تسلقت الصخور ـ بلون بنفسجى كلون الرواسب المتخلفة فى النبيذ ، كمـا تبدت فى المؤخرة سلسلة جبال (مرجيريا) وقد اكتست بحمرة وردية باهتة ، فتمتم موريس مأخوذا : « أرأيت كيف تغير المنظر ! » .. ولم يفطن إلى ان صاحبته كانت أكثر احتفالا بوحدتهما منها بجمال المساء البديع !.. ومـا لبثت أن توقفت عن السير ، فالتفت إليها قائلا : « ماذا دهاك ؟.. أمتعبة انت ؟ » .

ـ لا .. ولكننى امنحك وقتا لتتأمل الطبيعة !

ـ اتراك تغارين ؟

ـ اجل ، فانت تحب بلدك . اما انا ..

فهتف فى قلق : « اما انت ؟ » .. فقالت : « لن اقول لك ! » .. وإذ ذاك قال موريس : « اما انا ، فسـأقول لك : إننى احبك ! » .. وضمها بين أحضانه .. وكانت امراة نحيـلة ، سمراء ، ذات عينين واسعتين ، وجسد يثير المشاعر ، ولكنه لا يلين للعناق ! وإذ طوحت برأسها إلى الخلف قليلا ، رأى خلال جفنيها نصف المغمضين نظرة اختلط فيها السواد بذهب الغروب ، وتركزت فيها كل الغواية الشهوانية التى يثيرها فى

النفس ذلك الفصل من السنة ، وتلك السـاعة من اليوم . وغمغم موريس وهو يضمها : « ما اضألها من مخلوقة !.. ومع ذلك ، فان هذه المخلوقة الضئيلة تعـادل الـكون كله فى نظرى ! » .. واردف : « أحبك يا أديث ! » .

فقالت والابتسامة المستضعفة لا تفارقها : « أحقا ؟ » .. ولم يجب ، بل هتف فى وجد : « متى تكونين لى ؟ » ، فأجابت : « عندما لا اكون لغيرك ! » .

ـ مستحيل !

ـ ولمـاذا ؟

ـ لأنك مرتبطة برجل

ـ فلنرحل معـا !

ـ وكيف نعيش ؟

ـ على صداقى المدخر !

ـ لا احبذ هذا .. فضـلا عن انك لا تملكين التصرف فى الصداق .

ـ سأسترده

ـ لا ، لا !

ـ بوسعك ان تعمل

وصمت ، فانهالت عليه بكلمات السخرية وهى مغيظة : « آه !.. إنك تؤثر ان تطيع اباك ! كن مثله رجـلا كبيرا فى بلدة صغيرة ، وابا لأطفال عديدين! » .. وإذ رأت مدى أساه ، ارتمت على صدره قائلة : « إننى احبك ، واعذبك .. ولكنك ترى اننى اختنق فى بلدتك هـذه .. (شامبيرى) !.. اريد ان ارحل ، وان اكون حـرة فى أن احبك ، وفى أن أعيش .. فاننى امقت الكـذب !.. ثم إنك لا تحبنى ! » .. فهتـف : « كيف استطعت ان تقولى هذه يا اديث !؟ » .

— لا ، إنك لا تحبنى .. ولو انك احببتنى صـــادقا ، لكنت
تك منذ امد بعيد !

وعادا يسيران على مهل ، وقـد أثقلت نفسيهما هـذه
الاعترافات . وتخلص الأفق من النطاق الجبـلى ، فاتسعت
صفحته ، وبدت فى اقصاه — خلف آخـر قمم (نيفوليه) —
بحيرة (بورجيه) التى تباينت زرقتها ، إذ كان البخار الرمادى
المتصاعد من اطراف البحيرة يخففها فى تدرج بديع .. ولكنهما
لم يعودا يريان شيئا من هذا « الجمال » : لا الهـدوء الخانق
الذى يجثم على الكون فى هذه الفترة من السـنة ، ولا تلك
الروعة المضطربة التى تتجلى بها الطبيعة ، ولا تلك الفتنـة
التى تشوب مساء الخريف فكأنها إغواء صارخ .. فما حاجتهما
إلى كل هذا وفى قلبيهما مثله ؟

وقبيل وصولهما إلى البيت ، التقيـا بمدام روكفيـار التى
اقبلت بنفسها لتستقبل مدام فرازن ، برغم نصح الأطباء لهـا
بعدم مغادرة البيت بعد الغروب !

وفيما كان السيد « روكفيار » عائدا من المعصرة — فى ساعة
متأخرة من المساء ، لم يكن احد يرتقب عودته فيها — ابصر ابنه
مع المرأة الشابة فى الظلام .. فان الحركة تنشـط فى الدار
أيام الحصاد ، بحيث يسهل التسـلل إلى الخـارج ، دون
استثارة اى انتباه .

وهتف موريس : « لقد رآنا » ، فقالت مدام فرازن : « هذا
أفضل ! » .. وحاول مسيو روكفيار عبثا ان يطرد عنه القلق ،

وهو يمر بالمخزن — ذاك المبنى القديم الذى شيده أسلافه —
ليبلغ مدخل الدار التى أسسها جده ، وزادها هو اتساعا ..
وقال لنفسه متذكرا حياته : « لقـد كنت شـابا مثله ! » .
ولكن الشباب ذاته لم يصرفه عن تدعيم مستقبل سلالته . فهل
سيتاح لابنه الأصغر — فى وقت ما — ان يصلح من نفسه ،
وان يبدى من الهمة والاستعداد للتضحية ما يؤهله لشرف
رئاسة الأسرة ؟.. ولم يكن روكفيار بطبعه سهل الانفعال ،
ولكنه احس إذ ذاك بقنوط « مدام فوشوا » وأساها ، وبوطأة
الخريف ووحشته ، تحيط به كأنها سرب من طيور شريرة !..
لقد كان منذ فترة يستعرض — أمام مزرعته — تاريخ آل روكفيار
باعتزاز وفخر ، فإذا به ، بعد حديثـه مع « مدام فوشوا »
العجوز ، وبعد قبلة فاجأ ابنه وهو يطبعها ، يشعر بهم يجثم
على صدره ، دون ان يجـد له تعليلا ، ويشـهد كيف تكتهل
فصول السنة ، وكيف تنهار الأسرات !

٢ — الشقاق

غادرت أسرة روكفيار الريف ، عائدة إلى مقرها الشتوى
فى (شامبيرى) ، بعد رحيل ابنها الأكبر « هوبير » ليلحـق
بحاميته فى (بريست) . وكانت الأسرة تقيم فى الطابق الأول
من دار فخمة قديمة ، تقع فى نهاية شارع (بوانى) ، مجاورة
لحصن المدينة الأثرى . وكان شـهر أكتوبر قـد أشرف على
نهايته ، فشغل المحامى بالقضـايا وبمحكمة الاستئناف . وفى
ذات يوم ، فرغ السيد «روكفيار» من الغداء الذى حال المرض

دون أن تشاطره إياه زوجته ، ثم استدعى ابنته مرجريت — بينما كان ابنه موريس منهمكا فى قراءة الصحف — وقال لها : « تعالى معى ، فانى أبغى استشارتك » ، فتساءلت : « فى اى أمر يا ابى ؟ » .. ورمق الأب موريس الذى لم يكن يصغى إليهما ، ثم قال : « فى تنظيم جديد لمكتبى » .

وكانت غرفة مكتبه تقع على رأس الشارع ، وهى غرفة فسيحة ، مرتفعة السقف تنيرها أربع نوافذ ، تشرف اثنتان منها على الطريق المؤدية إلى (سافوا) ، وتطلان على الحصن الأثرى الذى كان مقرا للدوقات الغابرين ، والذى كان مؤلفا من مبان ضخمة عتيقة ، اسودت بفعل الزمن — إذ كان عهدها يرجع إلى القرن الرابع عشر — وتخللت جدرانها الملساء نتوءات لا تكاد ترى . على أن هذه المبانى العتيقة كانت تجاور — فى الجانب الأيمن — « كنيسة القديسة » ، التى كانت على شكل زهرة رقيقة ، تقوم على غصن تألف منه أساس الحصن. وكانت غرفة مكتب روكفيار تطل — من الجانب الأيسر — على دار المحفوظات (الأرشيف) ، التى كست جدرانها فروع اللبلاب والكروم البرية ، وتوج هامها برج طلى باللون الأبيض منذ عهد قريب ، فبدأ فى انتصابه ومظهره كذلك الريش الأبيض الذى يزين رأس الطاووس (المغرة) .. كانت هذه المبانى تنتمى إلى عهود مختلفة ، وطرز متباينة ، وقد شيد بعضها على مهل ، وبعضها على عجل ، تبعا لموارد الأمراء المالية وطموحهم . ومن ثم فانها كانت أقل اتساقا — ولكنها أفخم مظهرا — من المبانى التى ينشئها سيد واحد فى جيل واحد ..

وكانت تضم تاريخا طويلا حافلا بساعات الهناء ، وساعات الشقاء . وكان برجا الكنيسة ودار المحفوظات يبرزان خلال أشجار كثيفة متشابكة ، زرعت فى شرفتين — إحداهما فوق الأخرى — فبدت وكأنها متداخلة بعضها فى بعض . وعلى حافة الشرفة الخارجية ، قام تمثالان حديثان لجوزيف واكزافييه دى ميستر . وهكذا تجمعت فى تلك البقعة الصغيرة ذكريات قرون عديدة .. وفى هذا المكان المهجور ، الموحش — كالقبر — كان الماضى يتكلم !

ومهما يألف المرء منظرا ما ، فان أى تذبذب للضوء كفيل بأن يدخل عليه تجديدا . ومع أن أشعة الشمس كانت تصلى واجهة الحصن الكئيبة — حين دخل السيد روكفيار وابنته غرفة المكتب — إلا أنها خلعت لونا ورديا على الزخارف القوطية التى كانت تزين الكنيسة ، وعلى قمم الغصون التى خف ثقلها إذ بدأت تتخلص من أوراقها . كذلك أسبغت الشمس لون النبيذ على دار المحفوظات ، كما كانت تداعب قمة البرج .. فقالت مرجريت لأبيها : « إن هذا المكان يهيىء لك جو العمل .. كم يسرنى أن أراك مقبلا على العمل هنا ! » . فقال : « كنت أود لو أن أمك اتخذت من مكتبى هذا حجرة للاستقبال ، ولكنها تأبى دائما .. ولكن ، ألا تلاحظين شيئا يا صغيرتى ؟ » .

وأجالت مرجريت بصرها حول الجدران ، فرأت خزانات الكتب الحافلة بالمؤلفات القانونية والفقهية ، وبضع صور للمشرعين القدامى من أجدادها — وقد أضفى عليهم الرسامون صرامة تفوق صرامة أحكامهم ! — ولوحة للرسام « بورجيه »

ديجار » تمثل بحيرة من أجمل معالم إقليم (سافوا) ، ثم رسما لمزرعة « فيجى » — مزرعـــة الأسرة — فى إطـــار يبرز على ما عداه . وما لبثت مرجريت ان قالت : « لا .. لست الاحظ شيئا ! » ، فقال الأب : « لأنك تتطلعين إلى أعلى » .. فردت الفتاة بصرها إلى الحجرة من جديد ، وإذا بها تلاحظ شيئا لم تفطن إليه فى المرة الأولى .. فان المنضدة الضخمة المصنوعة من خشب البلوط — والتى كانت من الكبر بحيث تتسع لأكداس الملفات — كانت قد أزيحت من مكانها ، لتحل فيه منضدة اخرى أنيقة ، واصغر حجما ، احتلت من الحجرة موقعا كان الجالس فيه يستمتع بأكبر قسط من الضوء ، فضلا عن المناظر الجميلة .. وصاحت مرجريت : « اوه !.. لـــماذا ازحت منضدتك ؟ » .. فأجاب : « لكى اخلى مكانا لأخيك » .

— وهل سيترك موريس مكتب فرازن ؟

— اجل ، سيجلس إلى جوار النافذة .. انظرى من هنا ، إن الخريف يجرد الأشجار من أوراقها. اما انا فأفضل الربيع ، وهناك — فوق البرج — فرع دبت فيه الحياة فأنبتت البراعم الحمراء .

ولم تكن مرجريت تصغى إليه ، بل تبدى عليها الوجوم ، ثم قالت : « موريس .. اجل وأنت ؟ » . فقال : « يا صغيرتى ، يجب ان يشعر الشاب بغبطـــة فى داره . أليس بوسعك أن تكملى ترتيب هذه المنضدة ؟.. زينيها ببعض الزهور مثلا ! » . ولكنها أجابت : « ليس هذا بموسم الزهور يا أبت !.. ليس لدى سوى زهر الكريزانتيم (اللاتنيا) » . فقال : « إذن هاتى

الكريزانتيم .. زهرة أو اثنتين — لا أكثر — فى وعاء طويل . فان دكاترة القانون يعودون إلينـــا من باريس ، وقد أغرموا بالأشياء الجميلة .. وانا لا اعـــرف الذوق ، أما أنت فزهرة الأسرة ، وفى وسعك أن تساعدينا على تعرف الذوق » !

وابتسم فى انفعال الذى يرجو إرضاء سامعه ، ثم اقترب من ابنته الشابة ، فألقى راحته على شعرها الكستنائى القـــاتم الجميل ، غير محاذر من ان يخل بتناسقه ، وقال : « إنك لن تلبثى ان تبرحى هذا البيت عما قريب يا مرجريت . أفأنت سعيدة بزواجك ؟ » .. وبدلا من أن تجيب ، ألقت بنفســـها على صدر أبيها وهى مثقلة الفؤاد ، وطفقت تبكى .. وكانت قريبة الشبه من مسيو روكنيار ، وإن لم تؤت نفس قسمات وجهه .. فقد كانت ذات قوام فارع قوى ، وأنف مدبب قليلا ، وذقن مستقيمة . وكانت — كأبيها — توحى بالطمأنينة والولاء ، كما كانت عيناها الواسعتان ، السوداوان ، الشديدتا الصفاء — كعينى أمها — تضيفان إلى وجهها رقة عميقة ، بينما كانت عينا أبيها — الصغيرتان ، الغائرتان — تشعان بنظرة ملتهبة حادة لا يكاد المرء يحتملها !

وقال الأب وقد أقلقته دموع ابنته : « لماذا تبكين ؟ ألا يروق لك هذا الزواج ؟ إن ريمون بيرسى شـــاب لطيف ، من أسرة طيبة ، وقد أتم دراسة الطب ، وعول نهائيـــا على الإقامة فى بلدتنا . أهناك ما تأخذينه عليه ؟ ليس من الواجب أن تتزوجى من لا يميل إليه فؤادك » .. وغالبت الفتاة عواطفها ، وتمتمت : « أواه !.. ليس هناك ما آخذه عليه ... ولو انه ... » .

فقاطعها متعجلا : « تكلمى يا صغيرتى .. هيا ، على مهل ! »
.. ورمقته بعينين مليئتين بالإعجاب وقالت : « ولو انه ليس
مثلك ! » .. فهتف : « إنك لسخيفة ! » .

وإذ هدأ روعها قالت : « لست أدرى سر بكائى .. كان يجب
ان اكون سعيدة ، ولكن.. الم اكن سعيدة هنا ؟.. إن طفولتى
تعاودنى الآن بمباهجها وإشراقها ، فأشعر بأسى طاغ لمغادرة
هذه الدار » . فراح يسرى عنها ، قائلا فى وجوم : « لا تنظرى
إلى الوراء يا مرجريت ، فان هذا جدير بأمك وبى . اما انت ،
ففكرى فى مستقبلك كامراة ، واقبلى على هذا المستقبل دون
تراخ ! » . فقالت وهى تحاول الابتسام : « إن مستقبلى فى
اسرتى » ، فعقب قائلا : « انه فى الأسرة التى تنشئينها ! » .

ــ كثيرا ما نصحتنى يا ابت ، اثناء تلك النزهات التى كنا
نقوم بها معا فى الشتاء ، بان احافظ على تقاليدنا !

ــ ولكن التقاليد لا تحفظ ــ ايتها المجادلة الصغيرة ــ داخل
صوان الثياب ، كما يفعل جارنا فى الريف « الفيكونت ديلا
مورتيلليرى » ، الذى يحتبس نفسه ليعيد تنسيق شعارات
اسرته وشجرة نسبها ، والذى يعجب لأن فلاحيه يجرؤون على
ارتداء الأحذية الطويلة الرقاب !.. كذلك لا تصان التقاليد
فى دار عتيقة ، او ضيعة قديمة ، بالرغم من أن الاحتفاظ
بالتراث من الأمور الهامة .. إنما تمتزج التقاليد بحياتنا
وبمشاعرنا ، لتقوى وتزداد قيمة وبقاء !

وعادت ترمقه بعينيها الواسعتين المليئتين بالإعجاب ، ثم

همست : « لشد ما انا متعلقة بهذا البيت ! » ، فأجاب فى
حزم : « لا ، لا .. إن الزواج يبدو دائما كمجهول محوط
بالغموض ، ومن ثم فانى ادرك ان هذا التغيير ــ الموشك ان
يطرا على حياتك ــ يشغل بالك ، ولكن من الواجب ان
تكونى مبتهجة ومرحة وانت تغادرينا ، ما لم يكن لدى قلبك
أو عقلك اعتراضات جدية على هذا الزواج . لقد كنت
سعيدة بيننا ، وفى هذا ما يعزينى . وهيا اذهبى فاحضرى
زهورا ، واستدعى موريس ! » .. فقالت: « سمعا يا ابت! »

وإن هى إلا لحظات ، حتى عادت مرجريت تحمل « زهرية »
نسقت بها الورود .. وبحركة رشيقة من يدها ، تغير مظهر
المنضدة المعدة لأخيها . والقت نظرة نمت عن ابتهاج ، وقالت :
« لقد كانت عندى بقية من ورود ، هى الأخيرة فى الموسم ..
ها هى ذى ، فى الزهرية التى يتبدل لونها تحت أشعة الشمس ،
كما تفعل زهور عباد الشمس . ما اجملها ! » .. فردد السيد
روكفيار قولها : « ما اجملها ! » .. وكان يعنى ابنته لا
الزهرية ، فضحكت وفرت من الحجرة قائلة : سأهرع الآن
لاستدعاء موريس » .

* * *

ولبى الشاب نداء اخته دون تمهل . وقال وهو يلج
حجرة مكتب ابيه ــ ممسكا بقبعته وعصاه وكانه يتعجل مغادرة
البيت : « الديك ما تريد أن تقوله لى ؟ » .. وكان فى مثل طول
ابيه وقوامه ، ولكنه كان أنحف منه جسما ، وانصع بشرة ،
ومع انه كان اكثر منه اناقة ورشاقة ــ ايضا ــ إلا انه لم يؤت

ما أوتيه الأب من سيماء العظمة ، سواء فى مظهره أو فى مسلكه .. ولا ذلك الجلال الطبيعى ، الذى بذل السيد روكفيار — فى تلك اللحظة — جهدا للتخفيف منـــه ، ولإبداله بروح الزمالة والود ، وهو يقول : « تأمل كيف أعدت مرجريت منضدتك ! » . فهتف الشاب فى عجب : « منضدتى ؟ » .

— اجل ، هـــذه المنضدة ، ذات الورود .. انك ترى — إذ تجلس إليها — الحصن والشمس .. الا تريد أن تتم مرحـلة التمرين معى ؟

وأخذ شعاع من الشمس يداعب الورود ، بينمـــا كان برج دار المحفوظات والقصر يسبحان فى النور . وكشف ضوء النهار عن وجه السيد روكفيار الذى كان يتلطف إلى ابنه فى عبـارات رقيقة مؤثرة .. ولكن الأبناء لا يعرفون صبر الآباء إلا بعـد فوات الأوان ، وبعد ان يمارسوا مهام الأبوة . ومن ثم تساءل موريس : « اتقصد اننى يجب الا أعود إلى مكتب فرازن ؟ » .. فأجاب الأب : « نعم فلا نفع لك فى العـــودة . لقـد ألمت تماما بقـانون المواريث ، ويحسن بك أن تتبع سير القضايا ، وأن تحضر الجلسـات . وإن شئت ، ففى وسعك ان تقضى بضعة أشهر لدى شارل ، زوج أختـك ، الذى يستطيع أن يبصرك بالإجراءات الجنائية — فهو من المحامين المعدودين ، ومن اكثرنا حصولا على القضايا — على أن تتقدم بعـد ذلك للمرافعات . وإن شئت فان لدى قضية بديعة أقدمها إليك ، بشأن صحة عقد من عقود البيع » .

قط لم يترافع مسيو روكفيار بمثل ذاك الحذر وتلك الرقة . ولكن الشاب تركه يتكلم وراح يفكر . ثم قال : « كنت أظن ان من المتفق عليه ان أقضى ستة أشهر فى مكتب الأستاذ فرازن » .. فأجاب الأب : « حسنا ! هاقد أوشكت الأشهر الستة على الانتهاء . فلقد بدأت فى يونيو ، ونحن الآن فى نهاية اكتوبر » .. فقال الابن مماطلا : « ولكننى حصلت على عطلتى فى شهر أغسطس ، وقد انتهت منذ عهد قريب ، وانا أفحص الآن بعض قضايا التصفية الهامة » . فرد الأب فى حـزم : « ستعالج فى المحكمة قضايا من هذا النوع ، فهى تنتهى فى أغلب الأحيان إلى المحكمة . وقد قبلت فى هذا الموسم عددا من القضايا الفريدة ، وسوف تساعدنى . فاذهب واحضر حافظـة أوراقك من عند الأستاذ فرازن ، وامكث هنا » .

— إن الأستاذ فرازن متغيب ومن الأليق أن انتظر أوبته ،

كان موريس يتلمس الاعذار ، ولكن اباه لم يحفل بأعذاره ، بل قال : « لسوف يعود غدا ، وقد أخطرته — على اية حال — قبل رحيله » .. ووجـد موريس فى هذا النبأ فرصة للتنفيس عما جاش فى صدره ، فصاح : « هل اخطرته قبل ان تسألنى رأيى ؟ .. إذن فساكون دائما طفلا ، هنا ، تتصرف فى كأننى سلعة . ولكننى لن ارضى بأن ينتزع منى استقلالى . إننى حر ، واطالب بأن استشار — على الأقل — لا سيما فيما يتعلق بى ! »

إزاء هذه الثورة التى كان السيد روكفيار يتوقعهـا ويدرك سببها الخفى ، راح يرمق ابنه فى هدوء برغم ما شاب الحديث من بعد عن الاحترام .. كان يعرف أن الجياد الجموحة صعبة

المراس ، وكذلك حال الشخصيات ذات الإرادة الصلبة المعتدة.
ومن ثم اجاب فى بساطة : « إنك ابنى سواء اكنت صغيرا أو
كبيرا ، ولذلك فانى أعاونك على إعداد مستقبلك ! » .. ولكن
الشاب مس العقبة التى كان كلاهما يتفاداها حتى تلك اللحظة.
إذ قال : « فيم التستر ؟ إننى أعرف تمام المعرفة السر فى أنك
تريد إقصائى عن مكتب فرازن » . ولكن حضور بديهـــة الأب
مكنه من تفادى الاصطدام ، فقال : « اتراك ستكون فى مكتبى
اسوا حالا ، وهل تظنك تستطيع ان تستغنى — فى استخفاف —
عن توجيهـــاتى ؟.. هل سيكون استقلالك مهددا لانك ستفيد
من خبرتى المهنيـــة ، ومن الاربعين عامـــا التى قضيتهـــا فى
المحاماة ؟.. إننى لا افهمك ! » .

وشعر بانه افحمه، فسعى لاستكمال نصره بشيء من الحنان،
فقال : « إن أمك مريضـــــة ، واختك لن تلبث ان نبارحنـــا ،
وستخف وحشتى بوجودك ! » . وتريث لحظة وهو يأمل فى ان
يكون قد بدد العاصفة ، ولكن موريس ظن بعد تردد — إذ كان
فى قرارة نفسه يعجب بأبيه — ان بوسعه أن ينتصر على هذا
التلطف ، فعاد يحمل على العنصر المفقود فى المعركة : « اجل ،
لقد وشى الناس بى لديك من اجل مدام فرازن ، فمـــاذا قالوا
لك ؟.. إننى اريد ان اعرف ، فان من حقى ان اعرف . آه !..
ان الحياة لا تطاق فى الاقاليم ! فالمرء فيهـــا يكون مراقبـــا ،
يتجسس الناس عليه ويحصون حركاته ، ويقيدون من حريته .
إن انبل العواطف تصبح فى الأقاليم نهبـــا لألسنة كل من تقيم
البلدة له وزنا من المنافقين الحاسدين والانتهازيين ! ولكننى

لا اصدق انك يا ابت قد أصغيت لهذه الشائعات الوضيعة التى
لا تتورع عن النيل من أشرف النساء ! » .

وكف السيد روكفيار عن التستر ، فقال : « لقد تركتك تتكلم
يا موريس ، فاسمعنى الآن . اننى لا أحفل قط بما يقال ، ولا
اسالك عما إذا كان من الصحيح انك تقضى فى غرفة الاستقبال
فى دار استاذك — وهو الكثير التغيب فى أعماله — وقتا اكثر مما
تقضى فى المكتب . إن جميع الأسباب التى ابديتها لك صحيحة،
اما وقد اثرت هذا الموضوع ، فاننى لن اتهرب من المناقشة .
اجل ، إننى ارجوك ان تستكمل فترة تمرينك عنـــدى ، بسبب
هذه المراة . وهو طلب طبيعى منى !.. وانا لست فى حاجة
لان اصغى إلى اية شائعة ، إذ يكفينى ما رايت بعينى ! » ..
فتساءل الشاب : « وما الذى رايت ؟ » .

— لا جدوى من ذلك ، فلا تصر .

— ولكنك تتهمنى ، فمن حقى أن أعرف .

— وهو كذلك ! عندما تستقبل امك بعض الضيفات القادمات
بدعوة منك ، فمن واجبك ان تحترم البيت الذى نعيش تحت
سقفه ، على الأقل ! وما اراك إلا قد ادركت ما أشير إليه .

واطاش الغضب رشد موريس، فعاد مرة اخرى إلى الاندفاع
فى تلمس الاعذار لتبرير عاطفته ، قائلا : « إن حياتى الخاصة
جديرة بالاحترام كذلك . ولست اريد تدخلا فيها ! لقد ارضيتك
فى جميع الأمور التى يجب أن اقدم لك عنها حسابا » .. وهتف
الأب : « موريس ! » ، ولكن الشاب مضى قائلا : « لقد اجتزت

امتحاناتى بتفوق ، وعدت من باريس بعد ست سنوات ، دون أن أكون مدينا بدرهم لأحـد . فأى لوم ترانى أسـتحق ؟.. إنك كذلك لا تستطيع ان تأخذ على اننى كنت على أية عـلاقة وضيعة بالحى اللاتينى ، على غرار بقية الطلبة ! » .

— اننى لا أوجه إليك اى لوم ، ايها الطفل التعس ..

— إننى لست طفلا !

— إن المرء يظل دائما طفلا أمام ابيه ! الا تفهم أنك لم تحافظ على شبابك إلا بفضل العمل والعزة وتقاليد الأسرة التى بثت فيك النظام والاستقامة .. وان هذه المراة التى تكبرك سـنا بكثير ، والتى لم اكن البادىء بذكر اسمها هنا ، شديدة الخطر عليك ؟.. افتعرف — على الأقل — حقيقتها ؟

فصاح موريس : « لا تتحدث عنها » . ولكن السيد روكفيار أجاب فى لهجة صارمة مهيبة : « بل سأتكلم عنها . الست انا رب الأسرة ؟ فبأى حق تفرض على السـكوت ؟ افتخشى أن انزلق إلى حديث لا يليق بكرامتى ؟.. إنك إذن لا تعرفنى » .. فعاد الشاب يقول : « إن مدام فرازن امراة شريفة » .. وإذ ذاك قال الأب : « اجل ، إنها من اولئك الشريفات اللائى يعمدن إلى اللعب بالنار من قبيل التسلية ، واللائى لا يتورعن عن هذا العبث ولو فى قاعة الجلوس ، ولا يتعففن عن اللهو مع كل الرجل ، حتى المكتهلين منهم !.. إنها من اولئك الشريفات — من نساء هذه الأيام — اللائى قران كل شىء عدا الانجيل ، ووعين كل شىء إلا الواجب ، ولم يحجمن عن اى شىء سـوى

الفضيلة ، وأكبرن كل الحريات ، ولكنهن ازدرين عمل الخير الذى لم يضن عليهن به أحد !.. ولمـاذا يكن شريفات ؟.. لا أحد يدرى لذلك سببا .. فلا الإيمان يردعهن ، ولا الحياء يوقفهن عند حدهن ! أما الشرف ، فعقيدة لا يعتنقها سوى الرجال فقط ! إنهن متمردات ، لا يشـبع المرء من كلماتهن فى الشباب ، فاذا أوشـك الشـباب أن يدبر ، تجلت الحقائق الواقعة . إن هذه الشابة زوجة رجل ناضج ، فكان جديرا بها ان تذكر انه يأويها ويطعمها ، وانها كانت — حين التقطها — لا تملك درهما ! » .

— هذا غير صحيح .. فقد كانت تملك صداقا قدره مائة الف فرنك .

— ومن قال لك هذا ؟ — هى نفسـها .

— وددت لو كان هـذا صحيحا ، لولا أن صـديقى الحميم كليرفال ، الذى عرفهما بنا عندما خلفه فرازن فى مكتبـه ، قد انبانى بكل شىء .. وهو رجل لا يلقى الكلام جزافا . فلقد انبانى بأن هذه المراة موزعة بين خوف الفقر — أو خوف الضيق المـالى على الأقل — وبين الخوف من زوجهـا الذى لا تشى أساريره بما يطمئنها .. وانها قد وازنت بين الحالين ، فآثرت البقاء مع زوجها .. وهذا مدى ما لديها من حكمة !

وتقدم موريس خطوة ، وهـو يرتعد مما لحق بمعبودته من إساءة ، وصاح : « كفى يا ابت .. ارجوك! لا تتهمها بالنذالة ، ولا تتحد جراتهـا ! اؤكد لك انك تخطىء ذلك ، ولست ابغى ان انصت للتشهير ، ومن ثم فسأنصرف ! » .. وإذ ذاك قال

الأب فى حزم صارم : « إننى أمنعك من أن تطـأ قدمك مكتب مزارن » . فقال الابن : « حذار من أن أرفض أن أضـع قدمى هنا » .. وكان قد بلغ الباب حين ألقى بهذا التحدى ، فصاح الأب فى صوت تغيرت نبراته فغدا أقرب إلى الضراعة منه إلى الأمر : « موريس ! » .. وأسرع خلفه ، فاذا الغرفة الخارجية خالية ، والشاب يهبط السلم . وإذ غدا الأب وحيدا داخـل غرفة المكتب الواسعة ، المفعمة بالنور ، راح يتأمل المنضدة الصغيرة التى كانت أشعة الشمس تداعب ما عليها من ورود ، وكل ما اتخذ من استعدادات — لاستقبال ابنـه — ترضى أسلافه الذين كانوا يطلون عليه من الصور القديمة ، والنافذة ، والرسم القديم المبين للاقليم كما كان فى المـاضى .. وشـعر بأنه قد نبذ ، كقائد ولى عنه جيشه فى ليلة منى فيها بالهزيمة !

وقال لنفسه : « أيتمرد الابن على أبيـه إلى هذا الحد ؟.. لقد كلمته برفق فى البداية ، ولكنـه سرعـان ما احتـد .. ما أقوى سلطان هذه المرأة ! لكم أود أن أحطمها !.. ولكنه سيعود ، فمن المستحيل ألا يعـود ، وسأذهب لإحضـاره إذا اقتضى الأمر . لعلنى تجاوزت حـدى ، فجرحت شـعوره دون مبرر ! ان الطفل المسكين يحبها ، ويصدق ما تقوله له . لقد سحرته بصوتها الفاتن ، وعينيها اللتين تشعان لهيبا ، وابتساماتها ، فراحت تلعب به . أجـل ، لقـد أخطأت إذ تحديتهما .. ان أمثال هـذه المرأة أخطـر من سالفاتهن فى الماضى ، بما أوتين من حقد ، ونفاق ، وتمرد على المجتمع !.. لابد أنه هرع إليها ، ولسوف تثيره ضدى .. ضـد أبيه !..

ضد أبيك الذى أراد حبـه أن يقودك إلى الطريق المستقيم يا موريس ... » .

* * *

ولم يكن روكفيـار من الرجـال الذين يسترسـلون فى الشكوى ، فدخل حجرة زوجته ينشـد قرارا يتخذه ، بعد أن اعتاد أن يلجأ إليها كلما أعوزه الرأى فى الظروف العصـيبة . ولكن الستائر كانت مسدلة ، ومدام روكفيار نائمة .. فقـد هدها المرض البطىء — الذى ضاعفت الشيخوخة من وطأته — إذ كانت تعانى تيبسا فى أعصابها كان يشل حراكها من آن إلى آخر . وكم اعتاد — منذ سنوات — أن يفتح باب مخـدع زوجته ، مطمئنا إلى سداد رأيها ، وجلاء بصيرتها . أما فى هذه المرة ، فقد تقهقر فى هدوء ، وعول على أن يعتمد على ما لديه من موارد الرأى .. ولو أنه كان يشعر — منـذ مرضت — بضعف حيلته !.. وأخذ يفكر فى ابنهما : ان الأم أكثر الفطنة ولباقة وتأثيرا على الابن ، وقد تدرأ الخطر المحدق !.. وقال لنفسه فى أسى وهو يرمق المريضة : « إننى وحيد ! » .. ثم خرج فى خطى مسترقة ، ناعمة ، فوجـد مرجريت فى قاعـة الاستقبال منكبة على الكتابة ، وسرى عنه مرآها الحبيب ، فقال لنفسه : « ها هى ذى التى ستساعدنى ، فما من أخت تفوقها إخلاصا ! » .

ودنا منها ، فما أن رفعت إليه وجهها مبتسمة ، حتى غالب قلقه . وقال : « ماذا تفعلين يا صغيرتى ؟.. أراهن أنك تكلفين متجرا كبيرا بأن يتولى إعداد جهـاز عرسك » .. فابتسمت

قائلة : « لم تصب الحدس يا أبتاه ! » .. فقال : « إذن فأنت تعلنين لزميلات الدراسة نبأ خطبتك » .. فقالت : « ولا هذا أيضا ! » .. وواصل تخمينه قائلا : « إذن فأنت تدعين خطيبك ليتناول عشاءه هنا الليلة » .

— ليس ثمة ما يدعو إلى ذلك !

وبسطت إليه « الكراسة » التى كانت تكتب فيها ، فأدرك أنها « كتاب الأسرة » .. فقد كان لآل روكفيار — بحكم العادات القديمة — كتاب سجل فيه الأجداد إلى جانب ثرواتهم وممتلكاتهم ، أهم الأحداث العائلية ، كالزيجات والوفيات والمواليد والانعامات والديون والعقود ، وكل ما يصور الماضى ، فى وثيقة قيمة ، مما يبث الثقة فى المستقبل ، فى نفوس أولئك الذين يستوحون آباءهم ويعتزون بنسبهم !

وقالت الشابة : « اننى اكمل نقصه بالنسبة لأيامنا . فان عودة موريس والانعام على هوبير لم يكونا مدونين فيه » .. وتصفح السيد روكفيار — بغير قليل من الزهو — ذلك السجل الذى ضم تاريخ الجد والداب اللذين بذلتهما اسرته ، ثم قال : « ترى من سيعنى به من بعدك يا مرجريت ؟ » .. فأجابت : « لكننى سأستمر فى العناية به ! » .. فصاح : « لا . يجب ان تكون المراة لبيتها الجديد » . وهنا تضرج وجهها كتلميذة اخطأت ، وقالت : « أخشى ان اكون زوجة رديئة ، لأننى سأظل متعلقة بالقديم على الدوام . ان كل ما يجرى هنا يتغلغل حتى سويداء قلبى ! » .. فلم يتمالك الأب أن غمغم : « يا طفلتى العزيزة ! » .. ولكنها استطردت فى

حديثها : « وموريس ؟ .. اتراه مسرورا بمكتبه الجديد . وبورودى ، وبالنافذة ؟ لو أننى كنت مكانه ، لتمنيت ان أعمل بالقرب منك » .

وهكذا تطرقت إلى ما كان يشغل باله ، فيسرت عليه الفضفضة ، إذ قال : « من أجله جئت أتحدث إليك . لقد دار بينا جدال منذ برهة ، ولعلنى كنت محتدا ! » .. فهتفت : « أمعقول ان تحتد يا ابى ؟ » .. فأجاب : « لقد أسأت إليه فى النهاية ، فخرج مغضبا .. والغضب شر رفيق! فاذهبى وراءه ، فأنت خليقة بأن تعيديه ! » .

ونهضت مرجريت متأهبة فى تحمس ، وسألته : « وأين هو ؟ » .. فأجاب : « لست أدرى .. لعله فى مكتب فرازن . على ان البلدة ليست كبيرة — على كل حال — ولن تجدى عناء فى مهمتك . وليهدك الله إلى مكانه ! » .. فقالت : « ها انا ذى ذاهبة ! » . فعقب برفق : « أحسبك تدركين اننى لا استطيع الذهاب بنفسى ! » .. فهتفت « لا .. لست أنت الذى تفعل ذلك ، فهو لا يستحقه ! لقد بدا غريب الأطوار منذ فترة من الزمن ، حتى ليظن المرء أنه لم يعد يحبنا ! » .

وتبادل الأب والابنة نظرة ، فأدرك كل منهما ما كان فى نفس الآخر ، ولكنهما لم يشاءا أن يخوضا فى الموضوع . وأسرعت مرجريت إلى ارتداء قبعتها وسترتها ، وانطلقت تبحث عن موريس . فما أن بلغت الطريق ، حتى ولت الحصن ظهرها ، وسارت فى شارع « بوفنى » وسلكت أحد الدروب

العديدة التى تؤلف شبكة الطرق الداخلية فى (شامبيرى) . حتى بلغت ميدان المحطة .. وكان هذا الميدان — فيما مضى — مركز الحركة التجارية فى البلدة ، وما زالت به بعض الحانات العتيقة ، ودار من تلك الدور الإيطالية المزدانة بشرفة واعمدة تجعلها أهلا لأن ترسم على لوحات للزينة او على بطاقات البريد .. ولكن البيت كان فى الواقع متسخا ، متداعيا . كئيبا ، لا يثير انتباها ..

وعلى واجهة مبنىاعيد إصلاحه ، كانت ثمة لوحة من الرخام الأسود ، نقش عليها : « فى هذا البيت ولد : جوزيف دى ميستر ، فى اول أبريل سنة ١٧٥٣ .. واكزافييه دى ميستر ، فى ٨ نوفمبر سنة ١٧٦٣ » .. وتحت تلك اللوحة ، ثبتت لافتة مذهبة تشير إلى مكتب موثق العقود ، فسارت مرجريت فى اتجاه السهم المنقوش على اللافتة ، وصعدت السلم ودقات قلبها تتوالى فى عنف ، إذ كبدها قدومها جهدا ممضا . وطرقت باب مكتب فرازن ، ثم ولجت ، فسألت اول كاتب وقع عليه بصرها : « اننى اخت مسيو موريس روكفيار . هل أستطيع مقابلته ؟ » . فقال الشاب وهو ينهض فى احترام جم : « انه غير موجود يا آنسة ، إذ لم يات بعد الظهر ! » .. ولكن كاتبا آخر لم تلمحه مرجريت — إذ كان خلف أحد المكاتب — قال فى صوت أجش مفعم بحقد عارم : « ابحثى عنه لدى مدام فرازن » .

وكست الحمرة وجه الفتاة حتى اذنيها ، ولكنها شكرته ، واتجهت دون توان إلى مسكن مدام فرازن، وضغطت الجرس.

ولم تتلق جوابا ، فأدركت أن السيدة فى الخارج . وخامرها ارتياح فى البداية ، ولكنها لم تلبث بعد ان سارت بضع خطوات أن احست بالأسف ، إذ كانت تلك فرصتها الوحيدة للحاق بأخيها . فأين تعثر عليه بعد ذلك ؟.. واتجهت إلى شارع فافر ، حيث كانت دار مدام مارسيلاز — اختها الكبرى — فوجدتها عائدة مع اطفالها الثلاثة . وما أن رآها « جوليان » الصغير ، حتى ارتمى عليها ، وأبى أن يدعها تمضى ، بينما قالت اختها فى غير اكتراث : « لا ، ان موريس ليس هنا ، فهو لا يزورنى إطلاقا » .. فلقد كانت اية شكوى من ابنتها « ادريين » تحظى منها باهتمام يفوق اهتمامها بأخيها !

* * *

واخذت مرجريت تذرع شوارع البلدة — بعد هذا الفشل المتكرر — دون ما أمل كبير ، وهى تسرع الخطى وكأنها تهرب من شبح يطاردها . وتحت « البواكى » ، التقت بخطيبها ، الذى بادر إلى استيقافها ، فعادت إليه بعد أن تجاوزته ، وقالت دون إبطاء : « نهارك سعيد يا ريمون .. الم تلتق بموريس ؟ » ، فأجاب الشاب : « لا يا مرجريت .. اتبحثين عنه ؟» . وإذ اجابت : « نعم » ، قال لها : « هل اساعدك ؟ » . ولكنها قالت : « لا ، شكرا .. إلى اللقاء فى المساء » .

وراقبها ريمون — خطيبها — وهى تبتعد بمشيتها السريعة ، وقال فى نفسه : » إنها ليست لطيفة .. فهى متحفظة معى على الدوام ! » .. ولكنه ظل يتبعها بعينيه حتى اختفت .

وواصلت مرجريت سعيها دون جدوى . فلما بلغت الكاتدرائية ، التقت بصديقة صغيرة ، هى » جان سيسيناى » ، التى كانت تسير برفقة خادمتها . وكانت « جان » فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها ، تبـدو طفلة أصـغر من سنهـا الحقيقى ، وقد تهدلت على ظهرها غدائر من شعرها الأشقر ، وبدا وجهها وادعا . وأسرعت الفتاة إلى الآنسة زوكفيار التى كانت شديدة الإعجاب بها ، وهتفت : « آنسة مرجريت ، هل أنت فى عجلة ؟ » . فحيتهـــا الشابة قائلة « نهـارك سعيد يا جان ! » .. وقالت جان مسترســلة : « أنك تحذين حذو أخيك الذى يقابلنى فى الشـارع فلا يحيينى ، مع أننى بلغت السن التى أستحق فيها التحية ! » .

واطرقت برأسها قليلا ، وهى تتمنى لو أن نظرتها أضافت إلى ثوبها طولا ، فقالت مرجريت مقرة حديثها : « هذا صحيح . ولكن ، أين تراك قابلت موريس ؟ » .

— على جسر ركلى .

— الآن ؟

— لا ، بل قبـل أن أتلقى درس الموسيقى .. منـذ ساعة أو ساعتين .

— وإلى أين كان ذاهبا ؟

— لست أدرى . قولى له إنه غير لطيف !

— سأنبئه ولا شك ، فهذا عيب لا يغتفر ، ولا سيمـا إزاء صديقاتى .

فقالت «جان» وهى تضحك كاشفة عن أسنان بيضاء حادة : « ومع ذلك فاننى أغفر له ! » . وانصرفت ، فمكثت الآنسـة زوكفيار وحيدة ، وإذ ذاك لمحت باب الكنيسة مواربا ، فمرقت خلاله إلى المكان المقدس . ولم يكن تحت القبـاب ــ فى تلك الساعة ــ سوى شخصين أو ثلاثة ركعوا فى العتمة متباعدين . ولكن مرجريت وجدت عناء فى أن تندمج فى الصـلاة .. فقـد راحت تتصور ــ أحيـانا ــ أية امرأة فاتنة ستصير إليها تلك الصبية الخفيفة المرحة ، بعد ثلاثة أعوام أو أربعة .. وكانت تعبس أحيانا أخرى ، حين تتذكر أخاها موريس .. وتتمثـل ــ فى أحيان ثالثة ــ وجه أبيها المفعم بالقلق .. أما نفسها ، فلم تفكر فيها مطلقا !.. وتملكتها الدهشة ، وهى على عتبة الكنيسة ، من أن أفكارها لم تمس قط خطيبها ، ولا نفسها !

ودبت فيها شجاعة جديدة ، فقفلت عائدة إلى مكتب فرازن . وفى هذه المرة أيضا ، أبت أن تطرق باب مدام فرازن . حتى إذا أعيتها الحيل ، سـلمت بالهزيمة . وفيما كانت تسير فى شارع (بوانى) راجعة إلى دارها ، تجلى أمامهـا برجا دار المحفوظات والحصن ، فى ظل رقعة من السماء التى أسبغت عليها الشمس الجانحة إلى الغروب حمرة .. وفى وهج الشمس الخابى ، تبدى هذان الأثران ــ من آثار المـاضى ــ فى أبهى جلالهما ، وكأنهما يعرضان روعتهما قبل أن يغوصا فى الظلام ! .. وكانت الأمسية من تلك الأمسيات البديعة التى اختصت الطبيعة الخريف بها ، وقد اتسمت ببهاء رائع يجعل الإنسان يشعر إزاءه بضعفه .. كما كانت اللحظـة من لحظات السمو والعظمة التى تسبق الفناء .. فناء النهار !

وأخذت الفتاة بهـذه الصورة الرائعة التى ارتسمت على صفحة السماء ، ولكنها غذت السير إلى دار الأسرة العتيقـة بدلا من أن تتمهل لتستزيد من مشـاهدة المنظر . وتسـاءلت بمجرد أن بلغت الباب : « هل عاد موريس ؟ » .. فأجابتهـا الخادم : « لا يا آنسة ، لم يعد بعد . ولكن السيد ينتظرك » .. وبادر السيد « روكفيار » ـ الذى سمع الحديث ـ إلى فتح باب غرفته لاستقبالها ، هاتفا : « ما وراءك يا مرجريت ؟ » . فأجابت : « إننى لم اجـده يا أبت » .. وكان فى العبـارتين اللتين تبادلهما الأب والابنة كل الحزن الدفين ، مع شـعور بالخوف من كارثة توشـك أن تنقض .. كارثة أفدح من ذلك النوع الذى تثيره نزوات الشباب ، من جراء السلطان الخارق الذى رأيا مدام فرازن تفرضه على موريس !

٣ ـ هضبة « كالفير دى ليمنك »

ما أن غادر موريس روكفيـار دار أبيـه ، حتى اجتـاز البلدة ، ويمم لفوره شطر هضبة (كالفير دى ليمنك) ، حيث كان على موعد مع مدام فرازن . وكان اختيار هذا المكان تحديا منهما للناس .. فقد كانت الهضبة تشرف على (شامبيرى) ، وتشاهد من اى مكان فى البلدة . وقد كانت فى المـاضى صخرة عارية ، ذات قيمة عسـكرية كبيرة ، حتى لقد اقيم فوقهـا ـ فى عهد الدوقات السابقين ـ مركز لتبادل الإشارات باللهب مع المركزين القائمين على جبل (ليبين) وجبـل (روش دى جيت) السامقين ، حيث كان يرابط حراس الحدود الفرنسية



كان على موعد مع مدام (فرازن) .. وكان اختيار هذا المكان تحديًا منهما للناس ..

ذوو البأس . أما اليوم ، فمن السهل بلوغ الهضبة خلال طريق صاعدة ، تبدأ عند ضاحية (ريكلى) ، وتمتد فوق الخطوط الحديدية ، تحف بها من أحد الجانبين جدران شاهقة لدير عتيق ، ومن الجانب الآخر منازل شعبية ذات طابق واحد ، فاذا جاوز المرء نطاق هذين السياجين المحيطين بالطريق ، وجد نفسه فى وسط ريفى ، وتبين امامه الهضبة الصغيرة ، لا تتوجها استحكامات عسكرية — كما كانت فى الماضى — وإنما تقوم عليها كنيسة تبدو عن بعد مكشوفة لسلسلة جبال (ريفار) و (نيفوليه) ، فلا يحميها سوى سياج رفيع من نباتات الطلح ، والأعشاب النحيلة . وهنالك طريق صاعدة اخرى غير مكتملة التعبيد ، وتتخللها اكواخ خالية .. وفيما عدا ذلك ، كان المكان مهجورا ، لا يصادف مرتاده احدا ، وإن رؤى هو على البعد ..

اما كنيسة كالفير الصغيرة ، ذات النمط البيزنطى ، فكانت تتألف من قبة ، ورواق قائم على اعمدة اربعة ، وترتفع فوق مستوى الأرض ببضع درجات ، وقد دفن تحتها — فى سنة ١٨٣٩ — أحد اساقفة (شامبيرى) ، ونحت قبره فى الصخر .. وفيما عدا ذلك ، كان باقى الكنيسة خاويا .

وما أن بلغ موريس بداية سياج الطلح ، حتى تبين إنسانا جالسا على السلم ، بين اعمدة الكنيسة .. كانت مدام فرازن فى انتظاره ، فلم يحفل باغصان الطلح المحيطة به ، فى لونها الذهبى الباهت ، ولا اكترث للجبال البنفسجية التى امتدت امامه تحت اضواء الخريف، إذ لم يعد يرى سوى تلك الجالسة

وقد حفت بها أعمدة الكنيسة كالإطار !.. وكانت تعتمد بمرفقيها على ركبتيها ، وتحتوى وجهها بين راحتيها اللتين لاحتا تحت الشمس ورديتين ، شفافتين .. وجلست ساكنة ترقبه فى اقترابه بعينين متقدتين . فلما دنا منها ، نهضت بحركة مفاجئة ، كحيوان يبدو وادعا ، ثم إذا به فجأة يغدو كتلة من الأعصاب المتحفزة !

وبادرته قائلة : « خشيت الا تأتى ، فكانما توقفت حياتى عن استرسالها ! » . فقال : « لقد أخرنى عائق يا اديث » . وكان بادى الاضطراب حتى انها اشفقت عليه فلم تعاتبه ، وإنما امسكت بيده ، وقادته إلى ما وراء الكنيسة ، فأشارت إلى عشب متكاثف ، وظل وارف ، وقالت : « هل لك فى أن نجلس هنا ؟ ان الجو ليس باردا ، والمكان مريح » .. وجلس متجاورين وقد أسندا ظهريهما إلى جدار الكنيسة التى كانت تفصلهما عن (شامبيرى) والعالم . ولم يكونا يشاهدان فى مواجهتهما سوى جبال (نيفوليه) السابحة فى الأضواء ، والتصقت المراة به لتجلو معالم وجهه ، وهتفت وكأنها تشكو إليه ضناها : « لكم احبك ! » .. الم يكن حبهما مبعث ضنى ومتعة فى آن واحد ؟.. وكانا قد رفعا كل كلفة بينهما برغم انهما لم يكونا قد اصبحا بعد خليلين .. وتراجعت المرأ قليلا لتتأمله ، ثم تساءلت : « هل تعانى الما ؟.. أو هذ بسببى ! » .. فروى لها بإيجاز ما جرى بينه وبين أبيه وما ذكره هذا من اكتشافه سر غرامهما ، والمتاعب العسيرة التى ترتقبهما . ثم استطرد متسائلا : « فماذا ترينا فاعلين ؟ » .

وردت بدورها : « أجل ، ماذا ترانا فاعلين ؟ إن سرنا لم يعد قاصرا علينا ، ولم أعد من ناحيتى قادرة على إخفائه » . فردد هو الآخر بمرارة : « لم يعد سرنا خافيا .. ومع ذلك فانك لم إتسلمينى نفسك قط ! » .

وإذ ذاك اسندت رأسها إلى صدر الشاب، وقالت فى صوت لين ، تمس نبراته القلب كما تمس الأصبع وتر الآلة الموسيقية — وكأنها تهدهد بهذا الصوت اللين قلبه : « لا تزعم اننى لم اسلمك نفسى .. اطلبتها وابيتها عليك ايها الخبيث ؟ اتريد ان نبدأ ؟.. إنى لك .. إنك لم تزل شابا فى حين انى ابلغ الثلاثين عما قريب .. ثلاثون عاما ، ومع ذلك فان غرامى الذى يعادل حياتى كلها لم يولد إلا منذ بضعة اشهر !.. لقد كنت أنظر إليك ، فأرى الشمس تغمرك ، ومن ثم خرجت من الظلال لأنضم إليك . ولسوف أروى لك يوما قصة طفولتى وزواجى ، حتى ارى دموعك حين يهزك الألم ! » .. وهتف الشاب : « اديث ! » ، فقالت : « آه ! إن النساء اللاتى لم يكن الزواج بالنسبة لهن سوى باب ينفذن منه إلى النور — وليس إلى السجن ! — يتسلين بازدراء ضعفنا !.. أليس من الطبيعى أن يكن أكثر منا رضى بالقدر لأنه آثرهن ؟ .. ولكنهن لا يفكرن قط فى ذلك ، فكان الهناء حق لهن لا نزاع فيه . ومن ثم فهن لا يبذلن جهدا لصيانته ، فاذا فقدنه انقلبن يتهمن القدر ويسخطن عليه دون أن يلمن انفسهن ! » .

فقال : « اديث ! إننى احبك ، ومع ذلك فانك لست سعيدة ! » .. وإذ ذاك نهضت نصف واقفة ، واحتوت وجهه

بين راحتيها فى وله ، وقالت : « امنحنى سنة من حياتك فى مقابل حياتى كلها !.. اتقبل ؟ هيا ، لنرحل وننس كل شىء ، فلست اريد أن أمضى فى الكذب .. لا أريد أن اكون لغيرك .. لا اطيق ذلك ما دمت لك » . ووثبت واقفة . وكانت الهضبة تنحدر انحدارا حادا ، على طريق (اكس) ، فى بقعة غير بعيدة عنهما — خلف الكنيسة — فاقتربت منها لتطل على الفراغ الجاثم تحتها . وصاح موريس : « اديث ! » .. فعادت إليه هادئة ، مبتسمة ، وقالت وهى تجلس بجانبه : « إننى احب الدوار ، ولكننى لا احس به إلا هنا ! » .

* * *

وعادت إلى الحديث عن المستقبل قائلة : « إن سرنا اصبح معروفا . ولسوف يعلم به زوجى عما قريب ، بل لعله يرتاب فى أمرنا فعلا . وهو يحبنى بطريقته التى تثير تقززى ! بل إننى لواثقة من انه يراقبنا ، ومن انه سينتقم منا ، وسيرسم انتقامه على مهل ، كما يفعل فى كل اعماله ! » .. فهتف الشاب : « اسمعى يا اديث : يجب ان تحصلى على الطلاق منه ! » .. فصاحت : « الطلاق ؟!.. لقد فكرت فى ذلك ، ولكن ماذا ترانى فاعلة إذا عارض زوجى فى الطلاق ؟.. ولسوف يعارض ! فضلا عن ان طلب الطلاق يستغرق دائما عاما أو اثنين ، أو اكثر ! ولسوف اضطر خلال هذه المدة إلى الإقامة مع اهلى ، بعيدا عن هنا ، وإلى ان اظل دائما فى انتظار . تصور .. عامين آخرين فى السجن !.. لسوف اصبح بعد ذلك عجوزا . وسأفترق عنك طيلة المدة .. افترق عنك ، فهل تقف

ذلك ؟ .. لقد درست الموضوع كما ترى، فاذا به مستحيل ! ».

وسكت الاثنان ، وقد مال كل على صاحبه ، لا يعكر الصمت الذى لفهما سوى ذلك النداء الصامت الذى كان ينبعث من اعماقهما ! .. وفجاة ، احسا بحركة عند نهاية الجدار القريب، فانتفضا . وتمتم موريس : « هناك شخص قادم ! » ، فأجابت فى جراة : « لنبق حيث نحن ! » .. وبقيا . كان مصيرهما فى أيديهما فقط ، وليس بوسعهما فى تلك اللحظة أن يأتمنا عليه سواهما . ولكن القادم الذى خشيا ان يكشف سرهما لم يكن سوى عنزة ! .. عنزة كانت تلتهم الحشائش القليلة ، وفى أعقابها صبية امسكت بعصا . ورمقتهما الصبية فى غباء ، ثم تابعت سيرها ، فشعرا بالأسف لأن المفاجاة لم تكن ذات نتائج تحل قضيتهما حلا لا رجعة فيه !

واخذ الوقت يمر دون ان يستقر موريس على راى : هل يستمران فى حمل الأغلال الثقيلة وهما ينحدران فى علاقتهما ، أو يحطمان القيد ويمضيان فى غير حذر ولا حيطة ؟! .. ومالت المراة على موريس تقرأ فى عينيه ما كان يدور فى نفسه . وتمتمت : « لماذا تروغ عيناك — عيناك الحبيبتان — من نظراتى ؟ » . فتنهد وهو يرخى جفنيه وقد احس دوارا كذلك الذى غشيه حين راى المراة تطل على الهاوية ، ثم قال : « لست أدرى ! » .. وتحولت تقبل اهدابه ، قائلة فى عذوبة انطوت على قرار جرىء : « إننى أحس بقلبى يتحكم فى هذه الأيام الذهبية ، أيام الخريف .. وكل مساء يهبط يحمل لى ألما ، وكأن قسطا من سعادتى يسلب منى سلبا .. سأرحل الليلة ، فهل تفقه هذا ؟ » .

وانتفض موريس عند سماعه القرار غير المرتقب ، فتملص منها ، وهتف : « صه يا اديث ! » .. ولكنها أجابت : « لعلك كنت تظننى اتظاهر بتهديدك ، حين كنت أقول ذلك فى الأيام الأخيرة .. ولكنك تخدع نفسك يا موريس ، وسأرحل الليلة ! » .. لقد كانت تغريه بالسفر من قبل ، فكان يستبعد هذه الفكرة العسيرة التحقيق ، ويمنيها بان يرحل هو أولا ثم يستدعيها بعد ان يتمكن من العثور على عمل فى باريس . فلما راى نفسه امام هذه الوثبة المفاجئة ، التى تفوق سابقاتها عنفا وإصرارا ، تولاه الغضب والانفعال ، وتحول يضرع بكل قوة ورجاء : «صه ! .. سامكث هنا معك .. إننى احبك ! » .. ولكنها عادت تقول للمرة الثالثة وقد ازدادت حماسا وعنادا : « سأرحل الليلة .. إن القطار الذاهب إلى إيطاليا يرحل فى منتصف الليل .. وفى منتصف الليل سأتحرر من كل قيد ! » .

وفرك موريس يديه فى قنوط ، وهو يردد : « اسكتى! » .. ولكنها مضت مستأنفة حديثها : « سأغدو حرة فى إعلان حبى .. حرة فى ان اتذوق هذه المتعة الجديدة .. متعة البكاء دون خوف إذا لم تكن إلى جوارى .. حرة فى ان اعبدك إذا جئت معى ! » .. فهتف : « ناشدتك الرحمة ! .. هلا سكت ؟» ، ولكنها مضت قائلة : « إننى اختنق فى بلدتك ! .. إن منازلكم العتيقة مفعمة بالروائح العطنة .. إننى أختنق لفرط عاطفتى كما ترى . لسوف نظل منفصلين لو أننا مكثنا هنا ، ولكننى اريد ان أستمتع بعذابى إذا أنت لم تصحبنى ! .. اما إذا

أتيت ، فسأتنسم أنفـــاس الحيـــاة .. فهـــلا أتيت ؟ هل تأتى الليلة ؟ » .. وسعت بقبلاتها إلى إقناعه ، فوعدها .

ومكثت لحظة تستمرىء لذة انتصارها ، ثم غمغمت : « لقد نسيت كل حياتى الماضية ! » .

وقادته بعيـــدا عن الجدار الذى استترا وراءه إلى وضح الشمس ، أمام كنيسة الهضبة . فما جدوى الاستتار ؟.. وفى نشوة ، رأيا الأرض تنبسط أمامهما ، تحت السماء الصافية ، فى صورة متألقة .. وأمامهما ـ عند أقصى الأفق البعيد ـ بدت قمم جبال الألب الصغرى : ليه سيتلو ، وبيرلانى ، وجـــران شارينيه ، كوشى رقيق باهت تخلل الفضاء بين جبال (جرانييه) وهضبة (لاروش دى جيت) ، وقد توجتها طلائع الثلوج ، وأضفى عليها النهار غلالة وردية . وعلى مسافة أبعد ـــ إلى اليمين ـ بدت سفوح (كوربيليه) و (ليبين) المكسوة بالغابات ، يشقهـــا طريق (ايشيل) ، وقـــد لاحت كدب روسى ، فراؤه منسوج من الغابات التى أحرقتها شمس الخريف !.. وقامت أمام هذه السلاسل الجبلية تلال رشيقة جللتهـــا الأزهار .. تـــلال (شارميت) و (مونتانيول) و (ســـان كاســـان) و (فيمين) ، التى كان البصر يتهالك مستريحا على منحنياتها البسيطة ، وتموجاتها الناعمة !.. وكانت أفواج من النـــور تتسال خلال منعطفاتها ، وتلمع وسط الغبار فى ظلالها . أما أبراج الكنائس المشوقة كالحراب ، وأشجار الحـــور ذات الخضرة المشوبة بلون الذهب ، فكانت تبدو كخطـــوط تزين المنظر . وبدت (شامبيرى) راقدة فى الســـهل ، كما لاحت

الكروم ـــ التى امتزجت فيها الألوان الذهبية القاتمة والوهاجة ـــ كأنها زغردة تجلجل فى الفضاء .

وهتفت أديث فى ضراعة : « أرنى أين تقع إيطاليـــا ! » . فأشار فى غير اكتراث إلى اليسار ، ولكنها التفتت إليه ـــ بدلا من أن تتبع إشارته ـــ فرأت وجهـــا مثقلا بالضنى ، وظلت صامتة ، إذ أدركت ما كان يخالجه .. كان بوسعها أن تعجب بهذا البهاء الطبيعى إعجاب أى سائح عابر ، ولكن هذا لم يكن شعور زميلها . ألم يكن ذلك هو الجهـــد الخارق الذى تبذله طبيعة بلاده لاستبقائه ؟.. فقد تراءت له مزرعـــة البرج ـــ (لافيجى) ـــ وذكريات طفولته واضحة مشرقة ، تحلق محمومة فوق الأرض ، كالعصافير ، ميممة شطره !.. وعلى مسافة أقل ، بدا له « بيت الأسرة » أمام الحصن .. ذاك الذى كان الكل يدعونه : « البيت » ، وكأن العالم لا يضم بيتا سواه !.. وقرأت المرأة فى عينى موريس هذا الصراع الأخير ، فداخلها شىء من الغيرة ، إذ لم يكن لديها ما تضحى به مثله . وتنهدت ، ثم مست ذراعه قائلة : « اسمع .. دعنى أرحل وحدى ! » .

وضايقه أن تكشف لهـــا ما كان يدور فى قرارة نفســـه من اعتراضات غريزية مبهمـــة ، فقال : « لا ، لا .. أتـــراك لم تعـــودى تحبيننى ؟ » .. فهتفت : « بل إننى أحبك ! » .. وابتسمت له فى عذوبة صافية ، لم ير لها مثيلا ، وذكا لهيب عينيها .. كانت من نســـاء اليوم : مشبوبة « الإخلاص » ، جامحة النزوات ، وقد ضـــاقت فجأة بالصبر الذى التزمته صامتة تسع سنوات ، فعقدت عزمها على أن تنتهز غيبـــة

زوجها الطارئة لتفر من سجن الزوجية ، مهما يكن الثمن !.. ولقد تأهبت لمغامرة الفرار فى هذه الظروف المواتية ، واحسنت اختيار الساعة . وها هوذا انفعال موريس وحيرته يكادان يلقيان به تحت رحمتها ، وفى قبضتها . ولكن ، اى العاطفتين اقوى فى نفس فتاها : أن يشاركها مصيرها المحتوم المحفوف بالخطر ، او أن يبقى فى بيئته الطبيعية ؟.. لقد كانت تحتمل حياتها قبل أن تحبه ، ولكنه بث فى نفسها روح التمرد دون ان يدرى ، فكيف تفارقه ؟.. كان الاقتراح الذى تعرضه عليه يحطم فؤاده ، ولكنها مع ذلك تمضى فى إصرارها .. إنها لم تعان قط هذه الحيرة التى تنفذ إلى أعماق النفس ، فتفعل بها ما تفعله الشمس الحامية بصحراء رطبة باردة !

وعادت تقول : « لن تلبث أن تنسانى رويدا ، وعلى مر الزمن . فلا تعارض ، وأصغ لنصحى . إنك ما تزال فتيا ، تنبسط أمامك الحياة على رحبها ، فدعنى أرحل ! » .. ولكن هذا العطف المشوب برثاء جارح اثار حنقه .. ما الذى يمنعه من الرحيل معها ؟ اهو عقله ؟.. العقل الذى لم يتجاوز عمره أربعا وعشرين سنة !.. الم يهده هذا العقل إلى أن لكل امرىء حقا فى السعادة ؟.. وغمغم موريس أخيرا : « لست راغبا فى الحياة دونك ! » ، فعادت تقول : « سأبقى إذا كنت تؤثر ذلك ، وسأريك كيف اتعلم أن أحذق الكذب. فان الإنسان لا يتورع عن كل الدناءات فى سبيل حبه ! » .. ولكن هذا الاقتراح جاء بعد أوانه .. وكانت تدرك ذلك ، وتتوقع ان يرفضه . فما أن فعل ، حتى القت بنفسها على صدر حبيبها

الذى راح يتمتم : « إننى أحبك حتى الموت » .. وهتفت : « فقط ؟.. إن حبى يفوق حبك ! » .

ـ مستحيل !

ـ بل هو الحق : أحبك حتى الإجرام !!

واردفت فى غيراكتراث : « سأحمل معى صداقى ، الليلة » . وهنا تذكر هواجس أبيه ، فهتف : « صداقك !؟ » .. قالت : « اجل . إنه مثبت فى عقدى . الم أرك إياه ؟ » .. فقال : « ليس من حقك ان تأخذيه إلا بحكم قضائى » . ولكنها صاحت : « او تريد ان ادع لزوجى ما هو حق لى ؟ .. وكيف نعيش ؟ » .. فأجاب : « سأحصل الليلة على بعض المال يا اديث . ولن البث ان أحصل على عمل فى باريس ، فقد وعدنى صديق يدير ابوه مصنعا كبيرا ، بان يعيننى فى قسم القضايا بالمصنع ، وقد ذكرته بوعده منذ عهد قريب ، بمجرد المصادفة ! » .

ولم تشأ المرأة ان تخفف من تفاؤله ، فقالت : « أجل ، لسوف تعمل ، ولكننا سنصل إلى باريس فيما بعد . اما الليلة فسنرحل إلى إيطاليا ! » . فتساءل : « ولماذا ؟ » . وإذ ذاك اجابته : « اليست هى قبلة المتزوجين فى شهر العسل ؟ » .. ونكست رأسها فى استحياء ، فبدت فجأة كخطيبة عذراء فى الثلاثين من عمرها ، تتبدل أساريرها بسرعة من الحيرة إلى براءة الطفولة !.. كانت تعض الحياة بنواجذها فى نهم ، كما يعض المرء الفاكهة الفجة ، فيضرس !.. واخذ الظلام يزحف على السهل ، فازدادت فتنة الطبيعة امام بصريهما ، إذ خلعت

عليها شمس المغيب غلالة ذهبيـــة .. وكانت ليالى الخريف البديعة تثير فى المراة لوعة كلوعـــة الشــــهوة ، فهتفت تمنى نفسها : « غدا .. غدا ! » . وخطا موريس إلى الأمام ، موليا المنظر ظهره ، حتى لا يرى ســـواها .. سوى فاتنتـــه التى استندت إلى احد اعمدة الكنيسة . لقد اصبحت بعد قرارهما وطنه الأوحد !

وهبطا الهضبة معا ، فســـارا جنبا إلى جنب حتى جسر (ريكلى) غير عابئين لما يتعرضان له إذا رآها احد من معارفهما .. وقالت المراة عندما هما بالافتراق : « لقد أوشكت الساعة على الخامسة ، وما تزال امامنا ســـبع ساعات » .. وأذكى الأمل لهيب عينيها ، بينما استعرض موريس — فى اشمئزاز — تلك الساعات القاسية التى يتحتم عليه ان يخون اسرته فيها . وادركت المراة ما كان حبيبها يعانيـــه ، فرثت له ، وقالت — تبدد مقدما ما قد يعترضه من مؤثرات : « هل تقوى على الكذب ليلة باسرها يا طفلى المسكين ؟ » .. فانتفض إذ فطن إلى انها كشفت ما بنفسه ، وكرر — فى شىء من الخشونة — ما قالته من قبل : « إن الإنسان لا يتورع عن كل الدناءات فى ســـبيل حبه ! » .. فقالت « سترى أن الكذب بشع ، فتلمس ذلتى وعذابى .. فاننى اكذب منذ احببتك !.. تشجع ، وإلى اللقاء الليلة ! » .

* * *

واسرع موريس — قبل ان يعود إلى البيت — إلى السعى للحصول على المال اللازم .. ومن عم ابيه « اتبين روكفيار »

— الطاعن فى السن ، والمعروف ببخله — ومن عمقه « تيريز » ، التقية ، المحسنة ، حصل على ما يقرب من الفه فـــرنك .. واخذ من اخته — مدام مارسيلاز — خمسمائة فرنك ، ومثل هذا المبلغ من ريمون بيرسى ، خطيب اختـــه .. وتعلل فى سبيل ذلك باضطراره إلى ســـداد ديون كان قد اقترضـــها اثنـــاء الدراسة . وكبدته هذه الخدعة ضـــعة وهوانا قدمهما قربانا لحبه ، وإن لم يجد من ضميره ارتياحا !.. ولم يفطن فى هذه الأثناء إلى ان احدا من معارفه — غير الأقارب — لم يبسط له يد العون ، وهو يدور عليهم مستجديا ، فى حين ان اســـرتـــه ساعدته — فى محنته المفتعلة — عن طيب خاطر .. وان ايـــة خشونة بدت منهم كانت مبراة من كل حقد !

وقفل راجعا إلى مكتب فرازن فى الساعة السادسة ، فاذا الموظفون يوشكون ان يغلقوا الأبواب منصرفين ، فقـــال لهم : « انصرفوا انتم ، فاننى ساكتب بعض الخطـــابات ، ثم احكم إغلاق الابواب ! » .. وكتب بعض الخطابات فعلا ، لمعارفه الذين كانوا يشغلون مراكز هامة ، يسألهم العون فى الحصول على عمل ذى مرتب طيب ، فى باريس . ولما كان قد تفوق فى جميع الامتحانات ، فقد اعتمد على توصية اساتذته السابقين . ولم يكن قد تعرض من قبل لصعاب الحياة ، ولذلك وضع ثقته فى كفاءته العلميـــة ، ولم يخـــامره ريب فى المتغلب على كل العقبات . ولكن ، إلى اين يرسل أولئك الناس ردودهم ؟.. وتردد قليلا ، ثم حدد العنـــوان : « يحفظ بشـــباك البريد ، ميلان » !

واستطاع موريس بهذه الاستعدادات التى شغل بها أن يخادع نفسه ويروغ من الندم الذى كان يساوره بسبب الرحيل . على أن هذا الندم عاوده ، حادا نفاذا ، عندما اضطر إلى اجتياز مدخل دار ابويه للمرة الأخيرة . ومع أنه تسلل إلى غرفته واغلقها دونه ، إلا أن الجميع أحسوا به . فلما حانت ساعة العشاء ، أقبلت مرجريت تدعوه ، فاذا به معتمد برأسه على يديه ، تحت المصباح ، وقد استغرق فى الأفكار إلى درجة جعلته لا يسمع طرقاتها . وامسكت الفتاة بيديه فى حنان ، فتململ لهذا التطلف منها . وسالته : « ما الذى يحزنك يا موريس ؟ » ، فاجاب فى اقتضاب : « لا شىء ! » .. ولكنها عادت تقول : « إننى أختك الصغرى ، فهلا بثثتنى أساك ؟.. من يدرى ؟ لعلنى لا أخلو من نفع لك ! » .. ولكى ينتحل لهمومه عذرا مقبولا ، تعلل بشدة حاجته إلى المال ليفى بعض المطالب ، فاستوقفته الفتاة لفورها قائلة : « انتظر دقيقة ! » . وغادرت الحجرة ثم عادت بعد قليل متهللة ، ووضعت أمامه على المنضدة ورقة مالية من فئة الألف فرنك ، وهتفت : « أيكفيك هذا ؟ لقد أعطانى ابى ثلاث ورقات لجهاز عرسى ، فبقيت منها هذه . لحسن الحظ » .. وهتف موريس: إنك حمقاء يا مرجريت .. لا أريد شيئا » .

ـــ لا ، لا .. خذها ، فانى اسر لذلك . ولن يضيرنى أن ينقص جهازى بضعة اقمشة !

وضحكت ، فشعر بأعصابه ترتجف ، وبالدموع تبلغ حواف عينيه . وبذل جهدا حتى كبحها ، ثم ضم الفتاة إلى صدره ..

إلى القلب الذى لم يكن قد آل بأكمله بعد إلى مدام فرازن . وتمتم : « أوليني حبك دائما ، مهما يحدث ! » .. فتطلعت إليه متسائلة ، ولكنها خشيت أن يظنها راغبة فى معرفة سره ، فى مقابل كرمها ، ومن ثم اقتادته إلى قاعة المائدة ، وهى تسر إليه فى رفق وكأنها تبتهل : « كن لطيفا مع الأب أزدد حبا لك ! » .

وفرغت الأسرة من العشاء دون أن يقع ما يعكر صفوها . وكان الفضل فى ذلك لريمون بيرسى ، إذ أن وجوده يسر لقاء مسيو روكفيار وابنه دون عتاب . وحين تقدم المساء ، آب موريس إلى حجرته متعللا بأنه يشكو صداعا. وعرج فى طريقه على مخدع أمه ـ التى ظلت ملازمة فراشها ـ فقبلها فى الظلام، ولكنها عرفته من ملمس شفتيه ، فهتفت باسمه ، وراحت تتحسس وجهه . وأفلتت من عينه دمعة ، فبادر إلى الخروج .. ما أقسى ما كان الحب يكبده !

واعد حقيبة ملابسه ، متعمدا الا يتخمها حتى يسهل عليه حملها بنفسه ، ثم أودع حافظته ما كان لديه من نقود، والمبالغ التى اقترضها ، وورقة مرجريت ، فزاد مجموعها قليلا على خمسة آلاف من الفرنكات . وخيل إليه ــ بخبرته الضئيلة بالحياة ــ أنها ثروة طائلة !.. كذلك اخذ ما كان يمتلك من مجوهرات قليلة ، عسى أن يفيد من بيعها . وإذ انتهى من استعداده ، أخذ ينتظر كسجين قضى عليه بالاعدام .. فهو يرتقب ساعة التنفيذ . واخذ عقله ــ الذى كان يؤمن بعصمته من الخطأ ! ــ يؤازره فى قراره ، ويزين له الحياة المتحررة من

كل الالتزامات ، بعيدا عن البقاء فى حلقة آل روكفيار ، كأصغر أبنائها !

* * *

اوى السيد روكفيار إلى مخدعه وقد اطمأن إلى مسلك موريس ، وما أبدته ابنته من ثقة ، فلم تخالجه الهواجس ، لا سيما وانه كان قد قرر أن يقصى ابنه عن (شامبيرى) نهائيا . فقد كتب إلى صديق حميم ، كان روكفيار يدينه بعدة افضال ، وكان قد استقر — بعد أن جاب الدنيا واستنفد كل ثروته — فى تونس ، حيث عمل فى المحاماة ، فنجح نجاحا كبيرا ، وكتب مرارا إلى روكفيار يعرب عن حاجته إلى مساعد يكل إليه اعماله ، رغبة منه فى ان يستريح . افلم يكن من السهل على ابنه — وهو بعد فى الرابعة والعشرين — ان يجد فى مثل هذا الاغتراب ، وفى مثل تلك الحياة بما فيها من جدة وطرافة ، ما يمكنه من النسيان والنجاة ؟!

وخيل إلى السيد روكفيار — فى هدوء الليل — انه سمع بابا يفتح ثم يغلق . وظن فى البداية انه اخطأ السمع ، إذ كان الصمت يخيم على الدار ، فحاول العودة إلى النوم . وبعد مقاومة لنفسه ، أشعل عود ثقاب ليتعرف على الوقت ، فاذا به قد تجاوز منتصف الليل بنصف ساعة . وما لبث أن نهض فغادر مخدعه . ولمح فى نهاية الردهة بصيصا من النور يتسرب من تحت باب موريس ، فدنا من الحجرة ، واصاخ السمع . فلما لم يلاحظ اية حركة ، طرق الباب . ولكنه لم يتلق جوابا .

وتردد قليلا ، ثم ولج الحجرة ، وهو يقول لنفسه — ليخفف من حدة القلق الذى تولاه : « لعله نسى ان يطفىء المصباح ! » .

وتبين لأول وهلة أن السرير كان خاليا لم يمس ، وصوان الملابس كان خاويا . فعاد إلى حجرته ، وارتدى ثيابه فى عجلة ، ثم ركض كشاب — برغم أعوامه الستين — نحو المحطة . وكان موعد القطار السريع الذاهب إلى إيطاليا قد فات ، ولكن كان ثمة قطار آخر يتجه صوب جنيف . وأنباه موظف بالمحطة كان يعرفه بأن موريس قد رحل « معها » ، وانهما ابتاعا تذكرتين إلى (تورين) . واطلق الأب صيحة تشبه الصوت الذى ينبعث من الحديد حين تمسه المطرقة لأول مرة . ولكنه كان كالحديد صلابة ومقاومة ، فلم يلن تحت مطرقة القدر ، وإنما احتفظ باعتدال قامته ، دون أن ينهار !.. فان من ينحدر من اصل كأصله ، ومن أسرة كأسرته ، لا يمكن أن يهوى أمام زلة من زلات الشباب . لسوف يسترد ابنه ، إن عاجلا أو آجلا ، فيعيده إلى نطاق الأسرة .. أو لعل القدر هو الذى يتكفل بإعادة الابن الضال .. وقد يكون هو — الأب — من الضعف بحيث يقتنع بأن يذبح عجلا سمينا احتفاء بعودة الابن ، بدلا من ان يوجه إليه اللوم والتقريع ، على ما ورد فى الأسطورة القديمة !.. وإن بيت الأسرة لهو المكان الذى يضمد فيه المرء جراحه ، والذى يلجأ إليه موقنا من انه لن يرد عن بابه !.. ولقد يهجر الزوج زوجته ، والزوجة زوجها ، ويعق الأبناء آباءهم وامهاتهم فيهجرونهم ، ولكن الأب والأم لا يقويان على التخلى عن طفلهما ، ولو تخلى العالم كله عنه !

وبدت البلدة ـ فى ضوء القمر ـ كجثة هامدة .. وتردد لوقع قدمى السيد روكفيار ـ اثناء عودته ـ صدى تجاوب فى ذلك القفر الموحش . وفيما كان يسير فى شارع (بوانى) ، رأى الحصن وقد رفع أمامه برجيه السامقين اللذين زادهما الظلام تطاولا وارتفاعا . وأبصر فى مواجهة القصر شجرة رسمت الظلال صورة لها على الأرض . لسوف تستيقظ البلدة بعد ساعات قلائل ، لتطلق الضحكات الساخرة الشامتة ، حين تعلم بالمأساة التى حلت بآل روكفيار !

وبلغ السيد روكفيار داره ، فما أن فتح الباب ، حتى لمح طيفا أبيض مقبلا عليه .. تلك كانت مرجريت ، التى بادرته متسائلة فى انزعاج : « ما الذى جرى يا أبتاه ؟ » .. ولما لم تكن زوجته قادرة على أن تكون بجواره ، فقد رأى أن يشرك ابنته فى حمل أعباء المحنة الفادحة . وكان يقدرها إلى درجة تحمله على الا يخفى عنها الأمر ، فتمتم قائلا : « لقد سافرا ! » .. وتذكرت إذ ذاك أمنية أخيها التى همس بها إليها وهو مهموم ، ففهمت ما جرى . وهتفت متنهدة : « آه ! » .

ومرة أخرى ، تعانق الأب والابنة ، وضم كل منهما الآخر إلى صدره ، وقد ربط بينهما الأسى المشترك . وما لبث الأب أن قاد ابنته فى رفق إلى مخدعها ، ثم قال ـ موصيا إياها قبل أن يتركها : « لندع الأم نائمة يا صغيرتى . فلسوف تعرف آلامنا مهما يطول الأمد ! » .

٤ ـ انتقام الأستاذ فرازن

وهبط الأستاذ فرازن من قطار الساعة السابعة صباحا ، فى (شامبيرى) ، وقد حمل حقيبة صغيرة ، وتدثر بمعطفه اتقاء لبرودة الصباح . وغذ السير إلى مسكنه الذى غاب عنه يومين ، وأدرك لفوره ـ للارتباك الذى اعترى الخادم التى فتحت له الباب ـ أن شيئا ما قد جرى ، أو كان يجرى فى منزله . كان رجلا قد ناهز الخمسين ، ما يزال محتفظا بصحته .. كما كان مستقيما ، فاتر الطباع ، ممتازا فى صفاته . بيد ان شفتيه الغليظتين ، بل وعينيه البراقتين المحتجبتين خلف نظارته ، كانت تثير شعورا من عدم الارتياح فى النفس .. ومع انزعاجه الطارىء ، فانه سأل الخادم : « هل كل شىء على ما يرام ؟.. والسيدة ؟ » .. فأجابت الخادم فى لهجة أنطوت على سخرية مستترة : « لقد سافرت السيدة مساء أمس إلى إيطاليا ومعها حقائبها ! » .

ـ إلى إيطاليا ؟ ـ أجل يا سيدى

ـ فى أية ساعة ؟ ـ فى منتصف الليل

وتساءل فى دهشة : «دون أى إيضاح ؟» . فأجابت الخادم : « لقد قالت السيدة وهى منصرفة إن السيد قد أحيط علما » . فقال السيد فرازن فى برود : « هذا صحيح ، فأعدى لى الفطور فى غرفة المكتب ! » . ودخل غرفة مكتبه ـ المتصلة بمكتب التوثيق ـ دون أن يبدى أية دهشة ، إذ ما جدوى سؤال هذه الفتاة الماكرة الجاهلة ؟ .. على أن النبأ غير

المتوقع ، الذي دوى فى اذنيه كطلق نارى ، لم يكن قد أثار غضبه بعد ، ومن ثم لم يداخله سوى عجب مذهل . والجرح مهما يكن قاتلا ، لا يبعث فى البداية أكثر مما تبعث الصدمة البسيطة ، ولا بد من فوات وقت قبل ان يثير الألم . وبأعصاب متوترة ، وعينين حادتين ، لمح السيد فرازن على المنضدة خطابا وضع بشكل متعمد ، بل ومثير للتحدى . وامسك به دون ان يفضه ، محاولا التكهن بما فيه .. كان يتضمن تفسيرا لهذا الرحيل ولا شك .. هذا الهجر الذى تم فى غير اكتراث ولا مبالاة بالنتائج !.. فقد كان — برغم انقضاء تسع سنوات على زواجه — قليل الثقة فى بزوجته ، بحيث بدت له كل التكهنات جائزة ومحتملة : اتراها فرت بصحبة احد ، ام هى نزوة متهوسة استبدت بها ولن تلبث ان تزايلها فتعود الهاربة إلى حظيرتها ؟.. ولم يخطر بباله اسم موريس روكفيار . ولقد كانت مدام فرازن تسعى إلى الاستحواذ على إعجاب الرجال ، وتجد فى ذلك ملهاة .. وكان كل امرىء يتملقها ويتقرب إليها ، ومن ثم فان فرازن لم يحفل جديا بذلك الود الذى تمادت فيه زوجته مع احد موظفى مكتبه ، برغم انه عرف — من الخطابات التى تلقاها من مجهولين — ان البلدة كانت تتحدث عن هذه العلاقة . فقد تملكه ما يتملك الرجال الناضجين من ازدراء للشبان الذين يلاحقون النساء ، ومن تشبث بأهداب الأمل ، وثقة فى أن الزمن فى صفهم .. فهم — وقد جاوزوا الشباب — يميلون إلى الاعتقاد بأن المرأة لا تميل الا لمن فى أعمارهم او ما يقرب منها ، لأن العواطف فى رأيهم غير ذات قيمة ما لم تستند إلى إمكانيات ! وكان فرازن يعرف كم حال

التعصب للأخلاق فى الريف دون تحقق كثير من شهوات الغاوين والغاويات . وفوق ذلك ، كيف يخطر بباله خاطر غير معقول ، كذلك الذى يوحى إليه بأن شابا مثل موريس ينبذ طواعية مركزا مريحا ، ملائما ؟

لم يستسغ عقل فرازن افتراضا كهذا ، ولكنه وجد نفسه أمام امر واقع ، وهو الرجل الذى لم يكن يعنى بغير الوقائع . وإذ اعياه هذا اللغز الذى لم تنفذ بصيرته إلى أغواره ، فض غلاف الرسالة وقرأ :

« سيدى : إننى لم أحبك قط ، وإنك لتعرف ذلك . إذ اية قيمة لقلب المرأة لدى ذلك الذى يمتلكها بعقد رسمى ؟! لقد احتملت هذه العبودية تسع سنوات ، لأننى لم اكن أحب . ولكن هذا قد تغير اليوم : هانذا أتحرر مخلصة ، بدلا من ان أقسم نفسى بين رجلين . فمن الذى يعوقنى ؟.. لقد كنت تبغض الأطفال منذ بداية زواجنا ، مع أن يد الطفل الصغيرة كانت كافية لأن تغلنى بالقيود .. أما الآن ، فان بيتنا خال ، وليس فيه من يحتاج إلى . ثم إنك قدرت قيمتى فى عقد زواجنا بمائة ألف من الفرنكات ، فلعلك ترى أن من الطبيعى ان احمل معى ثمنى . ولقد دفعت مقابله شبابى . وإنى إذ أهجرك ، لاغفر لك . فوداعا — اديث دانيمارى » .

كان كل شىء فى الحياة — حتى العواطف — لا يتمثل للأستاذ فرازن إلا فى شكل عقود والتزامات ، سواء أكان ذلك بحكم عاداته المهنية ، أو بتركيب عقله المادى الواقعى ! ولما كانت أخلاقنا تتحكم فينا ، حتى فى ساعات الألم والعذاب ، أو

ساعات ترديننا فى المآزق ، أو ساعات النزع الأخير ، كذلك
كان فرازن ، فانه لم يشعر بالأسى إلا لفقدان زوجته ، وليس
لضياع نفوذه ، برغم أنه كان حريصا على المال . ولكنه حين
اراد استعراض ماضيه ، وتفريج كربه ، لجأ بغريزته إلى
البحث فى احد الملفات عن عقد زواجه الذى أشارت إليه المرأة
فى رسالتها . وما ان لمح الوثيقة التى تحمل الخاتم الرسمى ،
حتى تمثل فى جلاء ذلك الغرام المشبوب الذى استبد به فى
اواخر شبابه . ورأى بعين الخيال — عند مدخل إحدى
الكنائس — فتاة ممشوقة القوام ، ملفوفة العود ، تنم حركاتها
وعيناها عن النار المتأججة فى اعماقها .. وكان ذلك فى
(تروتش) ، موطن طفولته — بالقرب من جرينوبل — حيث
اعتاد ان يذهب فى عطلاته الصيفية من كل عام ، حين كان يتاح
له ان يغادر باريس ، حيث كان يعمل رئيسا للكتبة لدى احد
الموثقين . ولم يكن قد استقر بعد — برغم اقترابه من سن
الأربعين — على ترك باريس ، واتخاذ مكتب خاص فى
(دوفينيه) .. المقاطعة التى تقع فيها (جرينوبل) .

ولم يستطع ان يقاوم إعجابه ، فسرعان ما تحرى عن الفتاة ،
وعرف أن « اديث دانيمارى » تقيم مع أمها على مقربة من
(ترونش) ، فى منزل صغير ، لاذت به المرأتان وهما شبه
معدمتين ، بعد أن مات رب الأسرة الذى بدد ثروته فى الميسر .
وقدر فرازن فى نفسه أن فتاة قروية لها مثل عينى اديث ،
لابد أن تكون فريسة سهلة ! ولكنه ظل عامين يلاحقها
دون ان ينال منها مأربا .. فقد كانت ترتقب أمير أحلامها ، إذ

كانت جامحة الطموح . وعندما سئمت الانتظار ، الهبت الوحدة
خيالها .. ومن ثم صدت فرازن ، ولكنها حرصت على
الا يكون ذهابه دون عودة ، وكانت قد اكتشفت — دون دراسة
تؤهلها لذلك — فن الصد المنطوى على وعد ، وممارسته على
حساب ذلك الرجل الذى كانت مغامراته فى الأوساط المتبذلة
والمغرقة فى الشهوات تجعله يرتبك ويضطرب امام دلال كدلال
اديث !.. ومن ثم اعترف بالهزيمة ، إذ تغلبت شهوته على
مصلحته .. وكان قد فقد ابويه اللذين خلفا له ميراثا طيبا ،
فقرر فى النهاية ان يطلب رسميا اليد التى صدته ، وهى تريه
— فى الوقت ذاته — المكان الذى يجب أن يتخذه خاتم الخطبة !

ولكن ، كيف يعبر خلال بنود العقد القانونية عن حبه ؟..
لقد نص فى احد البنود على منحة قدرها مائة الف من الفرنكات
للزوجة المقبلة — التى يربطه بها العقد — لا تستولى عليها بعد
وفاة المانح ، كما جرت العادة ، وإنما تنتقل ملكيتها إليها فور
إتمام الزواج . وكان هذا السخاء غير المألوف دليلا على
ضعفه ، وشهادة — تدعو للحسرة — على هزيمته !.. فقد
اخضع هذا السخاء البراعة القانونية للعاطفة المشبوبة !

وانتزعه من فحص العقد ، مقدم الخادم تحمل إليه «الكاكاو» .
وكانت ترمق سيدها — من طرف عينها — وهى تقوم بإحضار
الفطور ، فأدهشها أن تراه ممسكا بأوراق قضائية . وكان
يفحص احد الملفات ، والخادم ترتقب خلسة أساه أو غضبه ،
حتى تجد ما ترويه للبلدة . ولكنه أشار إليها بصرفها . وتناول

الافطار بغير اشتهاء ، وبدافع من إرادته : أو لم يكن فى حاجة إلى قواه بعد قليل ، حين يتحتم عليه أن يتخذ قرارا ؟

وبينما راح يحتسى الشراب الساخن ، فرغ من استعراض سنى حياته الماضية .. استعرضها من وجهة نظره ! فقد كان — مثل كثيرين من الرجال ، وككل النساء تقريبا — عاجزا عن أن يتمثل وجهة نظر شريكه .. وكانت الصور التى تمثلها ، هى صور زواجه فى (ترونشى) — الذى تم بعد كثير من التردد والإرجاء لم يصدرا عنه هو ! — والرحيل إلى باريس.. باريس التى كشفت له عما كان يجهله فى زوجته .. فمن العزلة والحياة الرتيبة ، انتقلت دون ما ارتباك او تردد إلى الطيش النزق .. فانها لم تجاره فى نضوجه ، ولا هو اكترث لشبابها.

ومن هنا حصل على مكتب الاستاذ كليرفال فى (شامبيرى) ، بعد ان اعياه العثور على مكتب فى (جرينوبل) ، على أمل أن يجدا فى الريف دعة وهدوءا . اما مدام فرازن فقد ادى هذا الانقلاب فى حياتها إلى أن تولاها ذلك الشعور بعدم الاكتراث الذى يساور أولئك الذين لم يجدوا من الحياة ما يرضيهم . وسر فرازن حين بدا عليها انها تقبلت العزلة بغير تحبيذ ، ولكن .. بغير معارضة كذلك !

وانقضى عامان على هذا النمط ، امتازا بالنعم التى يمكن أن يلقاها المرء فى وجوده بالقرب من امرأة لم تكف — برغم هدوئها — عن أن تثير فى النفس شيئا من القلق ! وفجأة ، وفيما كان يخالها قد استكانت إلى الدعة ، والعلاقات الطيبة ، والشواغل اليومية ، إذا بها تهجر مسكن الزوجية لتهرب مع حبيب !

* * *

واخذ الموثق يصعد فى غير وعى — وقد رزح تحت الكارثة التى لم يكن متأهبا لها — سلم الذكريات التى تمثلها فى العقد المدنى . ومن جديد ، بلغ الهاوية ، ولكنه فى هذه المرة سبر غورها ، وقاس عمقها. لقد أصبح ذلك «الموريس» روكفيار — الذى كان يحتقره عند وصوله ! — عرضة لنيران غيرته .. فان اديث لم تسافر وحدها .. من المحتمل — بل من المؤكد — أنها سافرت معه .. مع موريس . ولابد أنه كان يضمها إلى صدره فى تلك اللحظة ذاتها ، هناك.. فى إيطاليا ، البعيدة!..
وتناول السيد فرازن منديله فرفعه إلى عينيه ، ثم مزقه اربا بأسنانه .. ولم يعد يتمالك نفسه ، فبكى !

لكم أجادت اديث وصفه حين قالت لموريس : « إنه يحبنى بطريقته الخاصة » .. وهذه الطريقة لم تكن انبل الطرق ، ولكنها كانت أحفلها بالعذاب : فهى تضنى النفس بصور محددة قاسية ، وهى تشق القلب كما يشق المحراث الأرض ، وتولد الكراهية والبغضاء !

وعاد فرازن فأمسك بالخطاب والعقد ، لا ليزيد من شقوته ، إنما ليتلمس طريقا للانتقام . وكان موظفو مكتبه على وشك الحضور ، ومن واجبه أن يتقصى الأمر . وأن يعد أسلحته ، قبل وصولهم . لابد أنها تناولت النقود التى حملتها معها — أو بالأحرى التى سرقتها ، لأن الهبة بين الزوجين تعتبر فى جميع الحالات باطلة بمجرد صدور الحكم بالطلاق ! — من الخزانة . فقد أودع منذ عهد قريب مائة وعشرين الفا من الفرنكات ثمنا لأحد العقارات ، ولابد له من أن يدفعها بعد أيام من توقيع

العقد الذى أجرى توثيقه . وها قد أخذت أديث المبلغ بفضل إهماله الذى لا مراء فيه. وقد يكون من الممكن صنع — أو سرقة — مفتاح للخزانة ، ولكن .. كيف تراها اكتشفت تركيب الأرقام السرية التى لا يكون للمفتاح جدوى بغيرها ؟

ونهض فاقترب من الخـزانة التى لم تكن تحمـل اى أثر للاغتصاب . وبحث فى جيبه ، واخرج حلقة مفاتيحه ، فتبين ان المفتاح لم يكن بينها .. لابد أنه نسيه سهوا يوم سفره . على انه كان يمتلك مفتاحا آخر للخزانة ، وإن كان يعهـد به إلى رئيس الكتبة ، ليستعمله اثناء غيابه . لذلك اضطر إلى أن ينتظر حضور الكاتب ليفتح الخزانة ويتأكد من محتوياتهـا ، ولكى يشهده على الواقعة . ومن ثم سعى إلى مكتبه ، فتناول قانون العقوبات ، وشرع يلتهم المواد الخاصة بالجرائم والجنح التى ترتكب ضد المالك . وقرأ فى المـادة ٣٨٠ أن الاختلاسات التى يرتكبها الأزواج للاضرار بزوجاتهم . او الزوجات للاضرار بالأزواج ، لا تقع إلا تحت طائلة القانون المدنى . ولكن نهاية هذه المادة — التى جردته من كل سلاح ضد الخائنة ! — امدته بسلاح ضد شريكها : « فيما يتعلق بجميع الأشخاص الآخرين الذين يخفون او ينتفعون بكل أو بجزء من الأشياء المسروقة ، فانهم يعاقبون كمتهمين بالسرقة » .. وراجع المواد التى عالجت الموضوع ، فعثر على مادة افضل من سابقتها .. تلك هى المادة ٤٠٨ التى تناولت « سوء استغلال الثقة » . فقد رأى فيهـا ظرفا يدعو لتشديد العقوبة ، وذلك إذا كان من أساء استغلال الثقة موظفا عاما أو حكوميا ، أو خادما أو مستخدما ، أو من

المشتغلين بالرهونات ، أو طالبا ، أو كاتبـا ، أو عاملا تحت التمرين ، أو عاملا ، أو موظفـا تحت التمرين أراد الاضرار بصاحب العمل . وفى هذه الحال ، تكون العقوبة هى السجن!

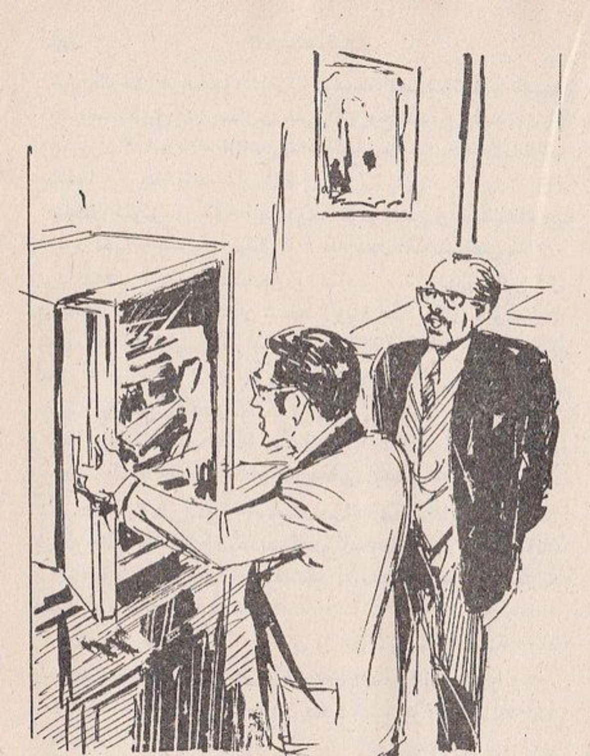
فما الذى يمنعه من أن يتهم موريس روكفيـار .. ومن أن يتهمه وحده ؟.. ألم يكن هـذا جديرا بأن يلقى تصديقا ؟.. لقد كان الشاب يعرف معالم المكتب ، والعمليات التى تجرى فى المكتب ، وتاريخ العقود ، وغياب الموثق . وكان بوسـعه ان يلتقط سر قفل الخزانة ، وان يسرق المفتـاح من رئيس الكتبة فترة وجيزة . ولما كان لا يمتلك ثروة شخصية ، فقـد كان مضطرا للحصول على المال ليهرب مع عشيقته .. ثم ، الا يدينه هربه إلى الخارج ؟.. لا مراء فى ان ما أعلنته مدام فرازن فى خطابها كان يكذب هذا الادعاء ، ولكن رسالة مدام فرازن لم تكن صالحة لأن تتخذ دليلا ضدها ، كما انها كانت فى صالح عشيقها ، فيكفى إعدامها !.. إن اى شىء لن يقوى على تبرئة الشاب إذا أعدمت الرسالة !.. ثم إن الشاب فقد كل وسيلة للدفاع . أفلا يجب عليه — إذا شاء الدفاع عن نفسه — أن ينقلب على زميلته ، وأن يعترف على الأقل بمعاشرتها والحياة معها على نفقتها ؟.. وهذا ما لا يمكن لرجل شريف أن يفعله. ومن ثم فقـد كانت إدانته مؤكدة !.. وسـوف ينتهى فراره الغرامى بتسليمه إلى حكومته ، ليقف أمام محكمة الجنايات وقد ذوى عوده ، وتحطم ، وهانت كرامته ، فيكفر عن ذنب الاثنين. وأخيرا ، ستدفع أسرته المبلغ المسروق ، لتخفف من وزره ، وبهذا يتفادى السيد فرازن النكبة .. او كل خسارة مادية على الأقل ، فان الخسارة المـادية لم تكن بالأمر الذى يستهين به !

وعندما انتهى من تقليب الامر على كل الوجوه والوصول به إلى النهاية المقصوده ، احس بهمومه تخف ، ونسى المه وهو يتبين إدانة غريمه وعقابه . وراح يستعرض النتائج البعيده المدى ، التى ستترتب على انتقامه ـ دون أن يداخله إشفاق ـ حتى انتهى بها إلى الحط من قدر آل روكفيار المتغطرسين ، الذين أكرموا وفادته حين حلف الأســتاذ كليرفال ، واتخذوه صديقا . كان فى تعاسته يلقى بآلامه على العــالم كله وكأنها لعنة !.. وعاد يقرأ للمرة الاخيرة ذلك الخطاب الذى كان يقيم العقبة الوحيدة فى طريق خطته ، ثم استجمع عزمه وألقاه فى النار .. وراقبه وهو يحترق ، ويصبح رمادا .

❊ ❊ ❊

ودقت الســاعة مؤذنة بالتاسعة . فأخــذ الكتبــة ـ المواظبون ـ يتوافدون على المكتب واحدا إثر واحد ، فيجلسون إلى مكاتبهم . وإذ ذاك فتح السيد الباب الذى يصل بين حجرته والمكتب ، واستدعى رئيس الكتبة وهو مشغول البال ، دون ان يحييهم ، وقال : « فيليبو .. اننى لا أجد مفتاح الخزانة ». فأجابه الكاتب : « ها هو ذا يا سيدى، فقد عهدت أنت به إلى اثناء غيابك ، ولكننى لم استخدمه » . فقال : « صدقت .. تعال معى ! » .

وسار الرجلان إلى غرفة المكتب ، ثم فتــح السيد فرازن الخزانة ، فلاحظ فى الحال شيئا من عدم النظام فى جوفهــا . وإذ ذاك تساءل : « هــل كنت تبحث عن شىء .. عن وصية مثلا ؟ ». فقال فيليبو فى حرارة : « لا ياسيدى .. أقسم لك »



فتح السيد (فرازن) الخزانة ، فلاحظ فى الحال شيئا من عدم النظام فى جوفها ..

.. وهنا قال فرازن : « إذن ، فلست أفهم شيئا .. فهـذا المظروف الممزق كان يحتوى على ثمن بيع ضيعة بيلفاد : مائة وعشرون ألفا من الفرنكات ، عددناها سويا » . فقال الكاتب مرتجفا : « حقا يا سيدى » .

وكان الموثق فى غاية الهـدوء . ولم يمض فى أسئلته ، بل أغلق الخزانة بعناية ، وقال : « لقد دخل هنا شخص ما » . فرد الكاتب : « هذا مستحيل يا سيدى » . ولكن فرازن قال فى إصرار : « أؤكد لك أن شخصا ولج هذا المكان . وسنثبت محتوياته أمام رئيس البوليس .. من الذى أغلق المكتب مساء أمس ؟

ــ موريس روكفيار .

ــ وهل كان وحيدا ؟

ــ أجل ، فقد تريث ليكتب بعض الخطابات .

فسأله : « إلى متى ؟ » ، فأجاب : « لست أدرى . ولكننى قابلته تحت «البواكى» بعد نصف ساعة فأسلمنى المفاتيح ؟ »، .. وهنا صاح فرازن : « المفاتيح ؟.. أو كان مفتاح الخزانة بينها ؟» . فأجاب : « أجل » .

فقال السيد فرازن : « لم يكن فى هذا شىء من الحكمة » .. وساد الصمت برهة ، ثم عاد يتســاءل : « ولماذا لم يحضر بعد ؟ » .. فقـــال الكاتب : « من ؟ » .. وأجـــاب الموثق : « موريس روكفيار » .

وهنا قال الكاتب بلهجة مفعمة بالحقد : « إنه لن يحضر » . فحدجه السيد فرازن بنظرة فاحصة ، أرشـــدته إلى أمرين :

أولهما ، أن نبأ نكبته قد ذاع فى المدينة ، وثانيهما ، أن فيليبو ــ الذى كان فرازن يشك فى أنه يغار من موريس وينافســـه فى حب زوجته ! ــ سيكون حليفا يثق به ويركن إليه ! على أنه تظاهر بالجهل ، وقال : « هذا صحيح ، فقد تقرر أن ينضم إلى مكتب أبيه » . ولكن الكاتب قال : « لا يا ســـيدى ، فإنه سافر فى منتصف ليلة أمس » .

ــ وإلى أين ؟

ــ إلى إيطاليا .

وإذ ذاك نطق المـــوثق بحـــكمه فى بطء : « آه !.. أخيرا فهمت !.. إذن فلعله هو الذى اغتصب خزانتى . وكيف تراه عرف الأرقام السرية ؟ » .. فنكس فيليبو رأسه ، وقد أحاله الخوف والغيرة إلى نمام متواطىء ، وقال : « إن الأرقام مكتوبة فى مفكرتى ، ولكن بغير بيان يوضح ماهيتها .. وقد كتبتها لأن ذاكرتى ضعيفة . ولقد قرأ روكفيار الأرقام ، فلعله حدس ما تنم عليه » . فقال الموثق : « إن تفريطك مضاعف . اطلب إلى أحد زملائك يا فيليبـــو أن يســـتدعى رئيس البوليس ليتولى التحقيق بنفسه » .

وتم فحص الخزانة رسميا فى حضور عدد من الشـــهود ، وقدم السيد فرازن بيانا بمحتوياتها ، وأسفر البحث عن أن شيئا منها لم ينقص . وإذ ذاك قال الموثق فى هدوء ، وهو يوجه التحقيق ببراعة ودقة : « بقى أن نفحص هذا المظروف الكبير ، الذى وجد ممزقا . فقد كان يحتوى على ثمن بيع ضيعة بيلفاد ،

التى تقدر مساحتها بعشرين فدانا . وكان الثمن مائة وعشرين الفا من الفرنكات ، كلها بالعملة الورقية . وقد عددت المبلغ قبل سفرى ، أمام رئيس الكتبة ، الموجود الآن ، والذى يشهد بذلك » . وهنا قال فيليبو : « تماما يا سيدى » .

فأردف فرازن : « والمبلغ مسجل على المظروف » . وبفحص المظروف ، وجد انه لا يحتوى إلا على عشرين ورقة من فئة الالف فرنك ، فقال فرازن : « إذن فقد سرق منى مائة الف من الفرنكات » .

وساله رئيس البوليس : « وكيف تفسر عدم استيلاء السارق على كل المبلغ الذى كان فى المظروف . إن اللصوص لا يقنعون ، وليس من عادتهم ان يتطوعوا بتحديد ما يسرقون ! » فقال الموثق : « لسوف أجلو هذا للنيابة التى ساقدم إليها شكواى فى الحال .

— هذا شأنك . اتراك تشك فى احد ؟

— نعم .

فتساءل رئيس البوليس : « اترتاب فى خدمك » . وأجاب فرازن : « لا ، فلو انهم ارتكبوا هذا العمل لهربوا . كما انهم لا يستطيعون معرفة الأرقام السرية لقفل الخزانة » . وإذ ذاك قال رئيس البوليس : « حسنا .. سأحرر المحضر الآن ! » . ولكن فرازن قال : « أرجو أن تصحبنى إلى المحكمة ، فهى على بعد خطوتين من هنا » . فقبل الضابط قائلا : « لك ما شئت » .

وقصدا إلى المحكمة لفورهما ، حيث دار بين الموثق ورئيس

النيابة حديث طويل ، استأنفاه بعد انصراف رئيس البوليس .. وبينما كان فرازن يهبط السلم ، التقى فى نهايته بالسيد روكفيار صاعدا إلى المحكمة .. وكانت الساعة قد بلغت الربع بعد الثانية عشرة ، وهو موعد بدء الجلسة .

وتبادل الرجلان النظرات ، وحيا كل منهما الآخر !

٥ ـ الأخطار تتهدد الأسرة

من عادة المحامين وموكليهم أن يتبادلوا الأحاديث فى ردهة المحكمة بضع دقائق ، قبل أن يدخل المستشارون قاعة الجلسات . ففى تلك الردهة يتبادل الجميع أنباء المدينة . غير أن السيد روكفيار ـ الذى كان محبوبا لحسن دعابته، ومرهوبا للذعاته الحادة ـ بادر إلى إيداع معطفه فى خزانة الثياب ، ثم اتخذ مكانه فى مقاعد المحامين . وكان زملاؤه يتأملونه عن بعد فى فضول خبيث ، وهم يتهامسون عن مغامرة ابنه موريس ، ويعالجونها فى رفق وتساهل . فقد رأوا فيها رد فعل للتقاليد الصارمة السائدة فى الأقاليم . وفيما كان السيد روكفيار منهمكا فى إعداد مرافعته ، اقترب حاجب من مقعده ، ومس كتفه قائلا: « انهم يريدونك فى النيابة يا أستاذ ! » .. فنهض لتوه فى اهتمام ، وقال : « هأنذا ذاهب إليهم » .

وكان من المألوف فى كل يوم أن ينتهز المدعى العام فرصة وجود احد المحامين فى المحكمة ، فيستدعيه لمسائل تتعلق ببعض القضايا الجنائية . ومع ذلك فان السيد روكفيار لم يخل من

بعض القلق ، الذى اوحت به إليه مقابلته للسيد فرازن على سلم المحكمة .. فهمس لنفسه : « ترى هل تبلغ به الحماقة إلى الدرجة التى يرفع فيها دعوى الزنا ؟ » .. إن الزنا جريمة فى نظر القانون ، الذى يترك للزوج وحده حق طلب القصاص فى حالة حدوثه ، وهو امتياز لا يلجأ إليه الزوج إلا نادرا . ولكن وجه فرازن كان ينم عن شر ..

وكان السيد « فاليروا » ـــ المدعى العام ـــ يرأس نيابة (شامبيرى) منذ سنوات عدة ، تمكن خلالها من أن يقدر نزاهة السيد روكفيار فى مهنته ، وخلقه ومواهبه .. ومن الصحيح ان هناك أقاويل عن احتمال ترشيح روكفيـــار فى الانتخابات التشريعية المقبلة ، وعما قد تعانيه السلطات من معارضة قوية نشطة ، إذا نجح فى تلك الانتخابات .. ولكن اتهام السيـــد فرازن لابنه كان كفيلا بأن يقضى قضاء مبرما على هـــذا الخطر السياسى . ولما كان السيد فاليروا موظفا طموحا ، فانه استقبل السيد روكفيار فى ترحاب حين اقبل على مكتبه . إذ لم يجـــل بخاطره ـ منذ وجد نفسه مضطرا إلى الحديث معه ـ سوى أن امامه رجلا شريفا فى محنة . فمد إليه يده ، وبادره قائلا : « إن واجبى يحتم على ان اواجهك فى مهمـــة مؤلمة » .. وتوقف عن الكلام مترددا ، ولكن قوة المحامى المعنوية كانت تبدو فى أجلى صورها فى الظروف العصيبة ، ولذلك فانه شكر للمدعى العام لطفه ، واتجه إلى الهدف مباشرة ، إذ قال : « لعله امر يتعلق بابنى » . فأجاب المدعى : « أجل » .

ـــ اتراها دعوى طلاق ذكر فيها اسمه ؟ أم هى دعوى زنا ؟

ـــ لا ، مع الأسف ! ـــ مع الأسف ؟!

لم يكن لهذه العبارة سوى معنى واحد . لذلك تساءل السيد روكفيار فى صوت حازم ، ولكنه متحشرج : « هذا يوحى بأن ثمة حادثا ؟... أهو انتحار ؟ » .. فصاح السيد « فاليروا » ، وقد فطن إلى الهواجس التى اثارها : « لا ، لا .. اطمئن ، فقد سافر ابنك مع مدام فرازن ، كما تعرف البلدة كلهـــا . ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك . فان السيد فرازن ـ الذى انصرف من هنا منذ قليل ـــ قدم إلى شكوى يتهمه فيها بسوء استغلال الثقة » . واحتقن وجه المحامى الشيخ ، برغم تماسكه نفسه ، وهتف فى إباء : « سوء استغلال الثقة ؟ إننى أعرف ابنى .. هذا مستحيل ! » .. فشرع ممثل الاتهام فى تلاوة الشكوى ، التى وقعها الموثق ورفعها إليه مرفقة بمحضر المعـــاينة التى اجراها رئيس البوليس . واصغى إليه السيد روكفيار بانتباه ، دون أن يقاطعه . كان الأمر كفيلا بأن يقوض دعائم أسرته ، وأن يلطخ اسمه . وقال اخيرا وهو رابط الجأش ، وإن كان مطعون القلب : « إن السيد فرازن يثأر لنفسه بخسة ! » . فأجاب السيد فاليروا ، الذى ترك عواطفه تظهر دون تحرج : « إننى اشاركك الرأى ، ولكن النقـــود اختفت ، فكيف توقف الدعوى العامة ؟ » .

ـــ إن ابنى ليس وحـــده فى الاتهام . وإذا هرب طفل فى العشرين من عمره ، مع امراة فى الثلاثين ، فأى الاثنين الذى يعد الخطة ويقودها ؟!

ـــ هذا ما صرحت به منذ لحظات ، وفى هذا المكان بالذات .

وبإصرار . لقد نصحت بالتعقل، وطالبت باربع وعشرين ساعة للتفكير فى الأمر ، ولكننى قوبلت بقرار رسمى ، فلابد للعدالة من أن تتخذ مجراها . اننى مضطر إلى إحالة الشـــكوى إلى قاضى التحقيق !

واستجمع السيد روكفيار شجاعته إزاء ضربة القدر ، ولاذ بالصمت ، بينما راح المدعى العام يقلب المســـالة على كل وجه دون أن يهتدى إلى حل . وقال : « إن هنـــاك قرائن خطيرة ، ودقيقة ، ومطابقة للظروف : هناك أولا التسهيلات التى يتيحها له مركزه فى المكتب ، ثم وجوده هناك ليلـــة أمس — ومعـــه المفاتيح — بعـــد انصراف الكتاب الآخرين ، وحاجته إلى المال لتنفيذ مغامرة الفرار الجريئة ، ثم اهتمامه بأن يحدد المبـــلغ المسروق بنفســـه ، وكأنه أراد أن يوحى بأنه سيسدده ! ». فأجاب الأب فى اعتزاز : « وهناك فى صفه أدلة أخرى : هناك أسرته أولا ، فلا إنكار فى أنها من سلالة عريقة طيبة !.. ثم من الذى قال لك إنه سافر بلا مال ؟.. لسوف يعود عنـــدما تنفد نقوده ، وأنا الكفيل بذلك ! » .

وقطع عليهما الحديث حاجب أقبل يدعو المحامى الذى كانت هيئة المحكمة تنتظر مرافعته . فصرفه السيد روكفيار بإيماءة وهو يقول : « لسوف ألحق بك » . بينما استأنف السيد فاليروا حديثه قائلا : « ولكن ، كيف يتمكن من الدفاع عن نفسه إذا اعتقل ؟.. يجب أن تدرك جيدا أن مركزه سيىء ، وأن الأدلة تتجمع ضده .. ولكى يبرىء نفســـه ، لابد له — على أحسن الفروض — من أن يتهم سواه .. فهل يقبل هـــذا ؟ ومع ذلك ،

سوف يكون شريكا .. وعلى أية حال ، فانصحه — إذا كنت تعرف مكانه — بأن يتريث قبل أن يعود إلى فرنسا ، وسأطالب بالتمهل فى القبض عليه » .. فهز السيد روكفيار رأسه بقوة ، قائلا : « لا ، لا .. إن الهرب بمثابة اعتراف . يجب أن يعود . وسأنقب عن أدلة تبرئه ! » .

وبعد أن استغرق فى التفكير برهة ، قال : « أما وقد هز مصابنا مشاعرك يا سيدى المدعى ، فهل تأذن لى أن أسألك خدمة .. خدمة جليلة قد تنقذنا ؟ » .. فتساءل المدعى : « وما هى ؟ » .. وهنا أجاب المحامى الشيخ : « اعرض على الأستاذ فرازن أن يسترد شكواه مقابل دفع المائة ألف فرنك .

— وهل ستردها أنت ؟ — سأدفعها .

— ولو لم يكن ابنك مذنبا ؟

— إنه فى مأزق كما قلت بنفسك ، وشرفنا يساوى أكثر من هذا المبلغ .. كما أن المقاضاة تلطخه !

وإذ ذاك قال المدعى : « إن الأستاذ فرازن معروف بالتكالب على المصلحة ، ولعل شكواه لا تكون — بالنسبة إليه — سوى وسيلة لزيادة موارده . فاعرض عليه نصف المبلغ » . ولكن السيد روكفيار قال : « لا .. لا مساومة . الدفع مقابل سحب الشكوى ! » . ورغبـــة فى إراحة باله والتملص من الموقف ، تراجع المدعى متسترا وراء واجباته المهنيـــة ، فقال : « انك على حق ، وبودى أن أخدمك يا أستاذ ، وقد ازددت رغبة فى ذلك أمام تضحيتك . ولكن ، هل مما يناسب مركزى أن أقدم على مسعى غير قانونى كهذا ؟ » . فبدى التأثر على السيد

روكفيار وقال : « أنه غير قانونى حقا . ولكن الوقت ضيق ، ولسوف أذهب لأترافع أمام هيئة المحكمة ، ولن تلبث الشكوى أن تعرف . وأنت وحدك الذى تعرفها حتى الآن ، وفى وسعك أن ترجئها .. إننى اتوسـل إليك » . على أن المدعى قال : « هذا مستحيل، فليس بوسعى ان اذهب إلى مقر احد اصحاب الشكاوى » . فقال المحامى الشيخ : « فى وسعك أن تستدعيه إلى النيـابة » . وأجاب السيد فاليروا : « فليكن !.. إن الوسيلة غالية ، ولكنها اكيـدة المفعول . سـأقدم الاقتراح باسمى ، حتى إذا قدر أن يفشل ، كنت أنت غير مقيد بعرض ينطوى على تسليم بالسرقة » . فقال الشيخ : « شكرا » .

* * *

وافترق الرجلان ، فذهب المحامى إلى قاعة الجلسة ، وإذا المستشارون قد سئموا الانتظار . وشرع فى مرافعته ببراعته المعتادة . فلم يحدس احد — أمام حججه المنطقية المرتبة — شيئا عن الألم الذى كان يضنيه . ولكن « المجـاهد » المسن — الذى لم يشعر بالتعب يوما — احبس حين جلس بإرهاق بالغ ثقيل ثقل الشيخوخة . وبعد مرافعة الخصم ، ورد موجز منه ، أصبح حرا فى ان ينصرف ، فنظر إلى ساعته ، وإذا بها تشير إلى الثالثة والنصف .. كان مصير ابنه معلقا على ساعات رفع الجلسة الثلاث . لذلك صـعد إلى النيابة حيث كان السيد فاليروا فى انتظاره . وادرك لأول وهلة ان المدعى قد أخفق .. وما لبث هذا أن قال : « لقد جاء السيد فرازن .. وأرى انك كنت على صواب ، فهو ينتقم لنفسـه » .. وتساءل المحامى :

« هل رفض ؟ » . فأجاب المدعى : « رفضا باتا !.. انه يفضل حقده على ماله . عبثا حاولت ان أضغط عليـه بكل قواى ، مصورت له الفضيحة التى سيثيرها حول زوجته ، بل وتحدثت عن نقص الادلة ، فكان جوابه انه سيدعى بالحق المدنى أمام قاضى التحقيق ، إذا أنا لم أدع الشكوى تتخذ مجراها .. وهذا حقه ، كما ان قراره حاسم : » .

وتساءل المحامى: « وماذا لو حاولت من جانبى ان اثنيه ؟.. لقد كنا دائما على علاقات طيبه » . فأجاب السيد فاليروا : ان تكون زيارتك مجدية . بل ستكون اليمة ، ومدينـة لابنك ، ومن ثم فلست أنصحك بها . لقد حدثته عن اسرتك ، وعنك ، فاجابنى : « إن ابنه انتزع قلبى . وماذا إذا دفع الأبرياء ثمن أخطاء المذنبين ؟! » . فأخلد السيد روكفيار إلى التفكير لحظة ، ثم انصـاع للنصح إذ تبين صوابه ، فاستأذن من المدعى ، باسطا إليه يده وهو يقول : « بقى على ان اشكرك ، فقد عاملتنى كصديق ، ولن انسى لك هـذا » . فأجاب السيد فاليروا متأثرا : « إننى أرثى لك !

وعاد المحامى إلى داره وحافظته تحت إبطـه . وكان من عادته دائما أن يسير مسرعا بخطى شابة ، رافعا رأسه .. ولكن وجهه كان شديد الشحوب . وتحت « البواكى » — حيث اعتاد المتسكعون أن يأووا — مر بأصدقاء ادبروا عنه ، بينما كان المـارة يرمقونه فى إصرار واستهزاء . وأدرك أن موظفى مكتب فرازن قد أشاعوا فى البلدة عـار آل روكفيار .. آل روكفيار ؟!.. كانت هـذه أول وصمة للسلالة منـذ قرون .

افكانت سلالة مبغوضة إلى هذا الحد الذى يجعل الناس يتلقون النبأ بمثل هذه الشماتة ؟!.. إذن ، فمـــا أحط الحسد الذى تثيره أمجاد اسم عريق !.. لقد حطمت زلة أحد الأحفاد ماضيا حافلا بالدأب والشرف ، أنجب أمثلة تحتذى فى الرجولة سنوات طويلة !.. أفلا يفهم هؤلاء الشامتون أن هذا الانهيار يمسهم هم الآخرين ؟!

وشد قامته ، ثم خفف من إسراعه . ولم يقو أحـــد على أن يتصدى لنظرته . وغالب الشعور بالذلة — إذ راح يواجـــه العاصفة — وهو يقول فى نفســه : « انبحى من بعد أيتها الكلاب ولكن حذار من الاقتراب ، فلسوف أحمى أسرتى ما دمت حيا ، وسأذود عنها بقوتى . ولن ترينى قط أتلوى من الألم ! » .

ووجد عند بابه السيد ديلا مورتيلليرى ، جاره فى الريف . أفتراه يطيق عبارات المواساة والعطف ؟.. على أن هذا المعتوه أظهر له شعورا إنسانيا يتمشى مع حاله ، إذ قال فى لهجـــة غامضة ، وهو يشير إلى الحصن الذى ســـبح فى الشفق : « عندما جاء الإمبراطور سيجسمون — فى سنة ١٤١٦ — أقام دوق أميديه الثامن مأدبة فى القاعة الكبرى ، نظمها جان دى بيلفيل ، مبتكر حلـــوى (سافوا) . وكانت اللحوم ذهبيـــة اللون ، محلاة بزينات ورايات تمثل أسلحة قوات الضيوف . وتلقى كل ضيف النصيب المخصص له ، مقســـما إلى أجزاء صغيرة متفاوتة الأحجام ، تبعـــا لمراكز المدعوين . إننى أحب هذه التفرقة : فما ينبغى للمرء أن يأكل حسب شهيته ، وإنما

حسب قيمته ! » . فرد السيد روكفيار وهو يفارق هذا المزعج : « إن قطعة واحدة كانت كافية لى ! » .

.. لم يكن فى وسعه أن يخدع نفســه ، فيستبدل بالحـــاضر ذكريات الماضى ! واختفى فى مدخل الدار ، ثم صعد السلم ، وبلغ غرفة المكتب ، متحاشيا مخدع زوجته التى كانت تلازم الفراش دائما . ولكنها أحست به ، فنادته على أمل أن يوافيها بأنباء ابنهما . وألفاها وحيدة ، وقد جلست على سريرها ، يخيم عليها ظلام المســـاء الزاحف . وتمتمت : « لقد خرجت مرجريت » . ثم استجمعت شجاعتها وسألته : « أما عرفت شيئا عن موريس ؟ » .. فأجاب : « لا ، لا شىء .. وسنظل فترة طويلة دون أن نتلقى شيئا ، ولا شـــك ! » .. فقالت المريضة : « ما أقسى لهجتك يا فرانسوا !.. لقد سحرته تلك المرأة ، كما تعرف . يا له من طفل بائس ! » .. فقال : « إن الضعف لون من الذنب ! » . وجزعت للصرامة التى تجلت فى نبراته ، فأدارت زر الضوء الكهربائى ، وإذا بها ترى زوجها وكأنما شاخ فجأة ! فقد كان شاحبا ، غائر العينين ، إلى درجة أشعرتها بالخطر .

وهتفت ضارعة : « هناك أشياء تخفيها عنى يا فرانسوا . ألست كما عهدتنى : شريكة حياتك التى لا تكتم عنها سرا ؟ » . فدنا من السرير قائلا : « ولكن لا جديد هناك أيتها العزيزة ! أليس فى فرار ابننا الكفاية ؟ » .. فشدت قامتها ، وبسطت ذراعيها ، واستأنفت تضرعها : « أقرأ فى نظرتك نذير خطـــر رهيب يتهددنا . لا تخدعنى كمـــا فعلت فى الليلة الماضيـــة .

تكلم ، فسوف أتجلد ! » .. وقال مشفقا : « أنك تنفعلين دون
ما داع .. فلا انباء هناك ! » .. فهتفت : « أقسم لك إننى
سأتجلد ، فلا تخف ! » . ولكنه عاد يناشدها : « فالنتين ..
هدئى من روعك ! » . فقالت : « انتظر .. لسوف تصدقنى!» .
وضمت العجوز ـ التى هدها المرض ـ راحتيها ، وابتهلت إلى
الله بصوت عال ان يهبها القوة . وتألقت عيناها بلهب انعكس
على الوجه الشاحب الهزيل الخالى من أى لمحة للحياة ، فهتف
زوجها : « رفقا يا فالنتين ! » . فالتفتت إليه وكأنما تغير
شكلها ، وقالت : « الآن .. الآن ، قل لى . إن بوسعى أن
أستمع . هل مات ؟ » . فصاح : « أواه ! كلا ! » .

لقد داخلها عين الشك الذى داخله !.. ولما كان مثلها وثيق
الايمان ، فقد أفضى إليها بالاتهام المروع الذى أصابهم جميعا .
فصرخت فى إباء : « هذا غير حقيقى . فليس ابننا لصا ! » ..
وقال : « لا . ولكن الناس جميعا يرونه كذلك » .. فأجابت :
« وما قيمة ظنهم طالما أنه ليس لصا فى الواقع !.. إننى أعرفه،
وإنى لواثقة منه » . ولكن السيد روكفيار لخص لها النكبة فى
عبارة قطعت كل شك : « انه يصمنا بالعار ! » .. تلك كانت
الجريمة التى حكم على ابنه بها ، بوصفه رئيسا للأسرة ،
لا بوصفه متدينا يخشى ضميره فحسب .. جريمة ضد
« السلالة » كلها !

وصاحت فى خشوع ووجل : « يارب .. لا تتخل عنا ! » .
وما ان نطقت باسم الله ـ مناط الأمل الوحيد ـ حتى اقبلت
مرجريت مهمومة ، تغالب أساها ، ونظرت إلى أبيها وأمها وقد

وحد بينهما الألم ، ثم انفجرت باكية كسيل تفجر من وراء
قنطرة ! واطلقت لدموعها العنان .. فضمتها مدام روكفيار إلى
صدرها قائلة : « تعالى ! » .. وسألها أبوها : « من الذى أساء
إليك ؟ » . فغالبت حزنها بجهد خارق ، وقالت : «إنهم يسبوننا»
.. وعاد يسألها : « من ؟ » . فأجابت « إننى قادمة من دار
مدام بيرسى ، إذ كان ريمون هناك .. ولقد قالت لى : « إن لك
أخا جميلا » .. وساءنى هذا ، فنكست رأسى ، ولكنها عادت
تقول : « أتعرفين ما الذى يرويه موظفو مكتب فرازن ؟ » ..
وظللت صامتة ، بينما استطردت هى : « يقولون إن أخاك لم
يقنع بالمرأة وحدها » .. وصاح ريمون بصوت خافت :
« أماه ! » .. اما انا ، فقد ظللت واقفة ، وقلت : « اتمى كلامك
يا سيدتى ، فهذا واجب » .. ووجدت من نفسها الجراة على
ان تقول : « لقد سطا على الخزانة » .. وإذ ذاك قلت : « إننى
أمنعك من أن تسيئى إلى أخى » .. وتحولت إلى خطيبى قائلة :
أما انت يا سيدى .. اما انت يا من لا تعرف كيف تحمينى فى
دارك ، فانى أحلك من وعدك ! » .. وحاول أن يستبقينى ،
ولكننى لم أنصت لرجائه .. وها أنذى قد عدت ! » .

وغمغمت أمها وهى تقبلها : « يا صغيرتى العزيزة ! » ..
وصاح السيد روكفيار فوق رأسى زوجته وابنته المتلاصقين :
« آه !.. إن الناس يحكمون دائما دون أن ينتظروا دفاعا ! » ..
على أن مرجريت ما ابثت أن نسيت شقاءها الشخصى إزاء الشقاء
المشترك ، فنهضت وسارت إلى أبيها ، وثبتت بصرها فى بصره
وقالت : « أنت يا من أثق به ، أجبنى . أن هذا ليس صحيحا

.. أليس كذلك ؟ » . فقالت المريضة مؤكدة : « إنه كذب » .
وقال رب الأسرة : « آمل ذلك .. ولكن كل الظواهر ضده ،
وهو معرض للادانة » .. فهتفت الابنة والأم معا : « الادانة ؟ »
.. فقال المحامى : « أجل ، الإدانة !.. ونحن جميعا معرضون
معه .. فنحن تحمل نفس الاسم ، وننحدر من نفس الماضى ،
ونسير إلى نفس المستقبل ! » .

واشار بيده وكأنه يحمى المراتين المغرقتين فى الدموع ،
ويهدد الهارب : « إن لحظة ضعف كافية لأن تهدم جهود أجيال
متكاتفة .. آه !.. ليته يقدر فى فراره المهين — حيث هو الآن
— مدى خيانته : لقد فصمت خطبة أخته ، وتعرض مستقبل
أخيه للخطر ، وصحة أمه للتداعى ، وثروتنا للضياع ، واسمنا
للتلطخ ، وشرفنا للتلوث !.. هذا ما صنعه بنا . وهذا
ما يسمى بالحب ! ما قيمة أن يكون قد سرق مبلغا من المال ،
وهو قد سلبنا كل شىء ؟.. ما الذى تبقى لنا اليوم ؟ » ..
فصاحت مرجريت : « أنت .. أنت الذى ستنقذه ! » .. وقالت
مدام روكفيار التى رانت عليها — فى الضيق — مهابة قدسية
غريبة : « الله !.. فكونا به مؤمنين !.. إن أقدار السلالات
وفضائلها لا تضيع قط ، بل هى تكفر عن زلات المذنبين ! » .

القسم الثانى

١ — صانع التحف المقلدة

إن أقل بحيرات (لومباردى) اجتذابا للزائرين هى بحيرة
(أورتا) . فهى تتضاءل بجانب شهرة بحيرة (ماجير) كما
يتضاءل القارب فى مرسى السفينة الكبيرة ، ومن ثم يقنع المسافر
بنظرة يلقيها عليها من القطار فى غير اكتراث ، ودون أن يعنى
بأن يعرج عليها !.. وهو يتأمل المعالم الدقيقة للجبال المكسوة
بالغابات ، التى تحيط بها ، وبالوديان العميقة ، التى تتناثر
فيها القرى البيضاء متوارية فى وسطها كما توارى قطعان
الماشية بين الأعشاب . ثم يلمح الناظر فى نظرة خاطفة تلا
تكتنفه الأشجار — التى تمتد على لسان من الأرض موغل فى
الماء — ومدينة مستلقية على الشاطىء ، وجزيرة مكتظة
بالبنايات . وفى انطلاق القطار مسرعا ، يخال المسافر انه يلمح
ابتسامة تنبعث من هذه المناظر التى تكتنز وتصون سحر
الطبيعة فى (لومبارديا) .. الطبيعة التى تجمع بين الخشونة
والبهاء ، وتلتف شواطىء البحيرة فى رفق ولين ، بينما تتجلى
صفحة الأفق صافية ، مشرقة ، لا أثر فيها لذلك البخار الذى
يشاهد فى سماء سويسرا و (سافوا) الباهتة . فاذا هبط
المساء ، بدت المناظر قاتمة على صفحة مشرقة . وتتكرر
تعرجات التلال المتناسقة ، فى أحجام أضخم ، كلما نظر المرء

نحو الشمال ، بشكل يجعله يخال أن سهل (نوفار) يمتد حتى يلتحم بجبال الألب الشامخة الراسخة !

ولم تكن (أورتا نوفاريز) قد تأهبت بعد لاستقبال الزوار ، ومن ثم كان المرح غائبا عنها . وكان ثمة فندق واحـد ، على سفح الجبـل المقدس — (مون ساكريه) — يدعى فندق (بيلفيدير) ، ويســتقبل الزائرين القلائل من الربيع حتى طلائع الشتاء .. فقد كانت (أورتا) متوجـة بتل قام عليه عشرون هيكلا صغيرا ، تناثرت بين الأشجار ، تصور حياة ومعجزات القديس «فرانسوا الأسيسى» . على أن المرء لا يكف عن اكتشاف منازل ريفيـة بين الخضرة الممتدة على طـول الشاطىء ، يأوى إليها أغنياء الإقليم طلبا للراحة ، فلا تكاد نوافذها ترى مغلقة قط .. ويفوح دائما من حدائقها — التى تبدو عليها مظاهر العناية — شذى الزهور التى يستنشقها المرء فى غبطة ، على النقيض من روائح موائد الفنـادق التى تسمم جو (بالانزا) أو (بافينو) ، فتفسد على الزائر استجمامه !

ففى فندق بيلفيدير ، وفى شهر مايو ، نزلت مـدام فرازن وموريس روكفيار ، هاربين من المدن الكبرى التى قضيا فيها وقتا سيئا . فحملهما الهدوء — بعـد الصخب — واعتـدال الأسعار ، على البقاء حتى نهاية اكتوبر .. وما لبث أن أقبل خريف رائع ، فى أعقاب صـيف مر على عجـل . ولولا قصر النهار ، ودبيب البرودة فى الجو ، والاصـفرار الذهبى الذى صبغ أوراق الشجر ، لما ظن الإنسـان ، وهـو يتطلع إلى الشمس المشرقة ، أن الشتاء وشيك الحلول !

وفى ذات صباح ، جلس موريس فى حجرة الاســتقبال — المتصـلة بمخدعهما — منصرفا إلى ترجمة كتيب إيطالى يحمل عنوان « حياة القديسين جيوليو وجيليانو » .. وهما قديسان أقبلا من بحر ايجـه فى القرن الرابع ، فنشرا المســيحية فى (أورتا) . على أن فقرة مقتبسـة من إحدى مؤلفات «لامارتين» ، نشرت بنصها الفرنسى ، شغلت الشاب أكثر مما شغلته العبارات الإيطالية استعصاء . وارسل بصره خلال النافذة ، وقد شرد باله ، وغفلت عيناه عن مجموعة الأشجار التى كانت تقوم كالباقة عند طرف شـبه الجزيرة ، فى بقعة تقع أسفل النافذة مباشرة .. وقد بدا المـاء ساكنا ، شفافا ، تتوسـطه جزيرة كانت ملتقى العشاق والمفاتن ، وصفها الشاعر خـلال سيرة القديسين بأنها كزهرة من زهور الكاميليا ، فوق صفحة فضية !

وما لبثت نظرات موريس الشاردة أن بلغت قمم الجبال — التى حجبت الأفق — وكأنها تريد أن تتجاوزها لتلم بما خلفها ! .. وفيما كان مستغرقا ، دلف طيف أبيض إلى الحجرة ، فانحنى فوق كتفه ، واطل على الكتاب المفتـوح . واستلفتت بصره العبارات الفرنسية ، التى برزت بحروف واضحة بين السطور الأجنبية : « قال لامارتين : إن مآل الطفل إلى البيت الذى ولد فيه . فإن نفسه تتألف فى الغالب من المشاعر التى خبرهـا فيه . إن النظرة التى تنبعث من عينى أمنا جزء من نفسنـا ، يتغلغل فى أغوارنا خلال أعيننا ! » .

واغلقت مدام فرازن الكتاب بلطف ، فاذا حبيبها — الذى لم يكن قد فطن إليها — يجفل من هـذه الحركة .. وتبادلا نظرة

حافلة بتلك الأمور التى لا يجسر العشاق على الإفضاء بها ، ولا يتمالكون ان يفكروا فيها .. وقالت تسأله فى غير اكتراث :
« فى أى يوم من الشهر نحن ؟ » . فأجاب وقد عاودته سكينته :
« فى الخامس والعشرين من اكتوبر » . وفجأة عاودته الهواجس من ناحيتها ، إذ قالت : « لقد انقضى عام ، فهل تذكر متى كنا على موعد فوق هضبة (كالفير دى ليمنك) ؟ .. هناك قررنا ان نهرب معا .. ومع انه لم يمض سوى عام واحد ، إلا ان حبى لم يعد يكفيك » .. فهتف معاتبا : « اديث ! » ، ولكنها عادت تكرر : « لا ، لم يعد يكفيك » . واضافت ببساطة ، وعلى اساريرها ابتسامة حزينة : « انظر إلى نفسك .. إنك تنصرف إلى العمل » . فقال : « أو ليس من الواجب ان نفكر فى المستقبل يا اديث ؟ » .

— لا ، ليس من الواجب التفكير الآن .. ما الذى ينقصنا ؟

وانتهز فرصة السؤال ليقول : « لقد نفدت نقودى ، ولا استطيع ان انسى ان نفقاتنا اصبحت تستمد من نقودك » . وقطب قائلا فى حرارة : « إننى اود ان يبقى صداقك دون ان يمس . ولقد سألت صديقا لى من رجال الصحافة فى باريس ، بأن يبحث لى عن مركز فى الصحافة . أليس بوسعى ان احرر بابا مقتبسا من الصحف الاجنبية ؟ لقد تعلمت الإنجليزية فى المدرسة الثانوية ، كما تعلمت الألمانية فيما بعد لاعد رسالتى الدكتوراه . ثم إننى اتكلم الإيطالية . وبالجمع بين هذه وبين عمل قضائى ، نستعين على الحياة » .

واصغت إليه وعلى وجهها ابتسامة خفيفة ، ثم راحت

تتحسس وجهه بالوجد الذى كان يألفه منها ، وقالت :
« لنتكلم غدا عن المستقبل .. غدا وليس اليوم ! » . فتساءل :
« ولماذا نضيع يوما ؟ إن من واجبنا ان نحدد فورا موعدا لرحيلنا » .. فهتفت : « رحيلنا ؟ » .. واجاب : نعم .. إلى باريس ! » . فلم تستطع إخفاء ضيقها ، وصاحت : « باريس دائما ! إنك لا تكف عن الحديث عنها .. كأنها وسواس يطاردك ! » .. فأجاب فى وجوم : « إننى هناك أستطيع أن أكسب عيشى » . فانسابت بين ذراعيه فى لين ودلال ، ووضعت بشفتيها إلى شفتيه الحمراوين القابعتين تحت شاربيه ، وهى تغمغم : « لقد سألتك عاما واحدا من حياتك .. عاما احياه بلا ماض ولا مستقبل ، نعب فى كل يوم من أيامه من حبنا ، وتنسى خلاله من أجلى بقية العالم . ترى ، هل تذكر ؟ » .. فأجاب : « أو لم امنحك اكثر مما طلبت ؟ » .. فقالت فى دلال : « ما يزال لى يوم .. فان السنة تكتمل غدا » .. وغمغم فى وجد : « غدا يا اديث ! » ، فقالت وهى ترتجف فى مهب الذكريات : لا تفسد اليوم الذى بقى لنا . وبما أنه الأخير ، فما اجدره بأن يكون اجمل أيام عامنا الذى انساب قطرة إثر قطرة . فلنكف عن الحديث عن المستقبل حتى غد ! اتعدنى ؟ » .. فابتسم فى نشوة وقال : « اعدك » . وإذ ذاك قالت : « إذن ، فسأذهب لأرتدى ثيابى على عجل ، ثم لنخرج فنتناول غداءنا فى الجزيرة ! » .

* * *

وغابت عن الحجرة ، فحاول فى غيبتها أن يستأنف

الترجمة ، ولكن بصره وقع مرة أخرى على الفقـرة الفرنسية
المقتبسة من لامارتين : « **إن مآل الطفل إلى البيت الذى ولد
فيه** ... » . فتوقف عن القراءة من جديد : « لقد كانت اديث
على حق ، فان الحاضر لم يكن كافيا له ، ولن يغنيـه قط عن
الماضى . لقد تواطأ الشريكان على إقصاء المستقبل عن ذهنيهما ،
ولكن الماضى .. الماضى الذى لم يجدا جرأة على الكلام عنه .
لقد كانت نظراتهما تغوص فيه ، فى الوقت الذى يظل لساناهما
فيه مغلولين ، حتى لقد غدا الصمت — بالنسـبة لموريس —
نوعا من العذاب .. ترى ماذا «هم» يفعلون فى هذه الساعة ،
وراء الجبال المتقـاربة .. « هم » ، أولئك الذين لا يعـرف
أنباءهم ؟!

وما لبثت اديث أن ظهـرت عنـد مدخل الحجـرة ، فقالت
تستجدى إعجابه : « اترانى جميلة فى هـذا الصباح ؟ » ..
وكانت ترتدى ثوبا صـيفيا من التيل الأبيض — يشى بمفاتن
قامتها ، وإن لم يهصر عودها بضيقه ! — وقبعة يعلوها ريش
ابيض اضفى عليها بهاء ورواء . لقد جدد العام — الذى قضياه
معا — شبابها ، وإن لم تعد عيناها المتأججتان ترسلان ضراما
كعهدهما فيما مضى .. كمـا ازدادت استدارة خديهـا وقل
شحوبها . اما جسمها النحيل ، فقـد بدا أنه ازداد وزنا .
وبوجه عام ، شمل شخصها كله تغير نم عن ارتواء بالحب !..
وتأملها موريس بإعجاب ، دون ان يوجه إليها الإطراء الذى
كانت ترجوه !

وبيما شطر ميناء (اورتا) خلال طريق شديدة الانحدار ،
رصفت بقطع من البلاط المستدير ، نمت الأعشاب خلالها عن

قلة من كانوا يسلكون تلك الطريق . واعترضت سبيلهما — فى
الميدان الممتد أمام الساحل الرملى الذى تجمعت عنده القوارب —
فتاة صغيرة يعلو شعرها القصير قلنسوة (بيريه) حمراء ، كثيرا
ماصادفها العاشقان فى نزهاتهما ، مما أوحى إليهما بأنها تقيم
فى مكان قريب . وحملقت الفتاة فى وجهيهما — ولا سيما وجه
موريس — طويلا ، دون ما استحياء . حتى إذا تجاوزتهما ،
قال موريس : « إنهـا لطيفة » ، فندت عن زميلته زفرة أسى
نمت فى لحظة خاطفة عن حقيقة سنها وقالت : « لا تنظر إليها ،
فاننى أغار ! » .. فراق له أن يداعبها لهذه الفورة العاطفية ،
قائلا : « تغارين ؟.. أو ليس هذا من حقى أنا الآخر ؟ » ..
فتسـاءلت : « يا الله !.. وممن ؟ » . فأجـاب : « من ذلك
الإيطالى الأسمر ذى الشاربين ، الذى يقيم فى الفندق ، والذى
ينسى عشيقته — أثناء الوجبات — ليحملق فيـك بنظـرات
مأخوذة ! » .

واغرقت المرأة فى الضحك هاتفة : « اورنزو ؟ » .. فصاح:
« اراك تعرفين اسمه » . وإذ ذاك قالت : « لقد ذكره لى . لقد
أفصح لى ، بعينيه المحملقتين ، عن عاطفة أثارت ضحكى ! »
.. واصطنع موريس الضحك اصطناعا . على انهما لم يكادا
يستقران فى أحد القوارب ، ويجذفان مبتعدين عن الشاطىء ،
حتى غشيهما من جديد ذلك الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان ..
كان الحاضر ، الذى يرعيانه ويصونانه بكل حيلة ومهـارة ،
والذى أقصيا كل الذكريات والاحتمالات حتى لا تشوبه شائبة
.. كان هذا الحاضر يرتج من أساسه لأتفه حادث عارض !

ترى اية أسوار يجب أن يحاط بها هذا الهوى لوقايته من الناس ، ولما ينقض بعد عام واحد على مولده ؟!.. كان هذا الحب — الذى ضحيا من اجله بكل شىء — محاصرا بضغط الحياة من كل جانب .. بل أنه كان محاصرا بقلبيهما الخافقين أيضا ، كتلك الجزيرة التى تبدت امامهما محاصرة بالماء !

وكانت المرأة أول من أحس بالأسى الذى ران عليهما ، فنهضت عن مجلسها ودنت منه . وبدلا من ان يسرى عنها ، راح موريس يروى لها اسطورة القديس « جول » ، التى لم يكن فيها ما يهم ايا منهما !.. وراح يقول : « لقد كانت هذه الجزيرة فيما مضى مأوى للأفاعى ، فلما اراد القديس جول أن يذهب إلى (اورتا) ، رفض أصحاب قوارب الصيد أن يعيروه قاربا ، فما كان منه إلا ان بسط معطفه على الماء ، وجذف بعصاه .. » ، فقاطعته اديث محنقة : « يا لك من عالم ! » . ولكنه استطرد قائلا : « إننى أواظب على قراءة هذه الأسطورة » ، فصاحت : « لكم اكره كتابك ! » .. وادرك السبب فى كراهيتها الكتاب : ففى ذلك اليوم الأخير من العام الأول لهواهما .. فى ذلك اليوم ، كانت مشاعرهما من الإرهاف بحيث كان يجرحها كل شىء ويؤلمها كل قول .. حتى اكثر الحديث براءة وسذاجة !

ورسيا يقاربهما عند سلم يفضى إلى الشاطىء ، فربطا القارب إلى حلقة حديدية مثبتة إلى البر لهذا الغرض ، وولجا الكنيسة الرومانية العتيقة التى ضمت تحفا أثرية بيزنطية اكتشفت حديثا تحت طبقة سميكة من الطلاء . كما كان هناك منبر من

الرخام الأسود ، وتابوت ، ولوحات من نقش « غيرارى » و « لوينو » . ولم يشعرا بمتعة وهما يريان مناظر الماضى فى الكنيسة ، فما أجدر العشاق بمناظر دائمة الجدة والطرافة ، لانهم يخشون الأحاسيس الفاترة ويصدونها بدافع من خوف غريزى . فضلا عن أن هذين الحبيبين كانا يسلكان فى الهوى دربا ضيقا لا عهد لهما به ، فلا غرابة فى ان يخشيا أن ينتاب عواطفهما ملل او فتور !

❊ ❊ ❊

وكانت قمة المرتفع الذى تتألف منه الجزيرة مشغولة باكملها بمبانى مدرسة للاهوت ، تشبه الحصن فى طرازها . ودار العاشقان مع انحناءة فى الطريق الضيقة ، فاذا هما قد انتقلا إلى بقعة منعزلة تماما ، بين جدارين شاهقين ، فى جزيرة .. وبدا لهما ان ليس فى العالم إذ ذاك سواهما !.. أو ليست هذه أمنية العشاق جميعا ؟.. لقد كانا يتوقان — فى العام الماضى — إلى ان يقضيا بقية عمريهما فى مثل هذه العزلة ، فلما وجداها ، إذا بهما يفران منها معا ، متجهين إلى الشاطىء !.. وهناك ، كان ثمة شيخ يصطاد السمك فى غمرة من اشعة الشمس . وتحت ظلة — على مقربة — جلس طفلان حافيان ، يلهوان بقذف الأحجار إلى الماء . بينما بدت المنازل الريفية بين الأشجار الممتدة على طول الشاطىء ، والتى اخذ الخريف يجردها رويدا من اوراقها . وانعكست صورة (اورتا) على مياه البحيرة الهادئة ، فاذا منظر الحياة الوادعة ، فى هدأة الظهيرة ، يبعث ارتياحا فى نفسى العاشقين القلقين !

وتناولا الغداء على درج السلم المؤدى إلى الهيكل . ثم قضيا فترة من الأصيل يطوفان بزورقهما فى البحيرة ، بحثا عن مكان مجهول يبعث النشاط فى أحاسيسهما ، وما لبثا أن يمما شطر الميناء . حتى إذا بارحا الزورق ، راحا يفكران فى طريقة يقضيان بها بعض الوقت . فقال موريس لاديث ، حين بلغا الميدان الصغير : « هلا عدنا إلى الفندق ؟ » .. فصاحت محتجة على هذا السجن الاختيارى : « أوه ، لا ! ما تزال الشمس مرتفعة فوق الجبل ، فلنسر متمهلين فى الطريق العامة » .. وكانت الطريق — بعد المدينة الخالية من الأرصفة — تمتد بمحاذاة البحيرة ، متدرجة فى الارتفاع ، حتى تطوق (مون ساكريه) — الجبل الذى يشرف بأشجاره وكنائسه الصغيرة على شبه الجزيرة — وتمتد على طول أسوار « الفيلات » التى ازدانت مداخلها بالنخيل وأشجار البرتقال . وحين بلغ العاشقان « فيلا » متواضعة تكاد تتداعى — كانا قد لمحاها من الطريق خلال بابها الذى ترك مفتوحا — تنسمت اديث أريج ورود وازهار ، فأهابت بحبيبها : « انتظر .. إن لهذه الزهور شذى بديعا ، وانها الآخر زهور الموسم » . فقال : « لندخل ، وسأطلب لك بعضا منها ! » .

ودخلا ، فاذا بهما فى حديقة حوت مجموعة بديعة من الأعمدة المهشمة ، والأبراج الصغيرة نصف المحطمة ، وأروقة ناقصة ، فكأنها صورة مصغرة لمدينة من مدن الفن غدت أنقاضا .. ولكنها كانت حطاما منتظما ، منسقا ، فى شكل زخرف . وفى وسط الأحجار المتناسقة المتراصة بنظام خفف من آثار الزمن

الهدامة ، قام تمثال صغير من الرخام تحيط به شجيرات الورد .. تمثال « الحب » الذى استوى مبتسما على قاعدة عالية وقد شد قوسه أمامه . ولم تر « الشابة » سوى هذا « الحب » المحوط بالورود ، فقالت : « إنه لفاتن ، وكأنى بضوء النهار يعانقه ! » .. فقال موريس : « كأننا فى سوق للتحف القديمة .. ولعلنا فى دار فنان يهوى العاديات الجنائزية .. فان الإيطاليين لا يحجمون عن الجمع بين الجمال والموت ! » .

واقترب منهما رجل فى باكورة الشيخوخة ، يرتدى قميصا ابيض ، ويمسك فى يده أزميل النحاتين ، فحياهما بإشارة تنم عن وقار يمتزج بالإكرام والنبل ، وراح يتحدث بالإيطالية مع الشاب ، بينما انهمكت اديث فى اقتطاف الأزهار بإذن منه . وما لبثت أن انضمت إليهما وفى يدها باقة ، وقالت : « هاهى ذى باقتى . سأمنح كلا منكما وردة » . فطفق رب البيت يشكرها ويعبر عن عرفانه بصنيعها ، دون أن تفقه حرفا . وإذ ذاك قام موريس بتقديمه إليها قائلا : « السيد انطونيو سيكاردى .. إن السيد يقلد التحف الأثرية .. وإنها لمهنة جميلة ! » . فتطلعت اديث إلى عشيقها متسائلة ، وإذ ذاك قال : « سأوضح لك ذلك فيما بعد » .

وفيما كانا منصرفين — بعد أن استأذنا مضيفهما — اخذت المرأة الشابة تتندر هازئة بهذه المهنة غير المألوفة : « صانع تحف مقلدة ؟! » .. فقال موريس : « ولم لا ؟ .. إن هذه التحف تستخدم فى تزيين الحدائق . ولو اننا أقمنا بجوار

المقاعد ـ فى الحدائق الغناء ـ عمودا مهشما ، أو تمثالا لإحدى الحوريات الخرافيات ، أو حجـرا ذا طابع خاص ، لكان ذلك بديعا جدا . إننى اعرف رجلا فاضـلا ـ فى الحى اللاتينى ـ كان يصنع خيوطا كنسيج العنكبوت ، توضـع على زجاجات الخمر التى تقدم فى السهرات أو المآدب الكبـرى ، لتوحى بأن الخمر معتقة ! » .

ـ وهل يربح كثيرا من المـال ، من مهنته هذه ؟

ـ اجل ، كثيرا   ـ هذا مستحيل !

ـ لقد روى لى أن جميع الأغنياء المحدثين ـ وكم من محدثين اثروا من التجارة وما إليها ! ـ قد شغفوا بفنه ، واصبحوا يزينون المنازل الجديدة التى يشيدونها بتحف متلدة !

ـ حسنا ، ولكن .. تمثال الحب ؟.. لمـاذا يقوم الحب وسط هذه الأطلال الزرية ؟.. كان من الممكن الاكتفاء بالزهور .

فقال : « لقد سألت الرجل فى ذلك » ، فسألته : « وبماذا اجابك ؟ » .

ـ اجابنى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، كابتسامة الجيوكندا ، بأن من المؤكـد أن « الحب يستمرىء العيش بين الخرائب والأنقاض ! » .

وصاحت اديث : « عجيب هذا !.. فبينما نرى الإيطاليين ينحتون الرخام ليضعوا قطعا منـه فى مقابرهم فيحيلوها إلى قاعات استقبال انيقة ، إذا بهم يختارون التحف التى تشير إلى

الموت ليزينوا بها حدائقهم ! » .. وراحا يصعدان فى بطء جبل (مون ساكريه) ، الذى كان يرتفع على مستوى المدينة بحوالى مائة متر . فلما بلغا القمة ، كان الليل قد أرخى سدوله فأضفى بهاء سحريا على غابات الصنوبر والشربين والكستناء والأرز ، التى كانت تحتضن معابد القديس « فرانسـوا الأسيسى » العشرين المتناثرة ، التى شيدت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ، على طرز متباينة منها المربعة ومنها المستديرة ، ومنها ذات القباب ومنها التى بدون قباب ، ومنهـا القوطيـة والرومانية ، واكثرها بيزنطية . وكان فى مكان الهيكل ـ فى كل معبد ـ منظر يمثل فترة من حياة القديس ، تبدو فى تمثال من الفخار بالحجم الطبيعى : فكأنه استعراض تاريخى صامت جامد . ومما كان يكمل قداسة المكان ، تماثيل لأطفال رفعوا ايديهم فى ابتهال إلى السماء ، أو اشعاعات رسمت بخيـوط ذهبية موحية بوجود الله !

ولم يكن موريس واديث يدعان يوما يمر ـ منذ استقرارهما فى (أورتا) ـ دون أن يذهبا إلى (مون ساكريه) ، إذ لم يكن يبعد عن فندق بيلفيدير بأكثر من بضـع خطوات . وقد اختارا المعبد الخامس عشر دون بقية المعابد ، إذ كان يقال ان الرسوم التى ضمها من صنع « ميشيل أنج » (ميكائيل أنجلو) . وكان هذا المعبد على شكل أسطوانى ، تعلوه قبة وبرج قائم على أعمدة صغيرة من الجرانيت ، مما كان يذكرهما بكنيسة (كالفير دى ليمنك) ، حيث اتخذا قرار الرحيل . اما الأقواس ذات الاحديداب الخفيف ـ التى كانت تقوم على طول الردهـة

المرتفعة على مستوى الأرض ببضع درجات — فكانت كالإطارات ، تبين خلالها مناظر الغابة ، أو المعابد الأخرى الجاثمة بين الخضرة ، أو فوهة إحدى الآبار ، أو جزء من صفحة السماء ، أو ركن من البحيرة ، أو جزيرة القديس جول التي كانت ، ببرجها القائم في المقدمة ، أشبه بحصن كبير وسط البحيرة الصغيرة !

* * *

وكان من الطبيعي أن يتجها إلى معبدهما المختار ، فراحا يصعدان الدرب الموصل إليه ، وقد بدت أشجار الأرز كأطياف سوداء على صفحة الأفق الضاربة إلى الحمرة . وهنا وهناك كانت المعابد البيضاء تتوارى تحت الأفنان ، كأنها بيوت تفيض بالود والصداقة .. وامسكت اديث ورودها بإحدى يديها ، بينما احاطت كتفي حبيبها باليد الأخرى ، وتنهدت هامسة : « لقد كانت امسية جميلة كهذه ؟ » . فتساءل : « اية ليلة » .. وكان جوابها : « منذ عام .. أفتراك نادما على شيء ؟ » .. فقال وهو يشيح بوجهه : « لا » . ولكنها عادت تسأله : « وهل لن تندم قط على شيء ؟ » . فأجاب في شيء من الجفاء وقد ضاق بإلحاحها : « لا .. مطلقا ! » .

ومالت إلى الأمام لتسعى إلى شفتيه ، وإذا بها ترى في عينيه نظرات بعيدة أثارت مخاوفها .. كان ذلك الذي قام بينهما طوال هذا اليوم الأخير من العام الأول في غرامها ، يبدو واضحا في عيني موريس !.. وإذ ذاك نطقت بما كانت الحكمة تصدها عن قوله : « اين شامبيري يا موريس ؟ » . فأجاب بسرعة وفي

إيماءة صدرت عن ثقة زادت من هلع المرأة : « هناك ! » .. إذن فقد كان يصوب نظراته — في أكثر الأحيان — نحو هذه الوجهة .. إذن فحبه لم ينسه شيئا ! وانبثقت الدموع من عيني المرأة . ولم يعن الشاب بسؤالها عن سبب البكاء ، ولكنه حاول أن يسري عنها بأن عانقها متسائلا : « لكم أحبك يا اديث ! » . فأرسلت أنة أسى :

— أكثر من أي شيء ؟ — أكثر من أي شيء !
— وحتى الموت ؟ — أجل
— أو لا يفوقه شيء ؟ — محال !

فصاحت في رغبة ضارية : « ولكنني لا اريد ان اموت .. إنما اريد ان أعيش ، فهل ستحبني غدا إلى هذه الدرجة ؟ » .. فتساءل في دهشة : « ولماذا غدا ؟ » . فقالت : « لأنني خائفة ! الا ترى معي اننا لن نستطيع أن نستمر على هذا المنوال ؟ » .. وإذ ذاك هتف موريس : « آه ! هانتذى تعترفين ! لا ، لن نستطيع المضي في العيش على هذا النسق . فليس بوسعنا أن نتغلب على المستقبل ، والماضي ، والناس !.. ولكنك كنت ترفضين الخوض في هذا الأمر ! » . فصاحت : « اسكت يا موريس .. صه ! » . ووضعت يدها على فمه ، ثم عادت تقول ضارعة : « غدا .. غدا أعدك .. سأطيعك ، ولك أن تقرر مصيرنا .. ولكن ، غدا وليس الليلة .. هذه الليلة الأخيرة من حقي أنا ! » .. وحل فمها محل يدها على شفتيه !

ومر النهار سريعا . وأخذ الوهج الأحمر الذي كان يصبغ الجبال في الاضمحلال شيئا فشيئا .. وراح على مياه البحيرة

غلالة رمادية كانت أشعة الشمس الآفلة تتخللها فتبعث فيهـا رمقا من الحياة . وما لبث موريس أن هبط درجات المعبد ، وسار صوب الاتجاه الذى اشار إليه منـذ لحظـات ، وكأنه مسلوب الإرادة لا يفطن إلى ما كان يفعل !.. ثم التفت فرأى حبيبته واقفة بلا حراك ، بين عمودين ، وقد تجلى قوامهـا الأبيض على الجدار الذى كان اقل بياضا .. تماما كما كانت تقف منذ عام على هضبة (كالفير) تنتظـره !.. وغلب مرة اخرى على امره ، فغمغم : « ما اجملهـا ! » .. أما هى ، فكانت تشم الورود وتتأمل المسـاء ، وارتد ذهن موريس إلى الزيارة الغريبة التى قاما بهـا فى الأصيل ، فقال لنفسـه : « الحب ووروده ! » .. ثم صاح « اديث ، الست قادمة ؟.. لقد اخذت البرودة تشيع فى الجو ، وليس معك معطف ! » .

وفيما كانت فى طريقها إليـه ، اتجـه ببصره نحو الأفق ، وتصور بلده فهتف لنفسـه : « إن الأطلال باقية هناك ! » .

ولكن الم يقل له فنان (اورتا) بابتسامته الغريبة إن « الحب يستمرىء العيش بين الخرائب والأنقاض » ؟!

٢ ـ العيد الأول

اراد موريس ـ فى يوم عيد الميـلاد الأول لحبهمـا ـ أن يحمل زميلته على الرحيل .. فبعد أن تناولا غداءهما، اصطحبها إلى الطريق التى تفضى إلى (مون سـاكريه) ، والتى تتخللهـا شرفات صغيرة محوطـة بسيـاج من الحجـر ، اقيمت لمن

يستطيعون تأمل البحيرة من عل . وكانت الشمس حاميـة ، ولكن المرء يستطيب ـ فى شهر أكتوبر ـ اشعتها بدلا من أن يتحاشاها .. ولم تنبس اديث ببنت شفة ، سواء عن حزن أو عن شرود بال ، ولكنه ما لبث ان كان السباق إلى قطع حبل الصمت الذى اصبح يفرق بينهما بدلا من أن يوحد بينهما !.. إذ قال : « كان لابد أن يأتى هـذا اليوم يا اديث . لقد كنـا سعيدين هنا ، ولكن هناك من ينتظرنى فى باريس . وسيكون هذا بداية حياة جديدة » .. وكان يرجو منها تشجيعا ، فلما لم يتلق شيئا ، استطرد فى ارتباك : « سنهيىء لحبنا جـوا عائليا ، وسيكون لنـا بيت . ثم إننى سـاعمل على تعديل وضعنا ، والحصول لك على طلاق من زوجك . وهـو ما لم تكونى ترغبين حتى الآن فى ان اشغل به . لقد فصمنا جميع العرى دون ان ننظر إلى الوراء ! » .

وارادت اديث ان تروغ من هذا القرار .. فقد كانت تفزع من مغادرة إيطاليا ، ومن ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع إطلاقا ، وقالت : « ما اجمل الطقس فى هذه السـاعة ! لقد كنت احس امس ببرودة ! » . فجاراها فى صبر قائلا : « برودة ؟.. إن الهواء عليل حتى ليخال المرء ان الوقت لم يزل بعد صيفا ! » .. فعقبت قائلة : « ومع ذلك فقد حان الخريف . أنظر ! » .. كانت شطآن البحيرة ـ المرتفعـة ، الموشاة ـ تترامى تحت اقدامهما ، وقد ظهرت فى مواجهتهما تضاريس الجبـال ذات الانحرافات المتناسقة ، بينما انتثر هنا وهناك هيكل ، أو قرية ، أو برج يحدد معالم المناظر الطبيعية . أما الأشجار والغابات فقد تبدل لونها فى ايام معدودات ، فلم تحتفظ بالخضرة الناضرة

وأرادت (اديث) أن تروغ من هذا القرار .. فقد كانت تفزع من مغادرة (إيطاليا) ، ومن ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع ..

سوى أشجار الصنوبر التى كانت محوطة بغلالة ذهبيـة من الضياء ..

ووقف العاشقان متكئين على سياج إحدى الشرفات ، وقد أشاع جمال المناظر — التى كانا يوشكان أن يفتقداها — شجى كان يثير الألم فى نفس اديث ، كمـا جرى لهـا من قبـل فى (السافوا) . وأخذت تستنشق عبير الخـريف — الذى كان موشكا على الفناء — وقد اتسعت طاقتـا أنفهـا ، وتوترت أعصابها ، وسرت فى بدنها رعدة . أما موريس فلم يستطع أن يحول عينيه عن ذلك الوجـه الذى لم يكد يذكـر أنه رآه قط هادئا ، بل كان دوما حافلا بالعواطف ، وكان يبدو وكأن ثمة نارا مسـتعرة تلتهم ما فى نفس صاحبته ، وتنعكس خـلال العينين !.. لقد تجمعت فى صفحة ذلك الوجه الصغير بعض خطوط دقيقة رقيقة ، تنم عن حركة الدم وهـو ينسـاب فى العروق تحت بشرة صفراء ، وأريج ينبعث من شعر أسود ، و .. وجمال الدنيا بأسرها !.. واستطاع موريس أن يلمح — بنظرة واحـدة — أثر العـام المـاضى على المـرأة .. كان الشباب المستعاد ، والحرية ، واللهو ، والمدن الغاصة بالفنون — التى زاراها — قد ساعدت على ازدهار حسنها !.. كان قلبها يضطرم — عندما رحلا — بشهوات مستعرة ، أما الآن فقد هدأت واكتملت فى وقت واحد .. قط لم يحدث له أن قدر سحر إغرائها كما قدره إذ ذاك .. بل أنه كان يشعر بحزن مستعذب كلما فكر فى أنه قد يفقدها !

واحست اديث بنظراته الملحاحة ، فابتسمت وأشارت إلى

الأفق بحركة واسعة من ذراعها ، وكأنها تحتويه بينهمـا ، وقالت : « هذا أجمل مما أتيح لنـا فى الأيـام الأولى » . فلم يتمالك أن يجهر بآخر فكرة عنت له : « وأنت أيضا .. انك أجمل مما كنت ! » . وعجبت لهذه التحية غير المرتقبة ، فأجابت : « أصحيح هذا ؟ » . فقال : « أجل . . انظرى إلى الأشجار ! . . انها أخف مما عهدناها ، كأنها تخففت من حمل لا نفع له . ومن الممكن الآن التطلع خلال أفنانها إلى مسافات شاسعة . وكذلك النظر إلى عينيك يقود إلى أغوار أعمق من ذى قبل » .

ـــ حتى أغوار قلبى ؟! ـــ حتى أغوار قلبك !

وابتسمت وهى تستعرض كل ما يجهله أى شـاب عن قلب أية امرأة . ولما كانت لا ترتاب فى مدى سلطانها عليه ، فقد رأت أن الفرصة مواتية كى تثير من ناحيتها أمرا كانت تنأى عن الخوض فيه منذ زمن . كان غرضـها أن تتخفف من جميع الأكاذيب ، وأن تشد عشيقها إليها برباط لا انفصام له ، وذلك بأن تحمله على أن يقبل أن يشاطرها ذنبا يستحيل عليهـا أن تكتمه بعد الآن . فان قبوله خليق بأن يكون أعظم دليل على الحب الذى يصيبها من موريس . ولو أنها كانت فى مكانه ، لما أحجمت عن أن تهبه ذلك الدليل . ولكن المرأة حرية بأن تكون على حذر من الرجال ، إلى أبعد مدى ، لأن رأيهم فى الشرف عجيب !

إن حقها فى أخذ ونقل المبلغ الذى منحها إياه السيد فرازن ، كان أمرا لا يحتمل أى شك فى نظرها . فأية منحة هـذه التى يملك المانح استبقاءها لديه ؟. لقد ذهبت إلى درجة التحلل من

أى لوم قد يثيره ضميرها إزاء الطريقة التى استولت بهـا على المبلغ .. ففيم تهمها الطريقة ؟ إن النسـاء لا يفهمن جميع ما يتعارض مع مصالحهن فهما كاملا ! لقد قيل لها ان المـال يخصها ، فوجدت فى هذا ما يكفيها ! .. إنهـا ما شعرت بأى حرج عندما سرقت زوجها .. فقد كانت تكرهه ، بل إنهـا لم تعتقد قط أنها سرقته ، فهى لم تأخذ سوى المبلغ الذى كان من حقها فقط ، مع أنه كان فى وسعها أن تستولى على أكثر منه . ثم إنها قدمت ـــ من جانبها ـــ شبابها وجمالها ، ودفعت الثمن من حياتها ، مرطبا بالدموع . أفيستطيع أحد أن يرد لهـا تلك السنوات التسع التى قضـتها فى نفور مكبوت ، واشمئزاز متراكم ؟!

* * *

ومع ذلك ، وفى اللحظة التى همت فيها بأن تجهـر بكل شىء ، تولاها نوع من التردد . وما لبثت أن قالت فى أعـذب صوت : « إذن فالسعادة تخلع على المرء جمالا ؟ .. إن هذه أولى سنى السعادة فى حياتى ، منذ طفولتى ! .. آه ! ليتك تعرف ماضى حياتى ! » . فهتف بهـا : « لطالمـا سألتك أن تحدثينى عنه يا أديث .. أرويـه لى ! .. إنك لم تعـودى تقوين على صون الأسرار ! » .. وكان ما روته قصة معدة ومنقحة ، ككل سيرة فى التاريخ : طفولة سعيدة مدللة ، فى وسط راق مترف . ثم إفلاس أبيها الذى ابتلى بالميسر ، وكان إفلاسا لم يتحمله ، فقاده سريعا إلى القنـوط ، والإفراط فى الشراب ، فالمرض ، فالموت .. ثم الانزواء فى الريف ، مع أم

مضعضعة القوى ، حزينة . والثورة النفسية التى اجتاحت اديث على هذه الحياة الرتيبة .. وحمى الشهوة المتأججة ، تأكل قلب الفتاة الشابة التى ورثت عن أبيها تهوره وإسرافه، والتى هوت إلى درجة الاضطرار إلى تدريس العزف على « البيانو » لابناء القادرين من الجيرة ، وهى ترتقب بفارغ الصبر ذلك الحب الذى كانت تأمل فى أن يواتيها بالحرية !

وقاطعها الشاب متمتما : « تلك كانت حياة تعسة » . وظنت انه يرثى لها ، فابتسمت شاكرة . وإذ كانت مستغرقة فى ذكرياتها ، فانها لم تفطن إلى الانتباه الذى راح يبديه نحو كل صغيرة وكبيرة من كلامها .. وقالت : « تقريبا ! » . فسألها : « وهل كنت إذ ذاك جميلة ؟ » . فأجابت : « ما أظن ذلك ، فقد كنت نحيفة كجذع الكرم ! » . ولكنها كانت تعرف غنتها ، إذ أردفت فى دلال : « .. الذى يستخدم فى إيقاد النار ! » .. وعادت تستأنف قصتها . فقد أخذ فرازن يلاحقها . وكان يثير اشمئزازها بعينيه الغائرتين ، والعناد الذى استشعرته وراء ما كان يتظاهر به من دعة . وثارت عليه ، فقرر أن يكون أول من يتقدم — من كل الذين كانوا يتقربون إليها — لطلب يدها. وكان يمتلك ثروة طيبة ، ومركزا محترما فى باريس ، وفى وسعه — لو شاء — أن يتخذ مكتبا للتوثيق فى جرينوبل أو أية بلدة مجاورة .. وكان زواجها منه « زواج مصلحة » فى ابشع صوره .. فقد كانت تكره الفقر، وكانت أمها — التى لم تألفه — تمقته هى الأخرى وتخشاه . فالمسنون من الناس لا يشغلون بغير الحياة ، اما الحب فلا يحرك فيهم ساكنا ! وهكذا كانت الظروف العائلية تسد على الفتاة كل المنافذ ..

واختتمت قصتها قائلة : « وهكذا .. بعت نفسى ! » . ولم يكن موريس قد قاطعها خلال ذلك ، بل راح ينصت ودقات قلبه تتسارع كشخص ينحدر إلى هاوية . حتى إذا كفت عن الكلام، لفظ فى جهد الكلمات التى كانت على طرف لسانه منذ لحظة : « وصداقك ؟ » .. فأجابت : « مهلا ، فسوف تفهم كل شىء » .. وكان ثمة نفر قليل من الناس قد خرجوا للتريض فى الطريق المشمسة .. كما كان ثمة أطفال يلعبون فى الغابة ، بعيدا عنهما . وبذلك كانا وحيدين تقريبا . ولكن وجود الناس فى تلك اللحظات الحرجة التى كان العاشقان يجتازانها ، والتى كانت المرأة قد ارجأت أوانها بلباقة حتى ذلك الوقت .. كان وجود الناس — وإن لم يضايقهما فى شىء — قد حرم المرأة سلطانها الأكبر فى الجدل .. سلطان القبلات ! ولقد ادركت — إذ لم يكن فى وسعها سوى أن تدرك — سر قلق حبيبها واهتمامه . وكم فكرت فى ذلك من قبل . كان هذا الموضوع مبعث عذاب لهما منذ وقت طويل ، ولطالما حاولت استبعاده بجهود كثيرة ، وبأكاذيب ، وبإعراض عن الحديث فى الماضى ، فان المحب لا يحسب للنتائج حسابا .. وكان كل ما يهمها هو أن تقصى ذلك الموضوع عن نطاق هنائها .. بل كانت فى قرارة نفسها ترى ان التخلص من هذا الموضوع ضمان لدوام ارتباطهما !

وبينما كانت تشحذ ذكاءها بهمة ، وكأنه سلاح تحاول ان تفرض به تبريرا كانت تبغى — مخلصة ، صادقة — ان يحسم الأمر ، عاد موريس يقول بصوت مختنق : « صداقك ؟ ..

الم يكن لك صداق ؟ » . وفى نفس اللهجة الآمرة التى اخذها
عن ابيه ، قال : « تكلمى .. يجب أن تتكلمى !.. هيا ! » ..
ورمقته مذهولة ، مرتبكة ، وقد داخلها نوع من الذعر . إن هذا
الشاب الكبير ، الذى بلغ من العمر خمسا وعشرين سـنة ،
والذى كان جد لطيف ــ بل جد محبوب ــ والذى خالت أنه فى
قبضتها .. لكم تحول فجـأة إلى سـيد آمر . إذن ، فهى لم
تكتشف بعـد كل اركان القلب الذى استحوذت عليـه !..
ودفعتها الغريزة إلى الإفضاء بأقل ما كان لديها من الحقيقة ،
حماية لحبهما ، فقالت : « صداقى يا موريس ؟.. إنه ملكى
فعلا ! » . ولكنه تساءل فى إصرار : « ومن اين جاءك ؟.. إنه
لم يكن من اهلك إذن ؟.. آه ، لقد فهمت !.. الم يكن « هو »
الذى نص عليه فى عقد زواجك ؟.. اجيبى ! » .

وحاولت ان تسترضيه بمجاراته ، فقالت: « اجل ، هو الذى
منحنى إياه . وماذا فى ذلك ؟.. إنه ملكى ! » . وتمالك نفسه
ــ مراعاة لوجود المارة ــ وقد استبد به ذعر يفوق ذاك الذى
تولاها . على أنه شاء أن يختتم استجوابها قائلا : « لا ، ايتها
التعسة .. إنه ليس ملكك ، فأنا خبير بهذه العقود . لقد كان
منحة تتقاضينها إذا عشت بعد موت زوجك . هكذا هو ، وإنى
لموقن من ذلك ، فاستجمعى أفكارك ، واحذرى ! » .. فجمد
كل كيانها إزاء هـذا الإنذار الذى انسـاب من بين شـفتيه
الحبيبتين .. الشفتين الرقيقتين ، الحمراوين !.. إن الأمر لم
يعد ــ بالنسبة لها ــ سعيا إلى تحويل عشيقها إلى شريك فى
الذنب ، ليكون ذلك أعظم ضمان للحب ، وإنمـا أصبح الأمر

يقتصر على إنقاذ هذا الحب ! ولم تكن تملك سـوى نبرات
صوتها التى كانت تدرك مدى تأثيرها عليـه .. ثم ، الم يكن
ما اعتزمت ان تؤكده هو الحقيقة بعينها ؟

وهتفت : « لا تعاملنى هكذا يا موريس ، فأنت مخطىء . ان
صداقى ملك لى ، إذ آل إلى مباشرة ، بفعل إصرار أحد أصدقاء
ابى . فهل تريد دليلا ؟.. لقد كنت اعطى امى ــ اثناء وجودها
على قيد الحياة ــ ريعه ، وكان لى الحق فى سحبه . أفرأيت
خطاك ؟.. لا تعاملنى بهذا الشكل ! » . واخذ الموظف السابق
بمكتب فرازن يستعيد ــ فى غمرة الارتباك ــ كل معلوماته فى
القانون ، باحثا عن سند ، ثم قال « إنها منحة ، على اية حال
.. منحة منه . والمنحة عرضة للإلغاء فى حالة الطلاق » .
ولكنها راحت تؤكد له فى حرارة : « لم يكن صداقى من هـذا
النوع .. اقسـم لك ! » . فقال : « حاولى ان تفكرى بدقة
يا اديث ، فالأمر خطير إلى درجة تجعـل حياتى مهددة » .
فهتفت : « حياتك ؟ » .. وكان جوابه : « نعم .. او شرف.
وهما سـيان ! اكنت تستغلين بنفسـك هـذا الصداق ،
وتستولين على ريعه ؟ » . فأجابت : « هكذا كنت » .

ومن حديثه اهتدت إلى الطريقة التى يخلق بها ان تتبعها فى
الإجابة ، فأقبلت على الكذب فى شراهة . لقد كان من المتفق
عليه فعلا ، ان المائة الف فرنك ــ التى منحهـا إياها السيد
فرازن ــ ملك لها ، ولكن استثمارها كان باشراف الزوج ..
ولم تكن لتبقى بعد دعوى الطلاق ! وفى كل الأحوال ، لم تكن
لمدام فرازن الحرية فى التصرف فيهـا ، ولا فى استثمارها ،

ولا فى أن تسحبها وحدها . ولكن ، ما الذى يهم من كل هـــذه الحجج ؟.. على أن موريس ظل سادرا فى أسئلته ، وكأنه من قضاة التحقيق .. فقال : « أين كان ذلك الصداق مودعا ؟ » . فأجابت : « فى مصرف « يونيفرسال » ، فى شكل سندات عملت على تحويلها كما سبق أن رويت لك . فدعنى ! » .. ولكنـــه مضى فى تساؤله : « اكانت مودعة باسمك ؟ » . واجابت فى إصرار : « باسمى » .. فسألها : « أمن هذا المصرف سحبت المبلغ قبل سفرنا ؟ » .. وكان جوابها : « من هنـــاك » .. وعاد يتساءل : « اكان بوسعك أن تسحبى من فرع شامبيرى هذا المبلغ بتوقيعك وحدك ؟ » .. وأكدت له ذلك ، فقال : « إذن فقد تزوجت على أساس انفصال ممتلكات الزوجين ؟ » . وكان جوابها فى هذه المرة ايضا : « هو ذلك ! » .

***

وكان قد سألها مرارا فى هـــذا الصدد ــ منـــذ باحت له بحبها ، ثم منذ فرارهما ــ مستفسرا عن مصـــدر ثروتهـــا الشخصية ، فكانت تلقى فى روعه أنها ميراث عائلى . فلمـــا ابتكرت خرافة المصرف ــ وقد توهمت أنها لا توقظ شكوك الشاب ــ حرصت جاهدة على التشبث بها .. وكانت إجاباتها الدقيقة ، السريعة ، تطابق إيضاحاتها السابقة ، وجديرة بأن تلقى فى مجموعها تصديقا . فلم يكن من البعيد عن الصدق أن مستشار الأسرة ــ « دانيمارى » ــ قد تدخل قبـــل توقيع العقد ، مستغلا حب السـيد فرازن ، للحصول على هبـــة مباشرة ، مطلقة ، نهائية ، بغية ضمان مستقبل الفتاة ، وليكفل لها ــ فى ذلك الحين ــ مزيدا من الاستقلال والكرامة .

فلماذا ارتاب موريس فى مثل هذه الحقائق ؟.. ألم تقض هذه الحقائق على هنائه بما فيه الكفاية ؟.. لقد كان شططا منه ان استسلم لمثل هذه الغواية التى أفاق الآن منها ثائرا ، وإن قبل ــ فى رضى مشين ! ــ أن يؤخر السعى للحصول على عمل ، حتى انقضاء هذا العام من عمر حبه . على أنه لم يكن يعتقد لحظة واحدة ان ثروة اديث ــ التى كان يتوق إلى عمل كى يتم نقصها ــ نبتت من ذلك الأصل المسمم !.. ولكن ، ها هو ذا الأصل يتكشف له ليحطم عزة نفسه ، وليهدم فيه كل احترام لنفسه !.. وحتى إذا كانت هذه الثروة حقا خالصا لزميلته ، إلا انها جاءت فى الواقع من رجل هدم هو حيـــاته العائلية . ومن ثم فان أتفه قدر تسرب منها إلى حياته ، إنمـــا يعتبر خزيا لا يقوى على تحمله ، مهما يكن الثمن !

وراح ــ فى حيرته ــ يحسب الرقم الذى بلغه دينـــه ، ثم سالها : « إن نقودك مودعة فى المصرف الدولى بميلان . فهل تعرفين كم نقصت ؟ » .. فأجابت اديث : « إنمـــا أنت الذى تتولاها » . فقال : « لقد بلغ النقص ثمانية آلاف فرنك تقريبا » .. وإذ ذاك قالت فى ليونة ، متظاهرة بالاحتجاج : « إذن فنحن لم نبذر كثيرا » . والواقع أن هـــذا المبلغ ، إلى جانب ما كان يحمل هو ، كان قليلا بالنسبة إلى نفقات عام كامل انقضى فى رحلات وأسفار . ولكن الحياة كانت رخيصة فى (أورتا) ــ حيث قضيا ستة أشهر ــ كما ان الملاهى كانت قليلة ، وزهيدة النفقات . ولقد ارتدت اديث ــ بعد فترة قصيرة من التبذير ــ فباتت تؤثر البساطة والاعتدال ، وتقنع بالقليل من النفقات .. مكتفية بالحب !

ترى كيف ، ومن اين ، يحصل على هذه الآلاف الثمانية من الفرنكات ؟.. لسوف يرى نفسه مجردا من الكرامة والشرف ما لم يردها ، ولسوف تصبح الحياة عبئا يثقله . واخذ موريس يوسع صاحبته قسوة ، نتيجـة ما داخلـه من شعور عميق بالضعة : « هذا حسن .. اننى مدين لك ، وسأوفى الدين ، ثم ننظر فى الأمر بعد ذلك ! » . فتنهدت وقد خـارت قواهـا ، وخبت عزيمتها ، وغلبت على امرها ، وقالت : « اى حديث هذا الذى يدور بين حبيبين .. وفى عيدنـا الأول ؟ » . واخفت وجهها فى راحيتها ، فسار إليها — وهو اشد منها تعاسة — وحاول ان يقصى راحيتها عن وجهها قائلا : « اسمعى يا ادبث .. إننى لا اتهمك انت بالذات . فنحن نعيش معـا كما لو كنا زوجين ، ومن ثم فلست افكر إلا فى غرامنا . لقد اخطأت .. إننى ما زلت شابا صغير السن ! » . فاسلمته يديها دون ان تخشى ان يرى عينيها المغرورقتين بالدموع ، وقالت: « او لست اتقبل كل شىء منك بالشكر والعرفان ؟ » . فقال : « ولقـد كنت اود ان تكون هـذه حالى .. ولكن ، ان يكون ما تقبلته « منك » انت ، وليس منه « هو » !.. لقد ثار لنفسه ، وإذا كنت قد قوضت بيته ، فانه قد طعن هنائى » .. فتساءلت : « أو ترانى افكر فيه ؟ » .. ولكنه استطرد فى أسى وإصرار اليم : « لقد كنا نعيش فى غير هم ولا شاغل . ولكن هذا العهد قد انتهى ! » .

وكان فى لهجته من القنوط ما حملها على ان تلقى بنفسها بين ذراعيه هاتفة : « اصمت ! » .. وارادت ان تجره إلى خارج

الشرفة التى تركا فيها ثقتهما تتسرب وتتبدد ، فقالت : « تعال إلى الغابة يا موريس .. تعال اجلس فى الظل ، خلف معبدنا . فهناك نكون فى خلوة ، ويخف شقاؤنا ! » . فقرر فى التو ان يستجيب لها ، وقال : « اجل .. لننصرف من هنا ! » . وكانت الأشعة تتخلل أشجار الصنوبر ، راسمة هالات مضيئة حول اوراق الشجر الذابلة المتساقطة على الأرض ، فبدت هـذه الهالات على الطريق الظليلة ، وكأنها بقع رخوة يجب تخطيها. ودارا حول المعبد ، ثم اختارت اديث ركنا ظليلا منعزلا ، حملت حبيبها على الجلوس فيه ، ثم احتوت وجهه بين راحتيهـا واغرقته بالقبلات . وبدا الشاب مستسلما لغزلها فى البداية ، ولكنه ما لبث ان دفعها عنه فجأة ، وصاح : « لا ، دعينى !.. انصرفى .. إن إرادتى تتلاشى عندما تلاصق شفتاك شفتى . إننى لم اعد شيئا مذكورا .. لم اعد اكثر من قلب ينبض بين جوانح ميتة ! » .

— إننى احبك — وانا احبك كذلك !

واستوى على قدميه ، كمن ذهب عقله ، وأومأ إلى البحيرة التى كانت تتالق خلال الأفنان ، فارتعدت أوصال اديث — إذ ادركت ما كان يرمى إليه — وهتفت : « ولكننى احبك اكثر من ذى قبل . ما عليك إلا ان تأمر فأطيعك واصغى إليك » .

— اتجيئين معى ؟ — وإلى أين تقودنى ؟

فقال مومئا نحو البحيرة : « هناك ! » . فانكمشت بحركة غريزية وهتفت : « اسكت ! » .. وكما اقنعته بالرحيل ، على

هضبة (كالفيردى ليمنك) ، اخذ هو — فى هذه المرة — يحاول إقناعها : « تعالى ، فان العام الأول فى هوانا قد مات ! تعالى ، فان حبنا قد مات . . ولن يفتقدنا احد . إن الماء ليس قارسا ، ولننزلق إليه من احد القوارب ! لقد غدوت مجردا من الشرف ، فهل تجيئين معى ؟ » . وامسكت اديث بذراعه بقوة ، وصرخت مذعورة : « لا ، لا ، . . إننى احبك ، وإذا احب الإنسان فانه لا يرغب فى الموت . إن الإنسان إذا احب لا يتورع عن الكذب ، والسرقة ، والقتل ، ولكنه لا يرغب فى الموت ! والعشاق الذين ينتحرون ، لا يحبون غرامهم ! » . . وتخلص موريس من قبضتها ، دون أن يشفق من ان يجرح شعورها ، وصاح : « دعينى . . لا تلمسينى ! » . . وانطلق هاربا . وبنفس سرعته ، هرعت المرأة فى اثره . . وكف الأولاد عن لعبهم فى الغابة ، لينصرفوا إلى متابعة السباق !

على ان موريس كان قد ابتعد عنها ، فلم يعد فى وسعها اللحاق به . ويمم لفوره إلى فناء « بوتشيونى » ، وهو مكان كان قد اكتشفه فى نزهاته مع اديث ، يقوم فيه برج مربع عال ، هو الطلل الباقى من قصر قديم ، وقد حفت به جدران مهدمه ، تخللتها الأعشاب والنباتات المتسلقة . . وكان موقعه فى الطرف الاقصى لبحيرة (أورتا) ، على تل اكتسى باشجار الكستناء ، واطل على مساحة شاسعة تنتهى فى الجنوب عند (نوفار) ، وهى مدينة بديعة تقوم فى نهاية سهل ، يليه جبل (مون روز) الذى تشرف قمته النائية على سهول أخرى تحف بها جبال بدت ثلوجها متألقة تحت الشمس . وكان المكان قفرا ،

لا مثيل له فى البطاح المجاورة ، من حيث انبساط الطبيعة وتجليها أمامه . وكان موريس يكثر من التردد عليه ، عندما كانت صاحبته تتركه لنفسه بضع ساعات ، وقد برح بها التعب . . وهناك ، كان يحلو له أن يسرح البصر صوب بلده ، وهو يستشعر وطأة الغربة !

ومكث موريس فى تلك البقعة طويلا ، وهو ينكأ جراح نفسه ويحيى مواتها . . ترى لماذا لم يداخله فى تلك الساعة سوى الشعور بالشقاء ، برغم ما كان ينبغى أن يغمر شبابه من عواطف جياشة ؟ لابد إذن أن هناك شيئا آخر غير الحب . . شيئا بلغ من سلطانه أنه كان من القوة بحيث نزل بالحب إلى المرتبة الثانية — وإن لم يستطع القضاء عليه — فأفسد بذلك ما كان فى الحب من الوان السعادة ! . . إن الحب لم يكن يشغل الحياة بأسرها قط ، بل انه لم يقو يوما على أن يعيش فى معزل منفصلا عن بقية الحياة . . وهو إذا ترك وشأنه لم يعد سوى قوة جامحة هدامة ! وهكذا وقر فى نفس موريس أن حبه قد أوقع — ولا بد — كارثة حلت بمن كانوا فى الجانب الآخر ، خلف تلك الجبال التى كانت تحجب الأفق ! . . فهل فى وسعه ان يلقى التبعة على الظروف وحدها ؟ . . لا ! إنه لو استعاد الماضى فى صراحة ، لوجد أن هذا الماضى يدينه . لقد تكشفت له نفسه ، فرأى أنه مسئول عما بدر منه من رعونة وضعف : مسئول عن قبول الرحيل مع تلك المرأة ، فى حين أنه كان خليقا بأن يدرك أن موارده لن تلبث أن تنضب قبل مضى وقت طويل . . مسئول عن التبريرات التى أدلت بها اديث إليه دون أن يطالبها بدليل واحد عليها ، مع أنه كان من السهل عليه أن يلمس ضعفها . .

مسئول عن انصياغه لغوايتها ، وموافقته على الاستمتاع معها بالحاضر ، دون أن يربط بين هذا الحاضر وبين أى ماض أو مستقبل .. ومسئول كذلك عن استسلامه لضراعاتها عندما ألحت عليه فى أن يمنحها من حياته عاما يقضيه فى نسيان .. عاما يقضيه فى هناء .. عاما يقضيه فى كسل وخسة !

وتجلى له أنه إذا أراد الإبقاء على شرفه ، فلن يتسنى له الإنقاذ إلا على أيدى أسرته .. فقد رأى أنه بغيرها ضائع ، لأنه لن يستطيع – وقد لا يستطيع لأمد طويل – أن يسدد تلك النقود التى لم يكن راغبا فى إنفاقها . ولم يداخله شك فى أن الأسرة ستخف إلى نجدته لو أنه استغاث بها ، إذ كيف تنكص عن ذلك ؟ أو ليست متضامنة معه فى عاره ؟ لو أنها كانت متضامنة فى عاره ، فهو إذن مطالب إزاءها بالتزامات هرب منها . لقد كان الابن المفضل فى أسرته منذ مولده ، وقد ارتبط نحوها بالتزامات أهملها ، فحكمها إذن حكم العقد المفسوخ ! هذه الأسرة التى ندين لها بالعون فى أوقات المحن ، وفى الخطر .. بأى حق نسيها فى انطلاقه وراء سعادة أنانية تكاتفت تبعاتها كلها ضده ؟ لقد فرقت كبرياؤه بينه وبين أبيه ، ولكن أمه خليقة بأن تكون موضع ثقته ، فيطلب منها المبلغ اللازم لتحريره .. فإن هذا المبلغ هو كل ما ينبغى أن يناله فى الحال ، حتى يسترد كرامته وشرفه فى نظر نفسه ، قبل كل شىء !

وما أن عقد النية على ذلك ، حتى عاد إلى الفندق فكتب إلى مدام روكفيار . ولم يكد يتم الخطاب ويسلمه إلى البريد ، حتى عادت اديث . ولمحها فى نهاية الردهة ، فبهت إذ رآها بهذه السرعة ولم تمض إلا ساعات قليلة على ابتعاده عنها . لقد

ظلت – منذ عام – تشغل كل أيامه ، وكل خفقة من قلبه ، فهل تراها قد وجدت نفسها مجردة من هذا السلطان ، بهذه السرعة ؟

أما هى ، فقد وقفت حين وقع بصرها عليه ، وقد انعقد لسانها ، ثم هرعت إليه فألقت بنفسها بين ذراعيه هاتفة : « أهذا أنت ؟ أهذا أنت ؟ » .. فأجاب فى حنان ضاف : « يا حبيبتى .. يا عزيزتى ! » .. وقالت : « إذن فأنت هنا .. ما أسعدنى ! » . وأومأت إلى البحيرة فى ذعر ، لتوضح له عما جال بخاطرها ، وقالت : « لقد جئت من هناك .. سرت على طول الساحل الرملى . لنجلس .. ألا تريد ؟ لم تعد ساقاى تقويان على حملى .. لكم استبد بى الخوف » .

ولم تكف عن التحديق فيه ، فوجد فى منظرها الفتنة القديمة . وكان الخريف يلفهما بإغراء ناعم ، فوقف الحب منتصرا على الأطلال !.. وأقبلا على ارتشاف هناء كانا يعلمان أنه مسوق إلى الفناء !

* * *

ولم يعودا – منذ ذلك الحين – يتحدثان عن الماضى . وكان موريس من ناحيته ينتظر ردا على خطابه . أما اديث ، فلم تجسر على سؤاله ، وإنما راحت تضاعف من فتنتها كى تروق له . بيد أن هذه الفتنة ذاتها كانت قد تغيرت ، فلم يعد فيها إثارة ولا احتدام دائب ، إذ أن خوفها من فقدان حبيبها جعلها وادعة خانعة ، تذوب ضعفا وحنانا . وكانت تسعى لاجتذابه إلى الحديث ، وتجهد فى البحث عن الموضوعات التى تلذ له قراءتها ، وتعزف له المقطوعات الموسيقية التى يؤثرها . فى

حين أنه لم يعد يعاملها إلا فى ترفق . وكان كل منهما ينعم بهذا الوئام الناعم المتجدد ، ولكن .. فى شىء من الضيق ، إذ أن وجودهما معا بات مجـردا من البهجة ، ومن الثقـة ، ومن الاطمئنان !

وكان ثانى أيام شهر نوفمبر قاسيا عليهما أكثر من سواه . فقد أراد موريس أن يخرج للنزهة وحيدا ، كى يستعيد ذكريات أسرته فى ذلك اليـوم الذى كان يحتفل فيه بإحيـاء ذكـرى الأموات . ولكن اديث توسلت إليه أن يصطحبها ، فقبل فى غير ابتهاج ، وذهب ينتظرها عند (مون ساكريه) ريثما تستكمل تأهبها وتلحق به . وسألته حين وافته : « إلى أين نذهب ؟ » ، فأجاب : « إلى المقابر ، كما يفعل كل الناس اليوم » . وكان عليهما أن يجتازا – فى طريقهما إلى المقابر – حقلا غير مزروع ، كان فيما مضى جزءا مقبرة (أورتا) ثم أزيلت منه الأضرحة ، وفصل عنها . وكانت المقبرة تضم قبورا غير ظاهرة ، ولا يعرف أصحابها ، إذ لم يكن ثمة ما يبرزها للنظر : فلا أسماء ، ولا صلبان ، ولا ارتفاع فوق مستوى الأرض . ولما كان ذلك اليوم هو عيد جميع القديسين ، فقد نثرت أيد مجهولة باقات البنفسج هنا وهناك ، فحولت القفر إلى حديقة !

ووقفت اديث وموريس فى ذلك المكان المنعزل الذى أحاطت به أشجار الكستناء ، وقد بدت أوراقها معلقة فى الهواء . تكفى لفحة من نسيم لإقصائها عن الأغصان . وهبت مع دنو الليل نسمة عليلة ، فتساقطت بعض الأوراق ، وراحت تدور حول نفسها فى الهواء ، ثم استقرت إحداها على قبعة المرأة الشابة .. وأثار مشاعر موريس – فى ذلك اليوم المفعم بالانفعالات

الجياشة – أن رأى هذا الرمز الحزين ، فوق ذلك الوجه الساخن البشرة ، ذى العينين اللتين تشعان لهيبا .. وفوق ذلك القوام الذى كان – برغم وقوفه بلا حراك – ينضح بحرارة الحياة !

وإذ طال صمته، أومأت اديث إلى الزهور وقالت: « ما أجمل الزهر ! » .. وأخذ فكراهما يحومان حول الموت الذى غطاه الزهر . وأفاق العاشقان إلى نفسيهما على مهل، فتأملا الأشجار التى كانت تقوم فى صف حجبهما عن الأنظار ، ثم دنا كل منهما من الآخر .. وتعانقا .. فوق القبور !

٣ – الأطـلال

استدعى موريس – فى اليوم الثانى بعد تلك النزهة – إلى مكتب الفندق . وقيل له : « إن ساعى البريد يطلبك ، بشأن خطاب مسجل » .. وعرف موريس المظروفات الصفراء التى يستعملها أبوه ، فأسرع إلى فض الأختام ، بينما كانت مديرة الفندق تتأملها فى عجب ، بعد إذ قرأت بيانات التسجيل . وكان الخطاب المجلل بالسواد يحتوى على ورقة مالية من ذات المائة فرنك ، وإذن مصرفى قيمته ثمانية آلاف فرنك ، على المصرف الدولى بميلان ، بتوقيع أخته « مرجريت » . وهتف الشاب لنفسه : « الآن أصبح سيد نفسى ! » .. كان الاعتزاز بالنفس هو أول ما خامره بعد الهوان . وحين اطمأن ، فطن إلى حافة الخطاب المجللة بالسواد ، فانقبض قلبه . لقد وقع حادث سيىء هناك أثناء غيابه . والمرء فى ميعة الشباب – وبعد ذلك أحيانا – لا يتصور قط احتمال فقدان أولئك الذين يحبهم ، بل أنه ينأى

عنهم وهو واثق من انه سيجدهم عنـــد عودته . ثم يتبدد هذا اليقين فى المستقبل ، عند وقوع أول مصاب . ولما كان موريس قد فارق أهله ، وحرم أنباءهم ، وانصرف إلى نزوات الحياة . واستغرقته أنانية الهوى ، فقد كان حريا بأن يجهل ذلك القلق الذى ينهش الصدر فى نهم وحشى عندما تعاوده الذكريات . وكثيرا ما كان يتذكر اسرته بل كثيرا جدا — فيتمثل الفراغ الذى خلفه فيها .. ولم يكن وجود اديث كافيا لطرد أطيـــاف الذكرى دائما ، ومع ذلك فانه لم يتصور قط حدوث وفيات فى الأسرة . على أنه منذ بضعة أيام — أى منذ بدأ فصل الخريف يخلع تقلباته على هناء العاشقين — كان موريس يتمثل وجـــه أمه الشاحب ، أكثر من ذى قبل ، ويحس على وجهه اللمســـة الأخيرة التى ربتت بها يدها الباردة وجهه ، فعاد يستشعرها برغم مرور عام !

ولم يكن متأهبا لتلقى الصدمة .. ما السبب فى أن مرجريت هى التى كتبت له ؟ ثم ، على من تفرض كل هذا الحداد ؟ ولم يجرؤ على الإجابة عن هذا السؤال .. فقد كان الجواب يفرض نفسه فرضا . وتناول موريس قبعته وغادر الفندق والخطاب فى يده .. كيف يقرؤه فى مكتب الفندق ؟ لا ولم تكن الشرفـــة بالمكان الملائم ، ولا الطريق المحفوفة بالأشجار ، ولا الغابة .. فقد تلحق به اديث بعد هنيهة ، متفاجئة ، فى حين أن الحزن الأليم الذى حمله الخطاب كان حزنه الخاص ، وما كان راغبا فى أن يقتسمه مع اى شخص.. فان اقتسامه يخفف من حدته ، فى حين انه كان يريد أن يحس بوخزاته !

وحين أصبح خارج الفندق ، قرأ السطور الأولى ، ثم انطلق فى الطريق كوحش جريح مطارد . وأخذ يواصل انطلاقه كلما لمح أثرا للمنازل ، إذ كان ينشد خلوة يبكى فيها دون أن يراه أحد . ومن ثم يمم شطر برج « بونشيونى » . ولم يتوقف إلا عند قمة التل ، فى أســفل البرج . وكان لاهث الأنفـــاس ، فتهالك على العشب النامى بين الجدران المنهارة ، إذ ظل يعدو وكأنما كان فى وسعه — أو فى وسع أى امرىء ! — ان يفر من القدر المحتوم! وما أن استرد أنفاسه ، حتى استبد به الخوف ، وراح يعتصره . وكان الخطاب المؤلف من بضع ورقات قد تجمد فى قبضته .. ولم يجرؤ على قراءته كله ، فقد كان يعوزه جهد عظيم حتى يستطيع أن يواصل القراءة ، ومن ثم أخذ يقرأ على دفعات .. كانت الرسالة تحمل إليه من الفواجع فوق ما كان بوسعه أن يحدس . وقد جاء فيها :

« شامبيرى ، فى ٢ نوفمبر

« عزيزى موريس : عهـــد بخطابك إلى ، فكنت أنـــا التى فضضته . وكنت أنتظره منذ أمد طويل ، إذ كنت موقنة من انه سيجىء ، أو تجىء أنت .. لقــد انبأتنى أمنا بذلك ، لأنه ما كان بوسعك ان تنســـانا إلى الأبد ! ولقد ادركت وأنا اقـــرأ خطابك انك لا تعرف عنا شيئا منذ رحيلك ، فوجدت فى ذلك تعليلا لصمتك المستمر . ولعلك فهمت الآن انه لم تعد لنا أم . وأنا إذ أنبئك بهذا ، أستجمع كل الأسى الذى لا اريد أن أفقده ، لأنه يقربنى منها . فابك معى يا أخى المسكين .. ابك بدمع سخين وعوض ما فاتك من بكـــاء . ولكن ، لا تدع القنـــوط بجرفك ، فانها لا تريد ذلك ..

« لقد غادرتنا فى الرابع من أبريل الماضى ، اى منذ سـبعة
شهور . فقد اخذت قواها تتضاءل طيلة الشتاء فى بطء ورفق .
ولم تكن تتألم ، أو أنهـا لم تكن تشكو ، على الأقل ! ولم تكف
عن الصلاة . وفى ذات مساء ، فاضت روحها وهى تصلى، دون
أن يبدو عليها ما ينذر باحتمال موتهـا . وكنت وأبى معهـا ،
فتطلعت إلينا ، وحاولت أن تبتسم ، وتمتمت باسم أدركنا معا
أنه اسمك .. ثم مال رأسها إلى الوراء ، وانتهى كل شىء !..
وكانت قد حدثتنى عنك قبل ذلك ببضعة أيام ، وكأنما كانت
تعلن رغباتها الأخيرة ، على ما فهمت فيما بعـد . وكانت تتكلم
ببساطتها المعهودة ، فقالت لى : « لسوف يعود موريس . انه
تعس اكثر مما هو مذنب . إنه ما يزال يجهل الأمر ، ولكنه لن
يلبث أن يعرفه ، وسيحتاج إلى كل شـجاعته . فعدينى أن
تحسنى استقباله إذا ما عاد . وأن تصلحى بينـه وبين أبيه ،
واسرته ، وأن تدافعى عنـه .. وأخيرا ، الا تتخلى عنـه
مطلقا ، مهما يحدث ! » . وما كنت بحاجة إلى أن أعد ، ومع
ذلك فقد وعدتها . ولما وصل خطابك ، لم أتردد فى فضـه ،
وانى لأنوب عن أمى .. ومع أننى لا أضارعها ، إلا أننى أحاول
بكل قلبى .

« واعلم أن أمنا لم تكن تراك مذنبا ، وكذلك أنا .. وكذلك
أبونا ، وإنى لواثقة من ذلك . ولكنه قال لنا إن الضعف نوع
من الذنب ، وإن ذاك الذى كفلته أسرته فى سنى عمره الأولى ،
حتى بلغ مبلغ الرجال ، ليس حرا فى أن يجر عشيرته كلها إلى
الهوان بأعماله. على أنه لا يتحدث الآن عنك قط . ولكنى أوقن

أنه كثيرا ما يفكر فيك ، ويعانى من هـذا التفكير . فتذكره
بدورك يا موريس ــ كما تتذكر أمنـا فى مرقدها الأخير ــ إذ
أنه قد تغير .. وتغير كثيرا . لقد أدركه الهرم فى أيام قلائل .
وهو الذى كان يحتفظ بشبابه فى مشيته، وأساريره ، وصوته .
وهو يعمل دون هوادة ، إذ يجد فى العمل سلوى ونسيانا للمحن
أنه قد تغير .. وتغير كثيرا . لقد أدركه الهرم فى أيام قلائل ،
.. وقد وعدت بالا الومه على ذلك . وفى الوقت ذاته ، جدير
بك أن تعرف ما حل بنا جميعا ، ما دمت لم تتلق انباءنا منذ عام
.. فما يزال أبونا يتمتع بمكانته ، حتى أن أحـدا من عملائه لم
يسحب منه ثقته ..

« أما هوبير ــ الذى كان من حقه أن يمكث عامين فى فرنسا ــ
فقد حصل على إذن بالعودة إلى المستعمرات ، ورحل فى شهر
مايو الماضى قاصدا السودان، حيث يحتل بحاميته مركزا أماميا
فى داخل البلاد ، عند (سيكاسو) . وهو موقع معرض للأخطار،
ولكن هوبير هو الذى طلب أن يعين فيه . أما فيليسى فما تزال
فى مستشفى هانوى ، وهى شديدة القلق من اجلك . وقد روت
لنا أخيرا مصرع اثنتين من المبشرات البلجيكيات ، ذبحتا على
حدود الصـين .. وبدلا من أن تجـزع ، فانهـا مغتبطة
لاستشهادهما ، وآسفة لأنها لا تملك ان تجود بحياتها من أجل
ذاك الذى تدعوه « الابن الضال » ، وما أظنك إلا تعرفه !..
لقد ورثت عن أمنا تقواها العارمة . فليحفظها الله لنا فى مقرها
بالطرف الآخر من الدنيا !

« اما اسرة مارسيلاز فقد بارحتنا ، برغم توسلات جيرمين .. إذ أن شارل باع مكتبه ليتخذ مكتبا آخر فى (ليون) . وكان رحيلهم هذا قاسيا علينا ، وإن راى ابونا انه أمر معقول ، لأنه اتاح لزوج اختنا ان يصبح على مقربة من اسرته التى تقيم فى (فليفرانش) — كما تعرف — وفى ذلك نفـع له ! وقد قضوا الصيف معنا فى ضيعة البرج . وتوردت وجنات بيير وادريين ، وإن ظل الصغير جوليان — وهو احبهم إلى — شاحب اللون قليلا . على ان هواء (سافوا) اكثر ملاءمة له من هواء (ليون) الملبد بالضباب . ولذلك تركته جيرمين ليقضى الشتاء معنا . وهو يشيع الحياة فى بيتنا الذى خيم عليه الحزن ..

« وبهذا اختم عرضى للأنباء . لقد كانت أمنا — فى الماضى — هى مجمع اخبار الغائبين ، ومصدر انباء الآخرين لهم . وهأنتذا ترى اننى احاول ان احل محلها . اما ما بقى ، فسأذكره دون ما عتاب ، إذ يبدو لى ان هذا خير اسلوب . وسأفضفض لك فى البداية ، ولن تلبث ان تدرك ان شقاءنا هو شقاؤك . ولابد انك لا تعرف ما جرى عقب رحيلك مباشرة ، وإلا ما لزمت هذا الصمت الذى اضنانا . لقد رفع السيد فرازن دعوى ضدك — اجل ، ضدك انت — متهما إياك بسوء استغلال ثقته . وهكذا توصف الدعوى التى كانت موضوع لغط القوم . وهو يتهمك بأنك اخذت من خزانته مائة الف فرنك . وقـد ادعى بالحق المدنى ليجبر العدالة على تعقبك . وبما انك غير موجود هنا ، فقد صدر الحـكم عليك غيابيا . وسأشرح لك الأمر بنفس الكلمات التى استعملت : لقد رفض المستشارون إدانتك ، ولكن

موظفى المكتب — لا سيما السيد فيليبو — شهدوا ضـدك فى الجلسة ، وصرحوا بأنك كنت تعلم أن الخزانة كانت تضم المبلغ . ثم انك كنت آخر من غادر المكتب ، وكانت المفاتيح فى حوزتك ، كما كنت تعرف الأرقام السرية لفتح الخزانة . ومن ثم فقد قضى بإدانتك ، وبسجنك عاما ، مع مراعاة الظروف المخففة . ويبدو ان هذا هو الحد الأدنى ، إذ روعيت المؤثرات التى كنت خاضعا لها . ولكن عليك أن تفهم أنهم ادانوك .. وكان هذا فى الشهر الماضى ، ولم تكن أمنا على قيد الحياة . وعندما انبانى أبى ، كان وجهـه ممتقعا ، حتى أننى خشيت أن يصاب بضر ، ولكنه كظم أساه كعادته دائما .. وكنت افضـل لو انه بكى ، ولكنه ليس ممن يبكون ، بل هو يكتم آلامه . وهذا أسوأ ما فى الأمر ..

« ولقد الصق الحكم على باب بيتنا ، ونشر بالصحف . ويبدو أن القانون يقضى بذلك ! إن كل الخدمات التى اداها آل روكفيار السالفون للوطن ، لم تشفع فى تفادى إلصاق هذا الحكم على بابنا !.. وهناك كذلك المائة الف فرنك التى يجب أن تسددها للسيد فرازن . ومن رأى أبى أن يبيع الضيعة ليدفع المبلغ . وهو يقول إن مدة غيابك تثبت — لسوء الحظ — أنك افدت من هذا المبلغ ، وأن عملك — من وجهة الشرف — شبيه بالسرقة ! أما شارل ، فيرى عكس ذلك ، إذ يعتبر ان الدفع اعتـراف بذنبك ، وأن هذا ما يجب أن نتجنبه بأى ثمن . ولكنه لا يراعى شرف الأسرة ، ولذلك فإننى من رأى أبى . وعلى كل حـال ، فقد عينت المحكمة حارسا قضائيا أجرى تقسيم ثروة أمنا ،

ليحصل على حصتك. ولما كنت قد بلغت رشدى ، فانني طلبت
إلى أبى أن يسلمنى حصتى ، وهى التى أرسلها لك الآن. ولقد
دهش أبى لطلبى هذا ، ولا أدرى ما إذا كان قد أدرك الباعث.
على أننى عرضت عليه خطابك فأبى أن يقرأه ، وقال ما أنقله
لك بنصه : « لا .. إنه فى نظرى ميت ، ما لم يعد ليثبت
براءته ! » .. لذلك أضفت مائة فرنك لنفقات عودتك . فعليك
أن تعود .. وهانتذا ترى ما سببت لنا من متاعب : فباسم أمنا
التى كانت عودتك آخر رغباتها وآخر أوامرها.. وباسم والدنا
الذى طعنت قلبه ، هذا القلب البالغ النبل والحنان .. وباسم
فيليسى وهوبير اللذين يتألمان من أجلك .. وباسم جيرمين
وأختك الصغرى .. وباسم جميع أهلنا الذين لم يأتوا على مر
السنين سوى كل عمل مشرف ، والذين يستحلفونك الا تهدم
فى يوم ، عمل جيل بأسره .. باسم هؤلاء جميعا : عد ! إننى
أنتظرك ، وستجدنى دائما بجوارك ، وسأساعدك ، فاننى أثق
فيك .. فعد ، ومن الميسور إصلاح كل شىء بعد ذلك ، ما دمت
غير مذنب .. بل من المستحيل أن تكون كذلك ..

« واننى لأرى جليا — خلال رسالتك — أنك غير مذنب .
وحتى إذا كان ثمة خطر يتهددك ، فان عودتك واجبة ، لأن من
العدل أن تنال نصيبك من العذاب ، وما أظنك من الجبن
بالدرجة التى تجعلك تتهرب . بهذا أختتم خطابى ، وكم أرجو
أن أوفق إلى إقناعك . أما إذا كانت « هى » أقوى سلطانا منا
جميعا ، وإذا لم تر العودة فورا ، برغم كل تضحياتنا وآلامنا ،
فسأظل أنتظرك طيلة حياتى .. حياتى التى كرستها لأبينا

ولك ، فاعلم أننى لن أتخلى عنك قط . أفلم أعد أمنا بذلك ؟
لقد كنت أنت آخر من فكرت أمنا فيه ، فماذا أحزنك خطابى ،
فتذكر وصيتها لك بأن تكون دائما شجاعا ، وتذكر قول أبينا :
ما ضاع حق طالما أن صاحبه لم يمت ..

« وداعا يا موريس .. وأنى لأقبلك : أختك — مرجريت ».

* * *

ما كان أضأل الحزن والهوان اللذين استحوذا على موريس
— بعد اعترافات عشيقته الناقصة — إذا قيسا بذلك السيل من
العذاب الذى انصب عليه من رسالة مرجريت !.. وكيف يتحمل
الصدمة وهو الذى أصاخ لحظات لنداء الموت ، لمجرد شبهة
مشينة تمس الشرف ؟.. كانت البحيرة القابعة تحت قدميه
سادرة فى مناداته، تعرض عليه النسيان، والصمت، والسلام!
.. ومع ذلك فانه لم يرها إذ ذاك. فان نداء العشيرة أخذ يتردد
فى صدره ، وبدلا من أن يستسلم للضعف ، استجمع كل قواه
ليواجه النكبة التى أحاقت به . إن التفكير فى الموت أمر طبيعى
لدى العشاق إذا ما خامرتهم الشكوك فى خلود هنائهم . ولكن
موريس لم يفكر فى سعادته ، فهى شىء شخصى يتعلق به وحده
— وإن كان قد فكر من قبل فى أن من حقه الا يعيش إذا
فقدها — وإنما فكر فى أن أسرته بأسرها كانت مهددة ، ومصيرها
متوقفا عليه ، وإذ ذاك شعر بأنه لم يعد ملك نفسه ، وأنه
مرتبط بأهله — شاء أو لم يشأ — وأن العزلة التى ضربها حول

نفسه لم تكن سوى سراب وهباء . على أنه فى الوقت الذى نقد فيه خيال المحبين الأزلى الذى يصور لهم الحب عزلة تباعد بينهم وبين الناس جميعا .. فى هذا الوقت بالذات ، راح ينهل العزاء والراحة النفسية من ذلك التضامن الذى كان يفرض نفسه عليه فرضا ، كما ينهل الإنسان من معين طافح بالطاقة والنشاط !

وكان أقسى آلامه ، هو عجزه عن ان يبكى امه بحرارة وحرية .. وأن يبكيها وحدها . وشعر بحسد للأبناء الذين يتركون العنان لأحزانهم — أمام توابيت أمهاتهم — دون أن يتمالكوا انفسهم . الم تكن له يد فى هذه النهاية التى لم تجل بخاطره قط ؟.. وتذكر ان الطبيب لم ييأس من المريضة ، وإنما ذكر ان شفاءها كان يتوقف على إخلادها للراحة والهدوء ، فكيف كان لهذا الكيان الواهن أن يقاوم العاصفة ؟.. إن العاصفة التى اثارها قد اجتاحت « البيت » وقوضته ، وشتتت شمل الأسرة ، فرحل آل مارسيلاز ، وانطلق هوبير ينشد قسطا من الشرف لاسم أصبح مضغة فى الأفواه .. وها هى ذى الريح تحمل نذير الخراب ممثلا فى بيع الضيعة العريقة . ولم يعد فى البيت سوى ابيه المكتهل ومرجريت .. ولكن ، لماذا لم تتزوج مرجريت ؟.. اترى خطيبها كان من الخسة بحيث حاسبها على وزر غيرها ؟ إنها لم تتحدث قط عنه فى خطابها .. بل إنها نسيت نفسها ، وهى تعدد مصائبهم ، وكان كل ما قالته هو : « حياتى التى كرستها لأبينا ولك » ، ولم تشر بأية إشارة أخرى إلى تضحيتها . لم ينج من الكارثة شخص واحد ، اللهم

إلا المذنب الذى راح يتذوق كل ملاذ الحياة ، تحت سماء صافية !

ذلك لأنه وإن لم يكن مسئولا عن التهمة المشينة التى رماه بها السيد فرازن ، إلا أنه قد أثم فى حق أسرته عندما اعتقد أنه حر فى ان يخونها .. ولقد اتهم عشقيته التى كان تهورها من أسباب العار والخزى ، والتى كان حبها سببا فى دفعه إلى الحضيض . ولكن ، هل كان الحب حقا هو الذى هوى به إلى الحضيض ؟.. ذلك الحب الذى طالما اشتهاه فى شبابه الحافل بالعواطف المشبوبة والدراسة الدائبة ، والذى كان يهب على قلبه كتلك النسمات الشذية التى كانت آلات الموسيقى المعلقة على الأشجار ـ كما ورد فى الأساطير ـ ترتقبها لتمس أوتارها ؟ .. لقد كان يعزو إرهاف مشاعره إلى الحب ، كما كانت تعزى نغمات الأوتار إلى النسيم !.. ولقد كان يعزو إليه النضوب والاندفاعات التى كانت تعترى المعين الدافق فى أعماقه !.. وفى هذه الرحلة الخاطفة خلال حياته ، تذكر عينى اديث ، وفمها ، وحركاتها .. أجل ، لقد كانت نغمات قلبه ناجمة عن دلال هذه الحركات ، وعذوبة هذا الصوت ، واللهب المنبعث من تلكما العينين .. إنه قد يهجر هذه المرأة ، ولكنه لن يتنكر لحبه !

ومن ناحية أخرى ، ما الذى يأخذه على اديث ؟ هل دار بخلدها أن مأساة اليمة ستحيق بأسرة كاملة بسبب زلتها ؟ لا ، بكل تأكيد ! لقد استولت على تلك النقود كما تستولى على القلوب ، دون أن تفكر فى شر ، وإنما عن يقين بأنها تمارس حقا

من حقوقها . ولو أنه أفضى إليها بما حدث ، لتولاها الذهول ، ولما احجمت عن العودة معه إلى (شامبيرى) لتعلن امام القضاة ــ بأعلى صوتها ــ براءة عشيقها . ولكنه لم يكن راغبا فى هذا الكرم . بل كان من الافضل أن تظل دائما فى جهلهـــا ، والا تعرض نفسها لأى خطر . فهل يســافر الليـلة ؟ لا ، ليس الليلة ، وإنما غدا صباحا ، ودون أن ينبئها .. وبعد أن يكمل صداقتها غير المشروع فلا ينقص منه شىء ! ولكن .. ماذا يكون مصيرها إذا هجرها هكذا ؟ اما تزال عليــه واجبات نحوها ، وهى التى كان الحب جماع حياتهــا ؟.. وحاول موريس أن يتصور مستقبلها ، فاذا به يراها ممزقة القلب، مشتتة النفس، تلعنه ، ثم تعود فتبكيه ، تباعا.. وتشكوه إلى الغابة المقدسة، والهياكل ، وإلى كل شهود غرامهما . لسوف يساعد فعلا على تعذيبها !.. ولكنها ــ من ناحيــة أخــرى ــ كانت تمتلك فى نفسها موردا قويا : مرونة ، ورغبة جامحة فى الحياة تمكنها من المقاومة والصمود والبقاء على قيد الحياة ! الم يرها تقاومه فى وجل ، وفى ثورة ، عندما تكلم عن الموت ؟ واحس بقلبه يتلوى حين فكر فى انها قد تجد عشيقا آخــر ، وأن اللهب المتأجج فى جوانحها قد يدفىء يوما رجلا سواه .. فهتف لنفسه : « لا .. كل شىء إلا هذا .. لست أريد هذا ! » .

وكانت هــذه هى المعركة الاخيرة فى سبيل حبه ، وهو قد اعترف فى الواقع ، منذ اللحظة الأولى ، بهزيمته . فان موت امه ونداء اسرته ، والحكم المشين الذى صدر ضده ، لم تكن تدع له مجالا للاختيار ، ومن ثم لم يبق له سوى أن يدبر أمر

سفره ، بحيث يخفف من شقاء اديث ما استطاع !.. إنه لم يعد يبغى بقاء معها ، ولكنه كان يتعذب إلى درجة تكاد تدفعه إلى الأنين ، وهو يتخذ قرارا سريعا بفراقها !

وكانت اديث تنتظره على درجات سلم الفندق بصبر نافد ، فما أن راته حتى هرعت للقائه ، وغمغمت وفى لهجتها شىء من الشكوى ، لا التأنيب : « أخيرا ! » .. وحاول أن يبتسم قائلا: « نهار سعيد يا اديث » . وراحت تتفرس فى وجهه بكل حنان واهتمام ، فلاحظت آثار الدموع ، وإذ ذاك قالت : « لقــد اصبحت فى خوف دائم من أن تنأى عنى ! » .

ــ خوف من ماذا ؟ ــ من ألا تعود !

فهتف : « يا عزيزتى .. » ، ولكنها قاطعته مستأنفة حديثها فى لهجة جادة : « إننى اعرف أنك ستخرج فلا تعود يوما ما .. ألا قل لى إن هذا اليـوم لم يحن بعد ! » ، فصــاح : « كفى يا اديث .. لسوف اظل احبك على الدوام ! » .

ــ دائما ؟ ومهما يحدث ؟ ــ مهما يحدث !

وتناولت يده فرفعتها إلى شفتيهــا فى تبتل ، ثم قالت فى استحياء : « قيل لى إنك تلقيت أنبــاء من فرنســا ، هــذا الصباح » . فقال « أجل » . وإذ ذاك سألته : « وهل هى طيبة ؟ » . ووجد من الشجاعة ما مكنه من ان يومىء بالإيجاب .. اما وقد احتفظ بأساه لنفسه ، فقد أحس بأن هذا فراق بينهما فعلا . على أنها عادت تقول : « أما أنا فلا أرتقب أنباء قط .. إنك كل فؤادى وحيــاتى ! » .. وبينما تقدمته إلى



فدنا من السرير ، وانحنى متأملاً وجهها على ذلك الشعاع الواهن المتسلل خلال النافذة ..

الشرفة ، حيث وضعت مائدتهما الصغيرة فى وقاء من الهواء ، راح يسائل نفســه : « ترى هل لدى القوة على الرحيل ؟ ».

٤ ـ العــودة

كانت اديث فى فراشها ، وقد رفعت رأسها فوق خافة السرير ، واعتدلت لتتمكن من مشاهدة عشيقها وهو يسوى هندامه ، وقد وضع المصباح على الأرض حتى لا يسقط النور على وجهها . وسألته بصوت مثقل بالنعاس ، وهى لا تكاد تقوى على فتح عينيها : « لمــاذا تغادر فراشك فى مثل هــذا الوقت المبكر ؟ » . فأجاب : « لقد شبعت نوما .. وأوشك النهار ان يطلع » . واطفأ المصباح ، فانساب إلى الحجرة — بعد برهة — ضوء باهت تسلل خلال خصاص النافذة . وعادت اديث تقول : « أن الوقت ما يزال ليلا يا موريس » .. وإذ ذاك سألها : « الا ترين قبسا من النهار ؟ » .. ولكنهــا أجابت : « ما هذا بضوء النهــار ، وإنما هو نور القمــر » . فقال : « استأنفى النوم يا اديث ، فما يزال الوقت متسعا أمامك ».. فقالت: « أجل ، فإننى أحس بخمول .. خمول مستعذب ! ».. وتهالكت على الوسادة ، واغلقت عينيها .. وكانت تحتفظ بفتنة مثيرة ، حتى فى نومها ، فدنا من السرير ، وانحنى متأملا وجهها على ذلك الشعاع الواهن المتسلل خلال النافذة ، وهو يفكر : « إن هذا اللهب الضئيل المنبعث من عينيها ، والذى اذكى غرام حياتى .. هذا اللهب قد خبا ، بالنسبة لى . لن أعود أراه وهاجا .. بل إننى لا أرى جريان الدم تحت بشرة

وجنتيها ، ولا لمعان أسنانها مع أن الشفتين منفرجتان .. وأكاد أتبين بعناء شكل فمها ، وأنفهـــا ، وتلك الكتلة السوداء من الشعر الذى أشم عبيره .. أما جسدها فسوف أحرم منه ! » . وغلبه التأثر بدرجة طاغية .. كان كل شىء يغريه على البقاء .. وانحنى ، ومس جبينها ، فأحس بحرارته المذبة . بينما أشرقت على وجهها ابتسامة مبهمة ، وظلت عيناها مغمضتين .

وغادر موريس الغرفة ، فلم يلتق فى ردهـــة الفندق بغير صبى راح يتثاءب وهو ينظف الأرض . ولم يجتذب هندامه انتباه الصبى . وكان المتاع الذى حمله مؤلفا من حقيبـــة صغيرة ومعطف شتوى وعصا . وكانت أقصر طريق إلى محطة (أورتا) هى تلك التى تخترق (مون ساكريه) . وأخذ القمر يفقد تألقه أمام طلائع الصباح ، ويتسلل خلال الغابة فى خوف ورهبة . وكانت أشعته تنساب خلال جذوع أشجار الصنوبر الباسقة ، فتمتد إلى الأوراق الذابلة المتناثرة على الأرض ثم تستقر على واجهات المعابد . وحين بلغ موريس المعبد الخامس عشر ، كف عن السير ورفع رأسه ، فاذا الأعمدة الصغيرة الرشيقة تبدو بيضاء متباعدة ، وقد انعكست منها ظلال سوداء على الحائط . وصعد الشاب الدرج ، ثم استدار ليستوعب للمرة الأخيرة المنظر الطبيعى المألوف . وكانت حواف الآبار ، ومبانى بعض المعابد الظاهرة ، تتواثب حوله وكأنها أطياف . وتبين الجبال القائمة فى مواجهته ، وبعض أجزاء من البحيرة . ولم يكن فى وسعه أن يرى فندق بيلفيدير الذى كان المنحدر يحجبه ، مع أنه كان ينشده بالذات . وراح يحفر المنظـــر على صفحة ذاكرته : هذه الأحجار التى كان يركلها بقدميه ، والأشجار ،

والمعابد ، وكل هذه المعالم غير الواضحة لن تلبث الشمس أن تعيد إليها بهاءها .. لسوف يراها ماثلة بأكملها أمام عينيـــه ـ ما ظل محتفظا بذاكرته ـ لما كان لها من فتنة خاصة ، فكأنها المعالم الإضافية التى تحيط بصور أصلية لتميزها وتبرزها .. وكانت تلك الصورة الأصلية ـــ زهـــرة الشباب الفريدة ـــ ما تزال تبسط سحرها عليـــه ، على البعـــد .. وبدلا من أن يهرب ، وأن يمضى فى فراره دون أن ينظـــر إلى الوراء ، مكث جامدا فى ذلك المكان الذى كانت « هى » تحبه ، والذى جاءته ممسكة بالورود بين يديها ، فى اليوم السابق ، لعيد حبهما الأول .. اليوم الأخير فى عمر هنائهما !

لقد كانت نائمة فى غرفتها ، مستسلمة للخمول العـــذب . وعندما تنهض للحاق به ـ بعد ساعة أو اثنتين ، أو قبل ذلك ـ ستجد على منضدة الزينة خطاب النعى الذى يعلن إليها الفراق بكلمات حنون .. ولن تفهم الخطاب لأول وهلة ، ولكن الأوراق التى يضمها المظروف ستجلو لها الأمر . فهناك بيان حساب الفندق ، مؤشرا عليه بأنه دفع .. وبعض أوراق النقـــد ، وإيصالات بالمبلغ الذى أودع باسمه فى المصرف الدولى بميلان ، مضافا إليه الإذن المصرفى الذى أرسلته مرجريت روكفيار ، وقد حوله موريس إلى أديث . إذ ذاك ستدرك الانقـــلاب الذى انقض عليها ـــ فإن الأسرة التى تغلبت عليهـــا من قبل قـــد استردت منها حبيبها ! ـــ وستطلق صيحة ألم مدوية ، ولسوف يسمعها تتردد فى أعماقه ، مهما يكن بعيدا عنها !

وأخذ نور القمر يذوب فى ضياء الصباح ، ومرت ساعة

وموريس مستند إلى أحد الأعمـــدة ، يكاد يعجز عن ان يحمل نفسه على الرحيـــل ، وهو يقول لنفســـه : « من أين تراني استمددت الشجاعة على ان أحطم قلبها وقلبى ؟.. إنها ما تزال جد قريبة منى ، ولو أننى عدت إليها ، فلن تعرف من الأمـــر شيئا ، ولسوف تستيقظ فى لين ودعة . ولكن ، لا .. لن أراها بعد اليوم قط ، فهناك من الأواصر ما لا يستطيع الحب فصمها. إننى أدرك أن السعادة ليست حقـــا .. واننى لأعذب اديث وأحبهـــا . أما الأذى الذى الحقته بى ، فلم يكن عن طـــوع خاطرها ! إننى لا أذكر سوى أننى أحس الحياة فى قربها ، ومع ذلك فاننى لم أعد أقوى على العيش معها ! اديث ، أفتذكرين الماضى ؟ لقد أعطيتنى زهورا فى الليـــلة الأولى ، ثم منحتنى شفتيك الشبيهتين بالزهـــور ، فى غير ما تردد . وعندما قلت لى : « سأكون لك ، ولك وحدك ، عندما تشاء » ، أحسست مقدما بلمسات يديك الناعمة تتغلغل فى جسدى. آه ! إن الوجد الملتهب الذى يشوب لمساتك المدللة ، والألم الذى سينتابك بسبب خطئى أنا ، وضـــعفك .. كلهـــا تجعلنى ارتعد من المستقبل . فلا تظنى أن حبى قد نقص ، وأننى سأنساك يوما يا اديث.. إن هذا لن يخطر ببالى، بل إننى قد أزداد حبا لك!.. ترى أية ذكرى ستحتفظينها لى ؟.. لقد عاش حبنا بين خريفين، وأنك لتفضلين هذا الفصل الذى يتقد فيه إغراء الطبيعة .. لقد وجدت لونه الذهبى فى عينيـــك ، ووقدتـــه المحمومة فى احضانك ، حيث اكتشفت اللذة العارمة .. أما الآن ، فانى أرى الخريف ممثلا فى زهور الأقحوان فى مقبرة (أورتا) ، وهى تخفى الموت تحتها .. أجل ، الموت ، فهلا أدركت ؟.. إننى

لم اودعك ، فقد انتهى كل شىء . وهكذا الموت بالنسبة إلينا. لسوف تبكين ، وستتكلمين ، وستمشين ، وستكونين فى نظر الغير مخلوقا حيا طافحا بالدلال والشباب .. أما بالنسبة لى - أنا الذى لن أعرف عنك شيئا - فستكونين ميتة ! والحق أنه من الخير أن تكونى ميتة ، لأنك لن تلعنينى إذ ذاك ، أنا الذى أحبك ، والذى اضطررت إلى أن أذبح هوانا ذبحا ! » .

* * *

وانتزعه من اساه - الذى كانت إرادته تتبدد فيه رويدا - صفير قطار .. فهل تراه غفل عن الوقت ؟ لا ، لابد أن هذا هو القطار السريع القادم من (نوفار) ، والذى يسبق القطـــار الذاهب إلى (دومودوسولا) بدقائق . وقد جاء هذا التنبيه فى الوقت المناسب ليرده إلى عزمه ، فغادر المعبد ، واجتاز الغابة راكضا ، حتى بلغ المحطة وقد بدأ الصباح يشرق على القمم ، واخذ ضوء القمر يتلاشى فى الفضاء . وابتـــاع موريس تذكرة إلى (كوركونيو) - وهى محطة جد قريبة من أورتا ، ولكنهـــا فى اتجاه مضاد لمقصده - خشية أن تهتدى اديث إلى اتجاهه إذا حاولت اللحاق به !

وكان الخط الحديدى يمتد عبر البحيرة حتى مدينة (أومينا) ، فجلس موريس فى عكس اتجاه القطار - فى العربة - واتكأ على النافذة ليلتقط ببصره صور هذه الأماكن الحبيبة . وسرت فى مياه البحيرة رعشة خفيفة مع مقدم الصباح . ولاحت أشجار شبه الجزيرة فارعة ، وارفة .. هناك ذاق طعم السعادة !.. وغادر القطار مدينة (اومينا) ، فحاول عبثا أن يمـــد بصره

ليلقى نظرة أخيرة على (أورتــا نوفاريس) ، وأن يستوعب بعينيه وفؤاده هذا المنظر الطبيعى الذى كان يولى منه . وكانت الثوانى التى تزيد من ابتعاده اشـــبه بأحجار يلقى بهـــا إلى هاوية ، فيسمع ارتطامها حجرا إثـــر حجـــر !.. وإن هى إلا ساعة ، حتى بلغ (دومودوسولا) ، وهى مدينـــة إيطالية صغيرة ، تقبع على جبال الألب الكبرى ، وتشرف على نهـــر (توسا) السريع الانحدار ، الذى يصب فى بحيرة (ماجير) . ومن هناك كانت العربات ذات الجياد تنطلق لتربط بين إيطاليا وسويسرا ، مجتازة المنطقة العليا من ممـــر (سمبلون) . وكانت هذه العربات تقطع المسافة التى تفصل وادى (أوسولا) عن حوض (الرون) — وقدرها أربعة وستون كيلو مترا — فى اثنتى عشرة ساعة ، بفضل جيادهـــا القوية التى كانت تستبدل بانتظام على طول الطريق ..

ولم يتكبد موريس فى السفر — إلى (دومودوسولا) — سوى فرنكات قلائل . وكان الشاب قد أنفق معظم نقوده ، كى يرضى ضميره تماما نحـــو اديث . ومن ثم استعان بدليل الســـكك الحديدية ، فتبين أن السفر عن طريق (تورين) أبهظ نفقـــة . وبقليل من الحساب ، وجد أنه إذا دفع نفقات سفره فى الدرجة الثالثة من (أورتا) إلى (دومودوسولا) ، ومن (برييج) إلى (شامبيرى) ، فلن يتبقى له سوى ثمن ثلاث أو أربع وجبات متواضعة .. وهكذا تكون عودته « عودة الابن الضال » حقا ! وتحمل — فى غير تذمر — هذه الفاقة التى حشرته مع صـــفار العمال ، إذ اضطر لان يشاركهم مقاعدهم فى القطار . وكان

اهتمامه بهذه الصغائر يباعد بينه وبين اللوعة التى كان خليقا بأن يعانيها لو لم يجد ما يشغله .. فقد كان عليـــه أن يعرف الطرق التى يسلكها ليقتصد فى نفقات السفر ، وكان عليه أن يتجنب الفنادق الغالية فى (برييج) .. فوجد أن ثمـــة بيتين للضيافة فوق الجبل هما مأوى (سمبلون) ومأوى (سان برنار) اللذان كانا يستضيفان الفقراء من عابرى الجبال دون أجر. بل ان السياح أنفسهم لم يكونوا يتحرجون عن الإفادة منهمـــا . وكان جاره فى الرحلة من أبناء مدينة (بيمونت) ، فزوده بمـــا كان ينقصه من معلومات ، وقال : « إن الملجأ مفتوح دائما .. ليلا ونهارا ، ونهارا وليلا ! وفوق ذلك تستطيع الحصول فى الليل على حجرة فى الطابق الأول دون أن تستأذن أحدا ! » .

وهكذا هانت عليه مصاعب الرحلة .. فما كان عليه سوى ان يجتاز ممر (سمبلون) على قدميه ، وينام فى المأوى . لذلك بارح القطار فى (دومودوسولا) ، ومر فى أنفة بجوار العـــربة التى تجرها الجياد ، والتى كانت واقفة أمام المحطة ، حتى إذا امتلأت بالركاب لم تتأخر فى اللحاق به ، تجرها جيادها الخمسة بقوتها المـــألوفة . وكان موريس إذ ذاك فى بدايـــة الطـــريق الصاعدة إلى القمة ، فحملق الحوذى فى ذلك الشاب الأنيق الذى حمل حقيبته فى يده ، وانطلق دون أن يخشى على حذاءيه من أن يتلفهما السير ! ولـــوح الحوذى بسوطه فى الهـــواء ليسترعى نظر موريس ، ثم أشار بحركة رشيقة — كتلك التى تقدم بها باقة ورد إلى أحد السادة — وعرض عليـــه مكانا فى العربة ، فأجابه موريس : « شكرا .. إننى ماض على قدمى »

.. فصاح الحوذى : « هذا مستحيل .. هذا مستحيل على ساقى «السيد» ! ثم أنك ستتأخر كثيرا ، وأعتقد أن «السيدة» فى الانتظار ! » ولكن الشاب قال : «ليس هناك من ينتظرنى» . وإذ ذاك قال الحوذى : « آه ! هذا من سوء الطالع ، فما أحلى أن يجد المرء عند وصوله نارا مشتعلة ، وحساء ساخنا ، وامراة ! » . ثم جمع أعنة الجياد ، واستحثها ، فان هى إلا لحظات حتى غابت العربة عن بصر موريس .. وأصبح وحيدا ، فاستأنف السير ، صاعدا فى بطء . وقبل أن يبلغ دروب الألب الضيقة ، التفت يملى بصره بالابتسامات الأخيرة المنبعثة من الجمال الإيطالى الرائع ، الذى تجلى فى الوادى المتعرج — حيث يجرى نهر (توسا) — وفى المنحدرات المكتظة بالأشجار ، بل وعلى الحواف الجبلية الوعرة التى كانت تكسوها الأدغال الذهبية اللون .. كان منظر هذه البطاح — تحت الشمس — حبيبا إلى النفوس ، برغم مشاق الجبال الوعرة ! وكانت الفلاحات الساعيات إلى الكنيسة — إذ كان اليوم من أيام الآحاد — يحطن أعناقهن بمناديل ملونة ، تدلت أطرافها على ظهورهن ، كما ارتدين ثيابا مزركشة . وكن يبادرن المار بتحية الصباح فى بشر مس شغاف قلب الشاب ، فانتابه شعور بأنه قد قضى على نفسه بالنفى طواعية .. ألم تكن أديث وطنه ؟.. أديث ! لابد أنها استيقظت الآن وعرفت كل شىء !

وإذ تذكر ذلك ، أسرع فى مشيته لينسى فى الاجهاد لوعته! وقسم الكيلو مترات الأربعة والستين إلى ثلاث مراحل : الأولى

طولها ١٨ كليو مترا — وتنتهى عند (ايسيل) — والثانية طولها ٢٢ كيلو مترا — وتنتهى عند القمة — والثالثة طولها ٢٤ كيلو مترا وتنتهى عند (برييج) . وخطر له أن يتناول الغداء فى (ايسيل) ، ثم يسعى إلى القمة — التى ترتفع على سطح الأرض بألفى متر — فى موعد العشاء ، ويبيت هناك فى المأوى ، على أن ينحدر إلى (برييج) مبكرا ، فى صبيحة اليوم التالى ، ليتمكن من اللحاق بقطار لوزان وجنيف ، الذى يتصل بإقليم (السافوا) عند الحدود الفرنسية . وبهذا يصل إلى (شامبيرى) فى الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين .

أما (ايسيل) التى تقوم على مشارف سهل صغير مزدهر . فهى آخر قرية تسبق سويسرا — وفيها يحس الإنسان فعلا بأن عليه أن يودع إيطاليا محسورا ! — وهى مشيدة بشكل مستطيل على حافة طريق نابليون ، يحف بها جداران جبليان يتراوح ارتفاعهما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف قدم . ويكفى أن تتطلع إلى الخلف كى تبصر المروج الخضراء ، ومجموعات من الشجر كالباقات ، وما يشبه فجوة من نور خلال الجبال . ولم يكن ثمة ما يبعث الحياة فى القرية الصغيرة سوى جلجلة العربة التى كانت تبدل جيادها فى (ايسيل) ، وتوفر عملا لرجال الجمارك الذين كانوا بادى اليقظة والمهابة ، كأنهم جنود ، مما دعا إلى تسميتهم بحراس الأموال . إلى أن كان شهر أغسطس من سنة ١٨٩٨ ، فبدىء فى مد الخط الحديدى عبر جبال الألب ، فازداد عدد سكان القرية إلى أربعة أمثالهم بسحر ساحر ، وأقيمت مساكن للعمال ، و « فيللات » صغيرة ذات حدائق

للمهندسين ورجال الأعمال . وقد اجتمع كل هؤلاء فى شوارع البلدة فى يوم الأحد . فلما بلغها موريس ، كانت الأجراس تدق مؤذنة بالخروج من الكنائس .فاخترق موكب النساء العائدات إلى بيوتهن والمسابح فى أيديهن ، بينمـــا انصرف الرجال إلى لعب الكرة ، وتصاعدت من الحانات — مع أبخرة المطابخ — أنغام « الجيتار » و « الهارمونيكا » .

وتناول موريس غداءه فى مطعم حقير ، مقابل ثمن بخس . ومع اناس صاخبين ، صائحين . وبدلا من أن يستغل فرصة النهار للتعجيل بالرحيل — إذ كان الليل يحل مبكـــرا فى شهر نوفمبر — اخذ يتلكأ عن غير قصد ، وكأنه كان يؤثر البقاء وسط هذا الصخب المزرى على الوحدة .. أو كأنه كان عاجزا عن المضى فى اجتياز الحدود ، لأنه رأى فى هذا الاجتياز صـــورة مادية لانفصام عرى حبـــه .. الحب الذى كان مُعلقا به إلى درجة الجنون . وفى ذلك المطعم الذى تكاثف فيه الدخان — والذى كان الضجيج المنبعث منه يلهيه عن آلامه — خيل إليه أنه ما يزال على صلة باديث .. وإن بعدت !

وقبيل شـــلال (كوندو) الجبلى ، حيث تتدفق الميـــاه من مساقطها ، وجدالحد الفاصل بينالدولتين ، فلما اجتازه ، أحس بالظلام يطبق على فؤاده ، ولما بلغالمنطقةالضيقة التى يجب ان يجتازها بين صخرتين . ورفع رأسه فرأى فلولالشفق الوردى تتلاشى . وباغته الليل مبكرا — اكثر ممـــا توقع — فلم يتمكن من سلوك الطريق المختصرة التى تجنبـــه طـــريق (الجابى) الطويلة ، واضطر إلى سلوك هـــذه ، فبلغ قرية ســـمبلون

مكدودا ، فى ساعة متأخرة .. وهناك تناول عشاءه واستراح . حتى إذا استأنف السرى ، كان الظلام والصمت ينتظرانه عند نهاية القرية ، فاستقبلاه كما لو كانا رفيقيه الطبيعيين فى رحلته الحزينة . وأحس بأنه كان يؤدى واجبا لا مناص منه برغم كل الظروف .. أفلم يقتل بيديه هنـــاءه ؟ أو ليس على القتلة أن يكفروا عن ذنوبهم ؟

وكان موعد شروقالقمر قد حان .. على انه لم يظهر إلا حين اقترب موريس من القمة ، حوالى الساعة الحـــادية عشرة . وعلى ضوئه الزاهى ، الفى موريس نفسه وحيدا فى مكان مقفر موحش ، تحيط به الثلوج وكأنها تخلع على الأشياء كلها لباسا موحدا . ولم يكن يسمع حتى وقع قدميه ، بينما كان ظله يتبعه كرفيق مزعج ، يستطيل ، ثم يتضاءل .. ويختفى ، ليعود إلى الظهور . وقضى الشاب وقتا طويلا وهو يتطلع بعينيه نحـــو الأفق ، يستكشف المـــأوى ، وقد تقطعت انفاسه ، وتخاذلت ساقاه . أيكون قد مر به دون أن يراه ؟ لقد بلغ به الإعياء حدا لم يعد معه يحس تقدير المسافات ! ومع ذلك ، فما جدوى هذه الجهود التى كان يبذلها ؟ ما عليه إلا أن يترك نفسه ليهوى على جانب الطريق .. فعلى الثلوج يحلو النوم .. أو الموت ! وبهذا وضع حـــدا للتفكير ، وللمسير . وصـــاح بأعلى صـــوته : « اديث ! » .. وما أن رجع الصدى صـــوته ، حتى كف عن السرى منتفضا ، وقد خيل إليه أن أحدا كان يناديه .. الم تكن هى التى نادته مرة أخرى .. بل مرة أخيرة ؟.. إنه لم يعد يحس لقدميه وجودا ، فليدع نفسه تنساب إلى اديث فى هدوء ،

كما تنساب أشعة القمر فى الثلوج . وأصابه الاعيـــاء المفرط والبرد وخفة كثافة الهواء — واليأس ايضا — بهذيان . والذى يتوقف عن السير فى مثل تلك الحال من الإعياء ، يكون هلاكه مؤكدا ، ولا يقدر له أن يقدم قدما على أخـــرى ، إذ يغدو كآلة تحطمت تروسها . .

وهتف مرة أخرى : « اديث ! » ، ثم ابتسم . ولم يكن ثمــة الم ينتابه . . وكان من أسهل الأمور ان يجلس وينتظر . وكانت فى مواجهته — إلى اليمين — جبال (مونت ليونى) الثلجيــة ترسل وميضا مرتعشا ، وكان ثمة حركة تسرى فى كيانها !. . وخيل إليه أن الأفق كله كان يتحرك متقهقــــرا ، متطلعـــا إلى إيطاليا . . وبعث الاسترخاء فى نفسه شعورا مستعذبا ، ولكن غريزة البقاء ، أو لعله حب الاستطلاع ، أبقى عينيه مفتوحتين برغم هجوم النعاس عليهما . . إلا أنه لم يحس برغبة فى الاتيان بأية حركة . وخيل إليه — فى سكون الجبال — ان ضياء القمر والثلوج تتسع حتى لتملأ الفراغ كله ، وترقى إلى النجوم . وفى غمرة هذا الاستغراق ، اضطر إلى قطع تأملاته ، إذ هـــوت الحقيبة من يده دون وعى ، فأفاق من غشيته على صـــوت سقوطها . وفطن — حين أحس بعناء تحريك اعضائه إلى الخطر المحدق به . وقال لنفسه فجأة : « هل أموت هنا ؟. . وحيدا ، فى هذه القفار ؟ » . . إنه يموت ، يا اديث ، وهو الذى يظن انه راجع إليك ! » .

وغابت اديث عن خياله ، كطيف يغيب فى أعماق البحـــر ، ليحل محلها منظر البلاد التى نشأ فيها ، والهضبة التى تقوم

عليها المزرعة ، وأسرته . . وهتف لنفسه : «انهم ينتظروننى» ! . أفكانت ذكرى هذه السنين الأولى من حياته — التى حلت محل رؤى فترة الغواية والشهوات — تميمة سحرية ضد الموت ؟. . لقد خف شبابه إلى نجدته ، فاسترد شيئا من القوة والنشاط . واخذ يرفع قدميه — واحدة بعد أخرى — وكأنه ينتزعهما من وحل سميك غاصتا فيه . وسار ، أو بالأحرى جر نفسه جرا ، ليقطع مسافة لم تزد على بضعة أمتار . وإذ ذاك ، شعر بالخوف ، فصمد إزاء الخطر الذى أحس بوجوده إلى جواره ، يصحبه فى كل خطوة ، فى هذه العزلة ، كعدو يتربص مترقبا لحظـــات ضعفه وخوره . وكان يعرف أن ثمة أكواخا من الخشب اقيمت على جانب الطريق — بالقرب من القمة — ليلوذ بها السائحون إذا فاجأتهم العاصفة او الريح الزمهرير . . فبات كل مطمعه أن يعثر على احد هذه الأكواخ . وفى تلك اللحظة ، لمح فى أسفل (مونت ليونى) ضوءا خافتا ، لا يكاد يبين فى الليلة المشرقة . . ذاك هو الملجأ الصغير ، الملتصـــق بالجبل ، والذى ترك بابه مفتوحا ، بل ووضع عنده مصباح يرشد إليه . . إذن ، فقد كتبت له النجاة !. . ولم يحول بصره عن ذلك البـــريق المشجع . وما لبثت معالم المبنى ان ظهرت بوضوح ، فاذا هو مبنى كبير ، مرتفع ، من الأحجار الضخمة . .

وصعد اخيرا فى درجات السلم ، وولج المكان . وأعلن وصوله نباح انبعث من حظيرة نائية للكلاب . ولم يصـــادف أحدا فى الردهة التى كانت اشعة القمر تنفذ إليها . . فهـــل سيترك وحيدا مع قنوطه وهمومه ، وقد بلغ مرساة الأمان ؟ . . وهم بأن

يستلقى على الأرض ، لولا أن تذكر ما قاله له الرجل الذى كان
يرافقه فى القطار : « فالمرء — إذا ما جن الليل — يستطيع أن
يأوى إلى حجرة فى الطابق الأول ، دون أن يستأذن أحدا ! » .

وصعد إلى الطابق الأول ، فلجأ إلى أول باب ، ولكنه وجده
موصدا .. وعالج الباب الثانى ففتح، وإذا به فى حجرة بسيطة،
ولكنها مريحة ، ضمت سريرا ذا ملاءات نظيفة وغطاء كاف .
ومنضدة للزينة ، وأخرى ذات أدراج ، ومقعدين أو ثلاثة ،
وبساطا .. وابتسم مغتبطا بهذا الأثاث . وبدت المبالغة فى
الكياسة والكرم ، إذ كانت هناك زجاجة « روم » وكوب به
سكر ، وضعا بشكل يلفت النظر . وهدأ الشراب من روعه ..
وما أسرع نسيان الخطر لدى شاب فى الخامسة والعشرين من
عمره !.. وقال لنفسه فى غبطة : « كأننى فى بيتى .. ومع
ذلك ، فكأننى لص ! » . وتأهب ليستمرىء الحياة من جديد .
ولكن الفكرة جعلته يجفل .. كأنه « لص » حقا !.. ألم يحكم
بإدانته فى قضية سرقة ؟.. ونغصت عليه الذكرى العابرة
سروره ، فسارع إلى النوم . وبعث دفء الغطاء السميك فى
جسده حرارة عذبه . وكان التعب قد هده ، فواتاه النعاس فى
الحال ، دون أن يخطر له أن تلك أول ليلة يقضيها بعيدا عن
اديث ، وبعيدا عن إيطاليا ، منذ هجر منزل الأسرة !

* * *

واستيقظ فى اليوم التالى ، بعد الموعد المناسب للسفر إلى
(برييج) بكثير . وما أن علم رهبان بيت الضيافة بتطورات
رحلته ، حتى استبقوه فى رعايتهم يوما آخر . على أنه رفض أن

يستقل عربة البريد فى سفره ، وإن أبت عليه عزة نفسه أن
يبوح بالباعث !.. وقضى اليوم فى راحة ، وشبه نسيان .
وتولاه فى هذا المكان المنعزل ، القائم على ارتفاع ألفى متر .
مرح يشبه مرح الأطفال ، تخللته فترات مفاجئة وقليلة من الأسى
والوجوم . وراح يأكل كالوحش المسعور ، كما تمشى فى رحاب
بيت الضيافة ، ليخفف من التيبس الذى أصاب قدميه . وأخذ
يداعب كلاب الصيد — ذات الشعور الطويلة — وهى فى
حظائرها ، ويتأمل تأثير الشمس على الثلوج ، وتباين أشكال
تطع الجليد الناصعة الدقيقة . وتولته الرغبة مرارا فى أن يبقى
فى الجبل أمدا أطول ، ثم أوى إلى فراشه مبكرا . وما كان فى
وسع من يراه أن يتصور أنه قد فارق — منذ أمد وجيز —
أعز حبيبة ، وأنه كان فى طريقه إلى فرنسا ليسلم نفسه إلى
السجن !.. ففى غمرة الأحزان المتكاثفة ، تسوق إلينا
المصادفات واحات غير مرتقبة ، تعالج ما فى فطرتنا من ضعف
يعرقل صمودها للألم ، وتذكى غريزة حب البقاء الجامحة التى
تعضدنا على الرغم منا !

وغادر موريس بيت الضيافة فى الساعة الرابعة من صباح
يوم الثلاثاء ، بعد أن تناول قليلا من الخبز والجبن ، كان الأب
الراهب المكلف برعاية الأغراب قد أصر على أن يحملهما معه
إلى الغرفة فى الليلة السالفة ، ليكونا له فطورا فى الصباح .
على أن موريس رأى من الحكمة أن يحمل معه نصف هذا الزاد
من قبيل الحيطة ، إذ لم يكن مطمئنا إلى أن ما تبقى فى جيبه يكفل
له زادا بعد أن يدفع نفقات السفر . ولم يكن أحد من فى المكان

قد استيقظ بعد ، فرحل متسللا كما حضر ، وكان الباب مفتوحا على مصراعيه كما وجده ليلة وصوله. واستقبله الظلام - بدلا من القمر الذى كان يرجو أن يسير على هدى نوره - وأحس بالجليد متراكما على السلم وهو يهبط الدرج .. وكان مضطرا إلى أن يسير مسرعا ، إذ كان هبوط الجبل أقل سـهولة من صعوده . وعندما بلغ الطريق ، التفت ليتأمل المبنى الأسود فى الظلام .. وخالجه الأسف وهو يودعه !

وسار إلى المستقبل المجهول فى غير وجل ، وقد استرد ثقته بنفســه .. فقد سكب السـلام - المخيم على الجبل وعلى الرهبان - سكينة وطمأنينة فى قلبه ، دون أن يفطن . وانطلق بخطى ثابتة ليستعيد مكانه فى « بيت الأسرة » الذى أضلته عنه نزوة عارضة !.. كانت المصادفة التى يدين لها بنجاته قد ردت إليه - فى الوقت ذاته - صوابه .. وكان فى عودته إلى الحياة العادية ينهج نهجا خياليا جريئا - يتحاشاه سـواه عادة - ويستمرىء تضحيته فى حماسة وشغف !.. وكان الجليد قد تساقط ساعات طويلة خلال الليل ، إذ أن الطريق لم تكن ممهدة واضحة ، فواصل السير وهو يخشى أن يضل . واجتاز نفقين أو ثلاثة نحتت فى الصخر ، وكان الظلام فيها كثيفا ، حالكا ، حتى أنه ظن - عندما بلغ نهاية أحدها - أنه قد فقد بصره ، فراح يتلمس طريقه بطرف عصاه التى أمسك بها فى يده اليمنى ، بينما بسط ذراعه اليسرى إلى الأمام ، برغم أنها كانت تحمل الحقيبة ، ومضى يغوص مستنقعات الماء المتساقط من الصخر . وأدرك أنه بلغ نهاية النفق عندما أحس بالهواء البارد ، قبل أن يرى النور بفترة طويلة . على أن صعاب الطريق شحذت همته

.. ذلك لأن المحن شىء لا غنى عنه للشباب ، وهم إذا سعوا إلى الحب ، فإنما يسعون عن رغبة متأججة فى الحياة ، أكثر مما يسعون عن رغبة فى المتعة !.. وما أشبه ذاك الذى يهرب من الهناء بمتسول لا يأسى على فقدان كل النعم !

وهكذا راح موريس يكافح البرد والثلج والليل والخوف بجلد قوى ، فإذا الصراع يذكى فى كيانه حرارة الحياة . وأقبل نور النهار رويدا ، ولكن الشاب لم يفد منه كثيرا ، إذ كان الضباب الأبيض قد أحاط به من كل جانب ، كما يحيط البحر بالجزيرة الصغيرة ! وبدت له الطريق البديعة ، التى تكشف للبصر عن جبال الألب البيرينية ، وجبال (اليتشى) الجايدية ، والمرتفعات الرائعة المحيطة بوادى (الرون) .. بدت له هـذه الطريق وكأنها شقت وسط قطن متراكم . وكان يرى أحيانا شجرة من أشجار الصنوبر تهوى من مكانها تحت ثقل الصقيع ، وتستلقى على بعد عشر خطوات منه .. وفى غمرة هذه المناظر الرتيبة ، فطن إلى أنه وقد وصل إلى (برييج) ، خاتمة هذه المرحلة من كفاحه !

وقضى فى القطار يوما بدا طويلا مرهقا ، برغم اقترابه الحثيث من مسقط رأسه . وفى الساعة السادسة مساء ، هبـط فى (فيفبيه) ، وهى أقرب محطة إلى (شامبيرى) . فإن الخوف من أن تكشف شخصيته فيقبض عليه وهو يغادر القطـار فى البلدة ، أوحى إليه بهذا القرار . ومن ثم سار على قدميه فى طريق (اكس) ، فلما مر بأسفل هضبة (كالفيرى دى ليمنك) ، توقف ، وهتف متأوها : «أديث !» .. وفطن إلى مدى ما باعدت

هذه الأيام الثلاثة بينه وبين اديث .. ولما كان يحبها ، فقد اخذ يلوم نفسه على قسوته . ثم اقترب من الحاجز الذى كان مقاما على حافة الهوة الجاثمة تحت الهضبة .. وكانت انوار (شامبيرى) تتألق ، فاجتذبته . ولكنه قال لنفسه : « المقبرة ، ثم البيت ! » .. ومن ثم آثر امه بالزيارة الأولى ، ولكنه وجد دار الموتى مغلقة ، فلم يستطع أن يلجها . ثم سلك بعض الطرق الملتوية ، حتى بلغ البيت . وكانت ثمة ساعة تدق الثامنة .. وكان موريس مترورا ، جائعا ، فالى أين يولى وجهه إذا لم يوله نحو هذا المكان ؟

وضغط زر الجرس وقلبه يدق بعنف، ففتحت له الباب خادم جديدة . وبدلا من أن يدخل فى غير كلفة ، سألها بصوت متحشرج: « الآنسة روكفيار ! » .. فقادته إلى البهو ، وتركته. وفكر فى الهرب — تحت وطأة الذل والخزى — إلى اى مكان آخر فى الدنيا . اية قوة غريبة تلك التى راحت تدفعه دفعا حتى انتهت به إلى بيت ابيه ؟.. وما لبثت مرجريت ان اقبلت ، فارتمت عليه هاتفة : « انت .. أهذا انت يا موريس ؟ » .. وبينما كان يغالب البكاء ، قالت له : « إننى انتظرك منذ امس ! » .. وقادته إلى غرفة المائدة ، فاستسلم لرعايتها وهو محطم ، خائر القوى . ولم يكن غطاء المائدة قد رفع بعد العشاء ..

وسألها فى شىء من الوجل : « وأبى ؟ » .. فأجابت : « لقد احتبس نفسه فى مكتبه بعد العشاء ، وانكب على العمل ، بينما انهمكت انا فى تغيير ثياب جوليان الصغير .. سأخطر ابانا

بمقدمك ! » .. فهتف : « لا يا مرجريت .. لا تذهبى » .. وسألته فى دهشة : « لماذا ؟ » . ولكنه لم يجب بأكثر من : « لست أدرى » .. ثم تمتم بعد صمت ثقيل : « اترينه قد تغير كثيرا ؟ » .. فاجابته : « أجل » .

وكان جائعا ، ولكنه لم يقو على تناول شىء من الصحاف التى احضرتها مرجريت من المطبخ بنفسها . وأدركت ما به ، حين رأته مستغرقا ، فتسللت ثم ركضت إلى حجرة مكتب ابيها ، وصاحت به : « ابى .. إنه هنا ! » .. وكان السيد روكفيار منكبا على احد الملفات ، فنهض فجأة بحركة عنيفة . إلا انه تمالك نفسه مسرعا وقال : « لقد تأخر كثيرا » .. وهتفت فى ضراعة : « الا تقابله ؟.. إنه جد تعس ! » . ففكر روكفيار ، ثم قال فى عناء : « سأقابله غدا ، فى السجن ، لأدبر الدفاع عنه .. وليس الليلة ! » . وإذ أجهشت مرجريت بالبكاء ، ضمها إلى صدره قائلا : « أما انت ، فاعتنى به ، وإذا كان مكدودا فاسهرى على راحته . فلن يزج به فى السجن قبل غد ! » .

— الا أصفح عنه يا أبى .. من اجل خاطر امنا !

— آمل يا مرجريت ان يثبت يوما انه اهل لصفحى . اما الآن ، فلست اقوى على ان انسى بهذه السرعة ما الحقه بنا من ضرر برحيله .. إننى ارغب فى ان يدرك مدى هذا الضرر ويقدره ، فان هذا ضرورى لنا — بالنسبة لماضينا — وله ، بالنسبة لمستقبله !.. لا تبكى ، فانئى لم اكف عن حبه . بل إن عودته تثلج صدرى ! » .

ولقد غادر روكفيار غرفته فيما بعد ـ بعد ذلك بوقت طويل ـ متسللا إلى حجرة ابنه ، على أطراف أصابع قدميه . وحجب ضوء المصباح الساهر بيده ، ثم أنصت برهة إلى الأنفاس الخفيفة المنتظمة التى كانت تتصاعد من ابنه النائم. وإذ ذاك ، أضاءت ابتسامة رقيقة ذلك الوجه الذى عصف به الأسى .. وهتف الأب لنفسه : « ها هو ذا ها .. هذه هى النقطة الجوهرية . ولسوف أنقذه ، وأنقذ معه السلالة كلها ! » .

القسم الثالث

---

١ ـ رفيق الشدائد

عندما دخلت مرجريت إلى غرفة مكتب أبيها ـ كعادتها كل يوم ـ لتوقد المصباح ، وتسدل الستائر على النوافذ ، ولتخفف عنه همومه ـ قبل كل شىء ـ وجدته يتتبع هبوط الظلام السريع . وقال لها حين رآها : « أهذه أنت ؟ إن الضوء لم يكن كافيا ليسمح بالعمل ! » . واعتذر عن شرود ذهنه كما لو كان قد ارتكب خطأ . على أن مرجريت كانت تعرف سبب انشغال باله الذى لم يشأ أن يفصح عنه . وتساءلت : « إن هؤلاء السادة لم يحضروا بعد ؟ »

ـ إننى أنتظرهم من لحظة لأخرى .. لابد أنهم رأوا موريس فى السجن بعد ظهر اليوم .

ـ ومن الذى سيترافع ؟ ألعله الأستاذ هاميل ؟

ـ إن الأستاذ هاميل نقيبنا . ولما كان موريس مقيدا فى النقابة ، فقد طلبت من النقيب أن يتولى الدفاع عنه .. وهو تقليد مرعى . ومع أن الأستاذ هاميل يرعى مهنتنا ، بما يشرفها ، منذ نصف قرن ، إلا أنه يرى أنه قد تقدم فى السن ، وأنه تخصص فى مسائل القانون المدنى إلى حد لا يمكنه من تولى الدفاع فى هذه القضية . وهو يريدنا أن نكل هذه المهمة إلى الأستاذ باستار ، وهو أشهر من يترافع أمام محاكم الجنايات ، كما أن له فى الواقع تأثيرا كبيرا على المحلفين .

وحين سمعت الفتاة اسم باستار ، بدا عليها شيء من الامتعاض ، وقالت : « لقد سمعته وهو يترافع يا ابت . إنك تجيد الكلام خيرا منه ! » ، فتاثر المحامى الشيخ لهذه الإجابة وقال :

— إننى لا أجيد الكلام يا صغيرتى .. اننى أقول ما أعرفه فقط !

— لماذا لا تتولى انت الدفاع عنه ؟

— ماذا ؟ هذا مستحيل ! الا تدركين الأمر ؟

فتقدمت إليه ووضعت يدها على كتفه .. ثم اسندت راسها على صدره وتمتمت قائلة : « الم تصفح عنه ؟ » .

— إنه لم يسألنى الصفح !

— ذلك لانه يتالم !

— نعم ، ربما . إن القدر يضربه بقسوة ، ولكنه هو الذى استفز القدر !

— تذكر امنا !

فانحنى ليقبل جبهة ابنته قائلا : « لا تطلبى منى ان اكون ضعيفا يا مرجريت ! لقد زرته مرتين فى السجن ، فوجدته سادرا فى كبريائه .. ثم انه لم يعبر لى عن اى اسف لمسلكه الذى جلب علينا كل هذه الأضرار !.. إننى لا انتظر منه غير كلمة لاصفح عنه ، ولكننا لا نتبادل غير عبارات تافهة !

— إنه يبكى امنا عندما يكون معى .. أما معك فهو لا يجرؤ على ذلك !

— إن واجبى يقتضينى ان انتظره .. وسانتظره !

ولما كانت مرجريت مطأطئة الرأس ، فإنها لم تر العذوبة الحزينة التى انتشرت على الوجه الشائخ فخففت من صلابة أقواله . ورددت الفتاة قائلة : « إنه يتألم ! إنه تعس ! » . فقال السيد روكفيار : « ونحن ؟ السنا نتعذب ؟ ! » .. ثم رفع رأس الفتاة برقة ، وسألها بدورها — مغيرا مجرى الحديث : « ماذا فعلت بعد ظهر اليوم ؟ » . فأجابت : « لقد خرجت فى نزهة مع الصغير جوليان ، ثم كتبت خطابا مطولا إلى هوبير » .

— آه ! لقد كتبت له انا أيضا .

فلقد كان هوبير هو الآخر مبعث قلق لهما ، إذ تضمن آخر خطاب ورد لهما من السودان ، انباء عن إصابته بالحمى ، ومرضه فى كوخ منعزل دون اية عناية طبية . ومع أنه هو نفسه كان يهزأ من هذه الوعكة التى لا خطر منها ، إلا أن عبارة خاصة فى الخطاب — صيغت فى قلب وداع حنون ! — صدمت اباه وأخته وأحزنتهما حزنا عميقا .. ومن ثم صمتا وقد انقبض قلباهما . ثم اشعلت مرجريت المصباح لتطرد الظلام الذى كان يملأ الحجرة بطوالع الشؤم !.. وبينما كانت تسدل الستائر ، إذا بطرق على الباب ، فقال السيد روكفيار : « هاهما قد جاءا »

ولم يكن لدى الفتاة متسع من الوقت لتمرق منصرفة خلال الباب المؤدى إلى المسكن قبل دخول الضيفين .. بل إن أباها كان قد تقدم بالفعل لاستقبالهما .. ودخل الأستاذ هاميل أولا ، يتبعه الأستاذ باستار .

* * *

كان النقيب يتمتع فى نقابة محامى (شامبيرى) بمركز محترم ، فرضته سنه المتقدمة وغزارة مادته القانونية وحياته الوقورة . وكان شيخا فى الخامسة والسبعين من عمره ، نحيفا بحيث يكاد يتأرجح فى سترته الرسمية — (الردنجوت) — البالية ، التى كان يؤكد فى إصرار أنها ستبقى ما بقى هو على قيد الحياة . فاذا حل الشتاء ، لم يجد غضاضة فى ان يلتحف بمعطفه الذى بلى كماه . وكان يجلل وجهه الحليق تاج من الشعر الأبيض الأشعث ، كما كانت وجنتاه الشاحبتان تبدوان شفافتين . ومع ان قامته الفارعة انحنت كما تنحنى الأشجار الهزيلة التى تعبث بها الرياح ، إلا أن خلقه لم ينحن قط . فما استطاع شىء ان يجعله يحيد عن مبادئه الراسخة ، التى اعتنقها منذ شبابه وسار فيها مترسما تقاليد اسرته ! وكان فاتر اللهجة ، مترفعا ، ذا صوت آمر ، يظهر من الصلابة فى التمسك بمبادئه نفس القدر الذى يظهره من المجاملة فى علاقاته بالناس. وكانت عظمته تلك تتبدى فى الظروف العادية والظروف الهامة على السواء ، فلم تتأثر نفسه بما تعاقب عليها من رخاء وشدة .. على انه عرف الشدائد — على الأخص — فى سنى حياته الأخيرة ، وفى الوقت الذى يحق للإنسان أن يخلد إلى الراحة. فلقد جلبت عليه تصرفات ابنه السيئة وإسرافه ، الخراب ، فاستأنف الرجل عمله من جديد — ببساطة ! — ليكسب قوته اليومى !

على انه قلما كان يترافع فى قضايا ، إذ كان « المستشار » الذى يلجأ الناس إليه فيما دق من الأمور التى ما كان يبدى

فيها غير الرأى المتزن ، الصائب . ولم يكن يرى قط خارج مكتب استشاراته الصغير ، الحقير ، الذى كان يقصده الناس ليعرضوا على صاحبه — بصفة خاصة — قضايا الصلح والتحكيم ، كما كانوا يعرضونها على قاض عظيم !.. فإذا خرج ، ففى المساء ليذهب إلى الكنيسة بخطى لا تخلوا من السرعة ، وقد بدا عليه التأثر والخشوع وعدم الاكتراث بالعالم الخارجى ، مصغيا إلى صوت الله الذى كان ينتظر نداءه بصبر مستسلم .

وبالرغم من فارق العمر بين روكفيار وبين هاميل ، فقد توطدت بينهما صداقة من تلك الصداقات القديمة التى تدعم أواصرها الحياة المتشابهة والكفاح المشترك ، إلى الحد الذى يجعلها تتساوى مع صلات الدم !.. فقد تعهد هاميل نشأة روكفيار المهنية ، كما آزر هذا هاميل فى محنة انهيار مركزه المالى ، مناضلا ضد الدائنين، حاصلا على تأجيلات وإمهالات ، منظما على أحسن وجه عمليات البيع وسداد الديون . فلما أصيب ابن هاميل الأصغر — بدوره ! — بنفس الضربة ، كان أخوه الأكبر قد تخلص من متاعبه وخرج من ورطته ، إلا أن الأب كان قد بدأ يحس بالعجز وبرودة السنين .

وقد فرضت عليه شهرة باستار أن يضمه فى المكان التالى له . وكان هذا الشاب — فهكذا كان يحلو للمحامى الشيخ أن يدعوه برغم سنيه الخمس والأربعين — لا يكف عن مضايقته بنوع من القحة فى المناقشة ، وبنظرته إلى القضايا من زاوية اتعابها ! . أما فى ساحة المحكمة ، فقد كان مرهوبا كجيش مسلح !.. كان ساخرا لاذعا ، مستهزئا أو مغيرا ، يكيف صوته

كما يفعل اى مغن قوى الحنجرة ، وحركاته كأى ممثل بارع ،
ومن ثم أهله كل ذلك لأن يقوم بالدور الاول فى الجلسات !..
وبذقنه المرسلة ، وقسمات وجهه الدقيقة ، وصلعته اللامعة
— كاللافتات البراقة ! — واهتزازاته وارتعاشاته، كان يسيطر
على الجلسة كلها ، ثم ينتهى به الأمر إلى ان يطوى المحلفين
والقضاة والخصوم فى ثنايا ردائه الذى كان ينشره كالعلم !..
هذا التفوق الذى لا يمكن إنكاره ، والذى كان يتمتع به باستار
فى محاكم الجنايات ، كان من الواجب أن يوضع موضع الاعتبار .
وعلى هـذا ، وبالرغم من ان هاميل كان « خادم الحقيقـة
المطيع » ، الذى يكره بهرج الفصاحة وزخرف المظاهر ، إلا انه
آثر أن يطرح مبادئه الخاصة جانبا فى هذه القضية ، حتى يزيد
بذلك من الضمانات التى تكفل تبرئة ابن صديقه .

ومع ان روكفيار لم يكن من المعجبين بباستار ، وكان كثيرا
ما يتصدى له فى الجلسـات — فى غير هوادة — ليكشف عن
تمثيلياته والاعيبه بأسلوب سهل يتمثل فى الاتجاه مباشرة إلى
الهدف ، بسرعة الفرسان ، إلا ان ذلك لم يمنع باستار من ان
يخف إلى معاونته معاونة تفرضها الزمالة ، وسارع إلى قبول
الدفاع عن موريس بحماسة وإصرار !

* * *

وبعد تبادل المجاملات ، لخص النقيب الموقف فى بضع
كلمات :

— إنك تعلم يا صديقى العزيز أنى رجوت زميلنا باستار
أن يخف إلى معاونتنا ، بعـد ان بلغت من الشيخوخة حـدا

لا استطيع معه استثارة العواطف . وعلى هذا فسوف يترافع
هو ، على، ان اتولى انا مساعدته . وقد درسنا ملف القضية
معا ، ورأينا ابنك فى السجن ، إلا أن ثمة صعوبة تصادفنا .

فقال الوالد فى لهفة : « وما هى ؟ » .

— إن باستار يستطيع ان يوضحها لك افضل منى .

فهز هذا رأسه « الجميل » ! ولما كان يعلم انه لا فائدة من
اللجوء إلى العبارات الضخمة فى هذا المكتب ، فقد قنع بعرض
واضح مختصر : « نعم ، لقد درست ملف القضية . إن الدليل
المادى على إساءة استعمال الثقة ثابت من اقوال الموثق ومحضر
رئيس البوليس . اما انا فلا اجد ادلة ضد ابنك ، وإن كانت
هناك قرائن خطيرة : فقد كان يعلم بإيداع المبلغ ، وكان آخر من
ظل فى المكتب بعد ان حصل على المفاتيح ، وامكنه أن يكتشف
سر الخزانة الحديدية من مفكرة رئيس الكتاب التى كان الرقم
مقيدا فيهـا ، ولم تكن له موارد خاصـة كبيرة ، وكان يريد
اختطاف زوجة رئيسه . كل هذه الوقائع جعلوا منها مادة لإقامة
الدعوى . يضاف إلى ذلك : السفر إلى الخارج ، والتـزام
الصمت ، والعودة المتأخرة . ثم ان اقـوال المدعـو فيليبو
— خاصة — مملوءة بالمرارة والحقد ! ولابد أن تكون الغيرة قد
ملأت قلب هذا الشاب من زميله الذى كان مفضلا عليـه .
ويخامرنى الشك فى انه كان يحب مدام فرازن حبا يائسا . فقد
كانت امرأة لا تقاوم ! حقيقة أنها نحيلة ، ولكنهـا ذات عينين
جميلتين ! إن هذا النوع من النساء لا يستهوينى ! » .

ولما كانت نفس باستار قد صيغت من معدن رخيص، فانه لم يشعر بأن ملاحظته هذه كانت فى غير محلها ، وبأن وجود والد المتهم كان يفرض عليه ان يكون اكثر تحفظا !.. وبعد أن توقف برهة استأنف كلامه : « لا يكفى موريس أن يعلن انه برىء ، فما دامت السرقة قد وقعت ، فان المحلفين سيبحثون عن مذنب، ومن واجبنا ان نكشف لهم عنه . وقد لاحظت دائما ان الاتهام اقوى اثرا من الدفاع .. فهو يحول الاهتمام عن مكانه ليركزه فى مكان آخر . وانا استخدم هذا الأسلوب بنجاح دائمـا . امـا فى الحالة التى نحن بصددهـا ، فان المتهـم معين كل التعيين ! » .. وتناول مجموعة المواد القانونية وراح يقلب صفحاتها ، بينما كان مستمعاه يصغيان إليه دون ان يقاطعاه : اعلما أن مدام فرازن لا تتعرض لأى خطر .. فإن المـادة ٣٨٠ تحميها : « الاختلاسات التى يرتكبها الأزواج بقصد الاضرار بزوجاتهم ، والزوجات بقصد الاضرار بازواجهن .. لا يمكن أن تكون محلا إلا لتعويضات مدنية » .

فعقب الأستاذ هاميل قائلا : « إننا نعرف ذلك ! » .

ــ إن أفـراد الأسرة الواحدة لا يسرقون بعضهم البعض ومن ثم ليس فى إماطة اللثـام عن مدام فرازن ما يعرضـها للعقاب. بل هناك ما هو افضل ! إن إحساسى لا يخدعنى قط! لقد حصلت على عقد زواج فرازن ، إذ فكرت فى اننى لابد ان أعثر فيه على شىء . وقد حصلت على نسخة من العقد بوساطة أحد وكلائى فى (جرينوبل) ، فوجدت فيه الدليل على ان مدام فرازن ، بأخذها مائة الف فرنك من الخزانة الحديدية الخاصة بزوجها ، إنما ظنت انها تستوفى حقا لها !،

وفى هذه المرة ، تكلم روكفيار فقال : « إننى لا افهم ! » .. فقال باستار : « سوف تفهم .. فان الأمر من الوضوح بحيث يخطف الأبصار ! فلقد قرر فرازن لزوجته فى العقد ، منحـة قدرها مائة ألف فرنك » .. فتسـاءل روكفيـار : « فى حالة بقائها على قيد الحياة من بعده ؟ » .

ــ لا ، بل فورا ! ولكن كان من الطبيعى النص على إلغائها فى حالة الطلاق .. فان النظام الذى تم الزواج فى ظله هو نظام انفصـال الممتلكات . ولما كانت مدام فرازن تجهل القانون ، فقد افترضت انها تملك هذا المبلغ ، وانها بتركها منزل الزوجيـة يصبح لها الحق فى أن تأخذه معها . إنه تعليل سخيف ، ولكن لا عجب فهو تعليل امراة !.. ومن هنا افهم السبب الذى من اجله حرص السارق على الا يسـحب غير مائة الف فرنك ، من مبلغ المائة والعشرين الف فرنك ، الذى كان بالظروف. أن هذا ليس سرقة ، وإنما هو استيفاء حق .. وقد ظنت مـدام فرازن انها تباشر حقا لها !

فقال روكفيار ، مبديا اهتمامه بهذه الحجة الدامغة : « نعم ، ان العقد يفسر كل شىء ! » .. فبدأ باستار يتقـد حماسة ، ويحرك ذراعيه الكبيرتين ، قائلا : « إن هـذا معناه البراءة المؤكدة التى لا جدال فيها . فأى محلف يستطيع ان يصمد أمام دليل كهذا ؟ إننى لم احصل إلا فى النادر على امثال هذه الأدلة القاطعة ، امام محاكم الجنايات ! » .

فغمزه النقيب قائلا : « إنك لا تدافع دائما عن أبرياء ! » .

— ابرياء او مذنبون .. إن الذى يهم هو الدليل ، والدليل هنا فى ايدينا !

اما والد المتهم ، الذى كان يريد رد اعتبار ابنه كاملا ، فقد قال عندئذ : « إن العثور على العقد هو فى الواقع عنصر هام لصالح الدفاع ، وستعرف يا باستار كيف تستخدمه — بفصاحتك ! — احسن استخدام ، وبهذا يمكننا إحراز النجاح النهائى . ولكن ثمة نقطة الحف عليك بالرجاء فى ان تعالجها اثناء مرافعتك .. فان موريس لم يسافر وهو خالى الوفاض مع مدام فرازن ، إذ حمل معه اكثر من خمسة آلاف فرنك ، اقترض الجزء الاكبر منها، من شقيقتيه وعم ابيه اتيين وزوجة عمه مدام كاميل روكفيار ، الذين سيشهدون بذلك إذا اقتضى الأمر . وفى مدينة (أورتا) التى اوى اليها ، تلقى شيكا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك ، من شركة شامبيرى للتسليف ، التى يمكنها ان تقدم الكعب . وهذه البيانات ضرورية من وجهة نظر مزدوجة : فاولا ، هى ترد مقدما على اتهام جديد قد يلجأ إليه المدعى بالحق المدنى ، تاركا المادة ٤٨٠ التى تنص على إساءة استعمال الثقة ، ليتذرع فى هذا الاتهام بالمادة ٣٨٠ مكررة : « بالنسبة لجميع الأشخاص الآخرين الذين يكونون قد اخفوا او استخدموا لمنفعتهم الأشياء المسروقة او جزءا منها ، فان هؤلاء يعاقبون كمتهمين بالسرقة » .. ومن ثم يجب الا يكون هناك اى مجال للبس . وحتى إذا لم تكن هذه المادة موجودة ، فاننى ما زلت احرص حرصا اكيدا على حماية شرف ابنى من تبعة الاشتراك فى حياة لا يتحمل هو نفقاتها ! » .

فامن الأستاذ هاميل على ذلك بقوله : « حسنا جدا » . وردد باستار نفس العبارة ، ولكن بلهجة مغايرة . اما روكفيار ، الذى كان النضال قد الهب وجهه بإشراقة الأمل فى الخروج من هذه المحنة ، فقد لخص الموقف فى كلمتين : « الآن ، نحن مسلحون ، والنصر اكيد » .. فنظر إليه النقيب بعينين حزينتين كستهما الشيخوخة بزرقة باهتة ، وقال : « هل تراك نسيت يا صديقى الصعوبة التى حدثتك عنها فى بداية مقابلتنا ؟! » .. فعادت الكآبة إلى وجه روكفيار ، وقال : « اية صعوبة ؟ » .

وهنا عاد باستار يحتل مكان الصدارة الذى لم يكن ليتخلى عنه مختارا ، إذ قال : « هاك هى : إن خطتنا المحكمة ، التى لا يحتمل نجاحها اى شك فى رأيى ، قد تفشل بسبب عناد ابنك ! » .. فهتف الأب : « عناد ابنى ؟ » .

— تماما ! فقد اوضحنا له فى السجن قبل مجيئنا ما انتوينا فعله لإنقاذه .. أفتعرف بماذا اجابنا ؟

— آه ! اخشى ان اكون قد استنتجت جوابه !

— إنه يعارض بشدة فى ان يذكر محاميه اسم مدام فرازن ، وهو يهدد بانه سيلقى التهمة على نفسه فى الحال ، إذا حدث هذا .

فغمغم روكفيار فى صوت منخفض : « هذا ما كنت اخشاه ! » .

— لقد حاولت عبثا أن اقنعه بأن هذه شهامة (فروسية) مضحكة ، وان ذلك الدفاع لا يشهر بأى انسان ، طالما أن مدام

فرازن ليست معرضة لأية تبعات ، وما دام أن ما فعلته يعزى
إلى عدم خبرتها بهذه الأمور ، وإلى سوء تأويلها لعقد زواجها.
ومع ذلك ذهبت كل جهودى هباء ، إذ اصطدمت بعناد لا يقهر :

— وهل قدم لك أسبابا ؟

— سبب واحد : الشرف !

— إنه سبب من بين الأسباب !

— لا ، انهـا مجـرد عاطفة ! ولكن أمام القضاء ، يجب
الا ننظر إلى انفسنا من زاوية الشرف، وإنما من زاوية القانون !

اما النقيب ، الذى لم يحبذ هذه النظرية ، فقد عرض الأمر
فى شكل آخر ، إذ قال : « إن شرف مدام فرازن هو الذى يعنيه
بصفة خاصة ! ولكى يحافظ على شرفه هو يتعين عليه ان يقيم
الدليل على انه لم يسرق مبلغا من المال ، ولا انتفع من اختلاس
وقع من شخص آخر . ويمكنه إثبات الأمر الاول بتقديم عقد
زواج مدام فرازن ، وإثبات الأمر الثانى بالشهادة المحررة من
البنك الدولى بميلان ، حيث أودعت أموال مدام فرازن . ولكنه
يرفض بشدة تقديم هذه الأدلة ! » .

— وهل احطته انت علما بذلك ؟

— لقد احطته علما به ، وبانه يعرض نفسه لخطر جسيم
إذا مثل امام المحلفين وهو اعزل من السلاح !

— وبماذا اجابك ؟

— بأنه لن يدع قط مدام فرازن تتهم بأى شىء كان ، وبأنه
يحظر على المدافع عنه أن يلفظ ولو مجرد اسم هذه المرأة ! وقد

الفيناه مصرا على ذلك إصرارا لا يلين !.. وحين اعترض عليه
باستار بقوله : « إذن فقل لنا كيف تريدنا ان نضطلع بمهمة
الدفاع عنك ؟ » ، أجاب فى انفة : « كيف يمكن لإنسان أن
يتصور أننى مذنب ؟ فلينظروا من أية أسرة أنحدر ، ومن أنا ..
ويجب أن يكون فى هذا الكفاية ! » .

واستطرد باستار يقول ، وهو يربت ذقنه الجميلة فى رضى :
« أى ابن هذا ؟ إن شرف الأسرة حجة قوية من غير شك ، وفى
نيتى ان استفيد منهـا فى المحكمة ، ولكنهـا على أية حـال
حجة ثانوية .. فهى لا تمس صميم الموضـوع ، ولا يستطيع
الإنسان أن يتذرع بأقربائه فى المرافعة .. وإلا فلماذا لا يستشهد
بالأموات ؟ ! » . فأجاب الأستاذ هاميل بشىء من الخشوع :
« لو طلبنا شهادة الأموات لشهدوا لنا ! » .

— يجب الا ننسى أن هناك متهما. وسيبحث عنه المحلفون،
فاذا لم يكن هذا المتهم هو العشيق فسيكون العشيقة .. وإذا
لم يكن العشيقة فسيكون العشيق ! وفى يدنا الدليل على اتهام
العشيقة ، فكيف نأبى ان نقدمه ؟ إن هذا ضرب من الجنـون !
لقد حذرت ابنك يا زميلى العزيز من اننى لا استطيع قبول مهمة
الدفاع عنه فى هـذه الظروف ، وهأنذا أكرر لك الآن هـذا
القول . إنك تعلم جيدا مبلغ حماستى للاضطلاع بهذه المهمة ،
وبأية عناية سأتوفر على تأديتها . فاذا شلت حركتى ، فماذا
عساى أستطيع فعله ؟ إنك ترانى شديد التأثر من هذا القرار
الذى اتخذته ، ولكن من المستحيل على ان أتقدم إلى المحكمة
وانا مكتوف اليدين هكذا !

فمد الوالد التعس يده إليه وهو يقول : « إننى افقد معاونة ثمينة ، وقد تكون فيها نجاة ابنى . إلا ان الدفاع يجب الا يعوقه اى عائق فى سبيل تاديه واجبه ! » .. وبالرغم من انه لم تكن ثمة مودة متبادلة بين المحامين ، إلا انهما كانا متساويين فى درجة التاثر .. فليس عبثا ان يشترك اثنان فى مهنة واحدة ، وفى معارك واحدة ، وينشغل عقلاهما بمشاكل واحدة !

وقال الاستاذ باستار وهو يهم بالنهوض : « فلتذهب انت لرؤيته ، وقد توفق فى الحصول منه على ما لم نحصل نحن عليه ! » ، ولكن الأب قال : « لا .. لا اعتقد ذلك ! » . ولم يستمع المحامى لرايه ، بل مضى يتم حديثه : « فاذا افلحت فى إقناعه ، وجدتنى رهن تصرفك ، ويمكنك ان تعتمد على مجهودى الخاص . لقد قاربت الساعة العاشرة ، فاعذرنى ، لأن عندى موعدا خاصا ببعض الأعمال » .

فاقتاده روكفيار إلى الباب ، وشكره على عتبته قائلا : « لقد اختلفنا يا زميلى فى بعض الأحيان ، ولكننى لن انسى قط انك لم تضن على بإخلاصك وكفاءتك فى أحرج ظروف حياتى ! » .. فأجاب المحامى الكبير — الذى دهش لحب نفسه للخير : « لا ، لا .. فقد ظننك اننى ساوفق اكثر من قبل . إنها قضية مثيرة ! فلتقتنع ابنك ، وعندئذ أعود ! » .

وعندما عاد روكفيار إلى مكتبه ، وجد الأستاذ هاميل قد اقترب من المدفأة واخذ يحرك النار وهو شارد الذهن ، فجلس امامه . وظل الاثنان وقتا طويلا يفكران فى صمت . واخيرا قال

النقيب متابعا استطراداته السابقة : « إن صوتى لم يكن مجلجلا فى يوم من الأيام ، وقد حطمته السنون .. ولم اكن اعنى فى مرافعاتى بغير إظهار الوقائع ، دون استثارة العواطف ، ومع ذلك فسأكون هناك ، وسأقول بضع كلمات عن اسرة المتهم ، وعن المتهم نفسه . ولكن يجب أن يكون هناك محام اصلى ، إذ ليس فى مقدورى سوى مساعدتك فقط يا صديقى ! » .

ولم يذكر رايه فى مسلك موريس .. ومن المحتمل أنه لم يجد له تفسيرا . فقد كان يطوى نفسه على حذر — يقرب من الاحتقار — من المراة .. حذر كثيرا ما نلتقى به فى ختام حياة متقشفة منظمة !.. إن شرف امراة كمدام فرازن لم يكن يساوى فى رايه كل هذه الرعاية . وقد روى عنه هذا الحادث البالغ الحساسية : فى ذات يوم ، حيا امراة ذات سمعة سيئة ، فاستغلت المراة تحيته وراحت تزهو بها ، إذ كان رجلا مشهورا بالوقار . وعرف هو ذلك ، فاذا به يكف منذ ذلك الحين عن تحية كائن من كان فى شوارع المدينة !

وفى صوت مرتفع ، تساءل روكفيار — الذى كان اقدر من غيره على فهم ابنه : « ترى هل سيوفق المحلفون إلى استنتاج ما ينطوى عليه صمت موريس من النبل والشهامة ؟ إن هذا قليل الاحتمال ! » .. فأجاب هاميل مؤكدا فى وضوح : « إن هذا مستحيل . إن ابنك يلقى بنفسه إلى التهلكة ، فى الوقت الذى لا تدعو الحاجة إلى إنقاذ هذه المراة . ولكن ، اليس من حقنا ان ندافع عنه بالرغم منه ؟! » .

— وكيف يكون ذلك ؟

— إنك تعرف ، كما اعرف انا ، ان الدفاع إجبارى فى محاكم الجنايات . فاذا لم يحضر عن المتهم محام موكل منه ، كان على المحكمة ان تعين له محاميا يختاره الرئيس . فاذا عين الأستاذ باستار من المحكمة — ويكفى ان اشير على الرئيس بتعيينه بصفتى نقيبا — فانه سيصبح مطلق الحرية فى الدفاع ، ولو انه يكون معرضا لخطر الرد من موريس فى هذه الحالة !

— ولكن هذا الرد إن حدث ، فسيؤثر فى المحلفين تاثيرا سيئا !

— إننى لا ارى سبيلا آخر ، إلا إذا ..

وسكت الشيخ الوقور ، ولم تفلح استفسارات روكفيار العديدة فى إخراجه من صمته . وما لبث هذا الأخير ان تمتم : « إنها قضية خاسرة ! » .. وعندئذ نهض هاميل قائلا : « إنك تؤمن بالله مثلى يا صديقى .. فاضرع إليه يلهمك سواء السبيل! إن ابنك برىء ، ويجب ان يحكم ببراءته . إن غلطته الحقيقة لا تتصل بالعدالة الإنسانية .. فهى لا تضر احدا سواه .. وسوى أسرته مع الأسف ! » .

وتأهب للرحيل متجها إلى الباب ، ثم تراجع إلى الخلف وفتح ذراعيه لزميله فجاة . وافصحت هذه الحركة الفريدة عن عمق الحنان الذى كان مختفيا تحت الصرامة ، منذ عدد كبير من السنين .. كانت حركة مدهشة ، عذبة مثل التعبير الذى يرتسم نضيرا ، طاهرا ، على وجه امراة عجوز ، او مثل تلك الورود

التى تستمر فى النمو حتى عندما تغطيها الثلوج !.. وتعانق الرجلان عناقا مؤثرا ، ثم قال روكفيار لصديقه : « لست انت بالذى يمكن أن يتخلى عنا . شكرا لك ! ! .. فرد الشيخ : « إننى ما زلت أذكر افضالك ! » .. ووضع على كتفيه معطفه الذى كان كماه الفارغان يتارجحان ، ثم خرج إلى الردهة بخطى مسرعة ، بحيث وجد مضيفه صعوبة فى مرافقته حتى الباب الخارجى .

* * *

وعندما الفى روكفيار نفسه وحيدا ، جلس إلى المنضدة — التى طالما حلت عليها مشكلات مالية وادبية — ووضع راسه بين يديه ، ثم راح يبحث عن طريقة ينقذ بها ابنه الذى يكون فقدانه فقدانا للسلالة كلها !.. ولما كان اقل صلابة واكثر ترفقا وقدرة على فهم الحياة والناس من الأستاذ هاميل — المنطوى على مبادئه المتزمتة ، كما لو كان يعيش فى برج ! — فقد عرف فى تشبث المتهم بموقفه ، ذلك العناد وعدم التخلى عن المسئولية اللذين خلقا وشدا من ازر اسرة روكفيار جيلا بعد جيل !.. ولكن ابنه يستخدم تلك الصفات نفسها لتحطيم قوة الأسرة : فلكى يقيم صرح سعادته الخاصة، عرض للانهيار والتقوض ماضى اسرته ومستقبلها .. هذه الأسرة التى حافظ على صفاتها المميزة ، حتى فى الخطأ الذى ارتكبه !.. ولما كان الأب يجد فى ابنه إنسانا مجردا من الجبن والحقارة ، فقد فكر فى انه إذا قدر لابنه ان يحتل مكانه يوما ما فى الأسرة والمجتمع ، فانه لن يدع تقاليد الأسرة تضعف ، وسيوجه إمكانياتها

ومقدراتها ــ التى اساء استعمالها ــ إلى هدفها الطبيعى !.. ومن ثم يجب انتزاعه سليما من هذه النزوة ــ التى يأبى التخلص منها ــ مهما يكن الثمن ، « إلا إذا ... » ، واعاد روكفيــار التفكير فى عبارة النقيب الغامضة التى صدمته .. ترى ماذا يعنى هذا الاستدارك ؟

ورفع جبهته ، واستند بظهره على المقعد ، ثم نظر امامه . وتوقفت عيناه على خريطة المزرعة التى كانت معلقــة على الحائط ــ وقد ظهرت غير واضحة لبعدها عن دائرة الضوء المنبعث من المصباح ــ فاستعاد معالم هذه الأرض كما يستعيد ذكرى احــد اجداده أو ذكرى مستشار ناصح . وفى الوقت نفســه استعاد حجج باستار المنطقية المفزعة : « إن هناك سرقة وقعت . وإذن فهناك مذنب . نمن منهما ؟ إذا لم يكن هو ، فتكون هى . وهو لا يريد ان تكون هى . إذن فهو السارق ! » .. بماذا يرد على هذا التعليل البسيط بساطة عقول المحلفين الساذجة ؟.. وفجاة ، وبينما كان يحدق فى خطوط الخريطة المضطربة ، وثب إلى ذهنه خاطر كأنه البرق فى جنح الليل : « إذا الغينا وجود السرقة فلن يكون هنـــاك متهم ، وسيرغم المحلفون على الحــكم بالبراءة . ولكن كيف نلغى وجــود السرقة ؟ » !

وردت عليه « المزرعة » !

وبعد لحظات ، طرقت مرجريت الباب برفق ، فقــال : « ادخلى . إننى بمفردى » ، فسألته بعد ان دخلت : « والآن ، ماذا قررت يا ابى ؟ » .. فشرح لها المأزق الجديد ، الخطير ،

الذى وضعهم فيه موريس بعناده ، والذى يعرضه للإدانة ، وقال : « لقد تخلى عنا الأستاذ باستار . إنه يرفض الاضطلاع بمهمة الدفاع ! » .. فتساءلت مرجريت فى جــزع : « ومن سيدافع عنه إذن ؟ وعلى اى وجه سيكون الدفــاع ؟ » .. فأجاب : « لا تنزعجى يا صغيرتى .. فقد تكون لدى وسيلة ! » .. فتساءلت : « وما هى ؟ » .

ــ سأخبرك بها فيما بعد ، فدعينى اعمل التفكير فيها .. إنها تقتضينا تضحية كبرى !

فلمعت عينا الفتاة بلهيب حاد ، انعكست عليــه روحهــا الطاهرة الكريمة ، وقالت : « فلتسارع بهــا يا ابت ! » .. فتمتم الأب فى كبرياء : « يا ابنتى العزيزة ! » .. وابتسمت الفتاة لأبيها ابتسامة واهنة ، كتلك التى ترتسم على وجــوه الذين يعيشون فى شقاء وقتا طويلا ، ثم قالت : « لقــد كنت اعتقد دائما يا ابى انك أنت الذى ستدافع عنه ! » .

٢ ــ مجلس الأسرة

وقفت مرجريت عند مدخل غرفة المكتب ، بعــد ان تبينت وجود عدة افراد بداخلها ، وقالت : « هل تروننى متطفلة على مجلسكم ؟ » . فأجاب ابوها : « لقد كنت اوشك ان ادعوك ، إذ يجب ان تكونى بيننا » . وهنا صاح كهل اعجف ، احكم ازرار سترته ، واتكأ على حافة المدفأة حيث كانت النار تتأجج : « إن النساء لم يكن يستشرن فى ايامنا » . وإذا بسيدة على شىء من

البدانة ، ناهزت سن النضوج ، وارتدت ثيابا سوداء ، تجيب ــ
ـن المقعد الذى غاصت فيه ــ بحدة وعنف : « ومع ذلك ، فان
الذى عرض البيت للخطر لم يكن من النساء ! » .. على ان
النقاش لم يتجاوز تقرير مبدأ ، إذ ما لبثت الاثنان ان كفا عنه ،
ليرحبا بالفتاة فى حفاوة وبشر . وحيتهم مرجريت تبعا
لترتيبهم : اتيين روكفيار ، عم ابيها الذى كان اكبر سنا من
السيد هاميل ــ إذ كان يقترب من الثمانين ، وإن لم يحن عبء
هذه السنين ظهره ــ ثم زوجة عمها ، السيدة كاميل روكفيار ،
وابنها ليون ــ وكان من رجال الصناعة فى (بونتشارا)
بمقاطعة (دوفينيه) ــ واخيرا ، شارل مارسيلاز ، الذى كان
قد وصل فى ذلك الصباح .

وكانت السماء ــ فى الخارج ــ مكفهرة ، مثقلة بالغيوم ، تبدو
منحدرة نحو الحصن وكأنها تريد ان تنقض عليه فتسحقه ، بل
كادت لفرط انحدارها ان تمس البرج !.. وبدت غصون
الاشجار العارية من الأوراق كأذرع ممتدة تضرع للسحب .
ولم يكن يحتفظ بطابع الربيع الدائم سوى قمة برج المحفوظات .
وبالرغم من نوافذ حجرة المكتب الأربع ، فقد خيمت عليها كآبة
ذاك اليوم المقبضة ، فاذا خزانات الكتب ، واللوحات ، والمنظر
الطبيعى الذى رسمه «هوجار» ، تلقى على المكان طابعا حزينا
.. بينما صفت آخر اعداد المجلة القانونية على نضد صغير ،
إذ لم تكن قد جمعت فى مجلد واحد على نمط اعداد السنوات
السالفة . اما المنضدة الكبيرة ، المتخمة بملفات ــ كان احدها
مفتوحا ، وقد كشف عن مستندات قانونية وعقودا مدنية ــ

فكانت تنم عن عمل دائب لم تعرقله اقسى الهموم .. بينما
وضعت امام صورة مدام فالنتين روكفيار ــ ام مرجريت ــ باقة
من زهر البنفسج اليانع ، تدل على ان يدا نسوية تتعهدها
بالعناية فى كل يوم .

ورجا المحامى ضيوفه ان يجلسوا . وكان مطرقا براسه ،
وقد بدت عليه امارات التفكير . لكم اكتهل خلال عام واحد ،
فشاب الشعر الذى كان يتوج راسه وشعر شاربيه القصير
الحاد واحاط بفمه خطان غائران ، كما تخلل مقدم عنقه الناحل
خط متغضن ظاهر ، وكان تهدل وجنتيه واسمرار بشرتهما
يكمل هذه المجموعة من امارات التداعى ، التى لم تكن مرجريت
تشهدها دون ان ينقبض فؤادها .. فما اشد اختلاف هذا الرجل
الغارق فى افكاره وهو يجلس إلى تلك المنضدة ، من ذاك الذى
كان واقفا على التل ــ فى موسم الحصاد من العام الماضى ــ
وقد انتصبت قامته المتينة البنيان نحو السماء فى جلال !

وكانت دعوته إياهم إلى الجلوس هى الإشارة الوحيدة التى
نمت عن انه كان يفطن إلى وجودهم . ومن خلال اهداب عينيه
العميقتى الغور ، انبعثت تلك النظرة المهيبة التى يتعذر الصمود
لها ، والتى استقرت على الوجوه وكأنها تتغلغل فيما وراءها !
واكد بمسلكه هذا ــ قبل ان يتكلم ــ انه الزعيم ، وان المحن
لن تجد طريقها سهلة للنيل من قوة نفسه وعزتها . وتكلم اخيرا
قائلا : « لقد دعوتكم لان الأسرة تتعرض لخطر . ونحن جميعا
نحمل اسما واحدا ، ما عدا شارل مارسيلاز ، الذى يتخذ منزلة
الابن لانه يمثل جيرمين ابنتى . ومع ان فيليب وهوبير ابعد

من ان يستشارا ، إلا أن حياتهما حافلة بإنكار الذات والتضحية إلى درجة لا تستدعى وجودهما .. وإنى لأعلم مدى زهدهما فى الحياة ! » .. وهنا سألته مدام كاميل روكفيار : « الديك انباء سارة من الكابتن ؟ » .. كان الزى العسكرى لابن أخى زوجها يستهويها دائما ، كما أنها لم تكن تقوى على أن تفكر فى أكثر من شخص فى آن واحد ، لذلك نسيت كل شىء حين ذكر الضابط !.. وكانت مرجريت هى التى تولت الإجابة قائلة : « لم تصلنا منه انباء منذ أمد ليس بالقصير ، ولم تكن آخر انباء — قبل ذلك — طيبة ، إذ انه كان مصابا بالحمى » .

وعاد السيد روكفيار إلى حديثه قائلا : « لسوف تبدأ محكمة الجنايات جلساتها فى ٦ ديسمبر ، اى بعد ثلاثة اسابيع ، وسيقدم إليها موريس فى نهاية الدورة » .. فقال ليون — الذى كان فخورا بانه يدير مصنعا كبيرا وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، ومن ثم كان يحاول الظهور بمظهر رجل الأعمال الواقعى ، الذى لا يعبأ من الأمور إلا بنتائجها : « إنها مجرد إجراءات رسمية ، إذ ان البراءة اكيدة ! » . وإذا بكلمة «لا» تنطلق حاسمة من فم المحامى فتغلق فم الشاب . وارتجفت مرجريت ، بينما تبادل الرجال نظرات الدهشة والقلق ، ثم توالت اسئلتهم : « كيف لا ؟ » ، و « مادام غير مذنب » ، و « ما دامت السيدة فرازن هى المذنبة » . وكان شارل مارسيلاز آخر من تكلم ، وهو الذى ذكر اسم غريمة الأسرة ، فهتفت الأرملة — مدام كاميل — وهى ترفع عينيها إلى السقف : « يا لها من تعسة ! » .. قالتها وهى تشفق على سمع مرجريت

من ان يخدشه ذكر اسم المراة . فقد كانت تقسم النساء — ببساطة — إلى فريقين : شريفات ، وساقطات . ومع أنها كانت ترعى ملجأ للأطفال ، فانها لم تحاول — وهى تحدد هذا التقسيم — ان تبحث عن اصل اولئك الذين كانت ترعاهم ! وفى مهب تيارات الفكر المتحررة فى هذا العصر ، ظل أفقها فقط — دون حبها للخير ودون إخلاصها — محدودا !

واستأنف رب الأسرة حديثه قائلا : « إن البراءة ليست اكيدة ، بسبب قيود يفرضها ابنى على الدفاع . ولقد زرته مرارا فى السجن ، ولكنه لم يتزحزح قط ، فهو لا يوافق على ان نتولى الدفاع عنه ، إذا لم نتجنب ذكر اسم مدام فرازن ! » .. وثار رجل الصناعة ، ورجل القانون — شارل مارسيلاز — فصاحا معا : « هذا مستحيل . إنه معتوه ! » .. وتوالت التعليقات : « هذه خيانة ! » .. « ما ينبغى الإصغاء إليه ! » .. « فليكن ، دعوه ونخلوا عنه ! » . وكان ابن العم « ليون » — رجل الصناعة — هو الذى عاد فنصح بهذا الراى الأخير المنطوى على نذالة . فرمقه المحامى بنظرة امتزج فيها الغضب والازدراء ثم انقلبا فورا إلى الم مرير . كانت الأسرة فى حل من الأمر ، ما دام احد اعضائها قد نقض تضامنها . على ان اكبر افرادها سنا — العم اتيين — قال بلطف ، فى غمرة الصمت الذى ران على المكان : «اما انا فأرى أن موريس على صواب». وعلى اثر هذه الملاحظة غير المرتقبة ، استأنف الأستاذ روكفيار عرضه للأمر قائلا : « هذه المروءة من موريس قد يقدرها محلفون من ابناء الطبقة الوسطى فى المدن ، ولكن المحلفين من

الفلاحين الساذجين لا يفهمونهـا . وهم لا يحفلون فى المداولة بغير نقطة واحدة ، هى : اختفاء مبلغ مائة الف فرنك .. وهو رقم يذهلهم !.. إنهم أكثر اهتمـاما بالاعتـداءات التى تمس الممتلكات ، منهم بتلك التى تمس الأشخاص . ولسوف يتجـه فكرهم على هذا النمط : « لم يكن فى وسع أحد ــ غير الشاب او المراة ــ سرقة هذا المبلغ ، فاذا كانت « هى » السارقة ، فليقل لنا حتى نبرىء ساحته . أما إذا تركنا للتخمين فسنحكم عليه من جديد .. وإذا لم يجرؤ على اتهامها ، فهو إذن السارق » .. ذلك لأنه ليس لدى هؤلاء فكرة أخرى عن الشرف !

وهنا ردد ليون : « الشرف ! الشرف ! ».. كان ما خصه به المحامى من ازدراء واضح قد أثاره . وكان يرى وجوب تفادى اى حكم يشين الشرف ، قبل كل شىء .. ومن ثم أردف قائلا : « لست أرى أن المسـألة مسـألة شرف ، وإنما هى مسألة قانون ! » .. ورمقه اكبر آل روكهيار سـنا ــ بدوره ــ فى ترفع ، وتمتم بصوت انبعث كالصفير لخلو فمه من الأسنان : « إننى أرثى لك ! » .. فصاح رجل الصناعة ، فى غير توقير للسن : « ولمـاذا ؟ » ، فأجاب الشيخ : « لسبب واضح ، هو أنك لم تعد تفهم شيئا مما تعنيه بعض الكلمـات ! » .. فهتف الشاب : « تماما .. إنها كلمات .. مجرد كلمات جوفاء تلك التى تستخدمونها ! » .. وهنا ، أراد شارل مارسيلاز أن يوفق بينهم ، فادلى بهذا الإيضاح القانونى : « إن مدام فرازن مذنبة ، ولكن جريمتها لا تقع تحت طائلة القانون ، لأن السرقة التى تقترفها امراة للإضرار بزوجها لا عقاب عليها . ومن ثم

فان موريس لا يدفع بها إلى أى خطر حين يشى بها ، ولكنـه يقرر الحقيقة ! ».. ولكن العم اتين ــ الذى كان شبابه البعيد عاصفا ــ قال وكأنما قوله فصل الخطاب : « إن الإنسـان لا يفضح امرأة كان عشيقا لها لأى عذر من الاعذار ! إننى ادرك ابنك يا فرانسوا ! » .. اما الأرملـة التى كانت منـذ بداية الاجتماع تلوم ــ بصوت خافت ــ ابنها الذى أخذ عنها ذكاءها الرخيص دون طيبتها ، فقد رأت أن تناصره ضـد ذاك الشيخ الذى كان يبشر بمبدأ خلقى غريب ، فقالت : « أو تريدنا على ان نحترم هذه المخلوقات ؟ » .

وحسم زعيم الأسرة النقاش غير المجدى بحركة من يده ، قائلا : « دعونى أتم كلامى ، فاذا حانت اللحظة المناسبة فسوف أدعوكم للنقاش . إن موريس يعارض أى تشهير بمدام فرازن . ولسنا بصدد تحرى الخطأ أو الصواب فى رايه ما دام يتشبث به ، وما دمنا لا نملك شيئا إزاءه . وإذا نبذ الدفاع رغبتـه ، فانه سيتهم نفسه بدلا من أن يؤيد الدفاع ، مفضلا ان يتحمل عبء الجريمة ! وفى هذه الحال ، ما الذى سيحدث ؟.. هذه هى المسألة ، ولا مسألة سواها . إن المحلفين ــ إزاء واقعة السرقة المادية التى لم تواجه بإنكار ، وفى تأثرهم بضياع مبلغ كبير كهذا ــ سيبحثون فيمـا أتوقع عن متهم . فاذا ما كانوا مجردين من أى توجيه إلى مدام فرازن فلابد ان يتحولوا ضد ابنى . إما أن يعاملوه ــ أو لا يعاملوه ــ بمقتضى الظـروف المخففة ، فهذه مسألة ثانوية محضـة ! » . وهنا افلتت من مرجريت صيحة : « أواه ، يا ابت ! » .

— إن الخطر جد جسيم ، فهل تقدرون مداه ؟ على اننى فكرت فى انه قد تكون ثمة وسيلة لتفاديه .

فداخل الأمل مرجريت — التى لم يكن أبوها قد انبأها قبل الاجتماع بما يعتزم عمله — وصاحت : « يجب استخدام هذه الوسيلة يا ابت ، مهما تكبدنا ! » .

— ها هى : لقد لاحظت دائما فى قضايا سوء استغلال الثقة — امام محكمة الجنايات — ان تسديد المبلغ يشفع للبراءة . فان اهم ما يؤثر فى نفوس المحلفين هو ضياع النقود . فاذا ابعدتم هذا العنصر ، لم يجدوا داعيا لإدانة المتهم . فلا عقاب ما دام لا ضرر هناك .. ولا مدان إذا لم يكن ثمة ضحية !.. هذه الآراء مجتمعة تخامرهم فى العادة .

واستخلص زوج ابنة روكفيار من حديثه النتيجة : « اتراك تبغى ان ترد إلى الأستاذ فرازن المال الذى سرقته زوجته ؟ » . وأجاب روكفيار : « هو ذلك » . فصاح ليون : « مائة الف فرنك ! انه لمبلغ جسيم ! » . وسارع شارل مارسيلاز يقول معترضا : « ولكن فى هذا اعترافا بذنب موريس . فهو مذنب ما دام يدفع » . ولكن حماه قال : « لا ، إن الضامن الذى يدفع بدلا من المدين الأصلى لا يعتبر فى وضع المدين . ولسوف يبين موريس — على لسان محاميه للمحلفين — انه لا يبغى اتهام أحد ، ولكنه يريد ان ينأى بنفسه عن الشبهات . وإذا تسلم السيد فرازن المبلغ ، لم تعد هناك سرقة . أما ترك السيد فرازن يطالب بماله ، فمعناه الزج بابنى فى السجن ! » .. وهنا هز العم اتيين رأسه الشبيه برأس عصفور مجرد من

الريش ، وهتف محبذا : « احسنت يا فرانسوا » ، فدفع هذا التقدير الأرملة إلى ان تبدى ودها ، ومن ثم قالت : « لست افهم هذه الحيل والإجراءات ، ولكن الصيت الحسن خير من الغنى ! اننى معكم بكل قلبى يا فرانسوا » .. ولم يطمئن ابنها — وهو يصغى — إلا إلى كلمة « قلب » ، لأنها لم تكن تعنى اى التزام . وتبادل مع الموثق — شارل مارسيلاز — نظرة تحمل فى طياتها هذا المعنى : « إن هؤلاء المسنين يترفعون على الثروة ، مع انها هى وحدها التى تكسب الأسرات احتراما وتتيح لها الرفعة ! » . اما مارسيلاز ، فقد تولته الحيرة . وما لبث ان تساءل فى رفق : « وهل تملك ان تدفع مائة الف فرنك يا ابى ؟ » . فأجاب السيد روكفيار فى شىء من الخشونة ، وقد بدا الغضب يتولاه : « هذه مسألة اخرى ساعالجها فورا .. إنما نبحث المبادىء اولا ، ثم نعالج تطبيقها ! » .

على انه قلب ترتيب الحديث بنفسه ، إذ كان قد اتخذ قراره ، فقال : « سابيع مزرعة البرج إذا دعا الأمر ! » .. وكانت هذه اعظم تضحية ، ادركت مرجريت مبلغ ما فيها من بطولة ، فشحب وجهها . وتردد شارل موزعا بين الاحترام والمصلحة ، وبين الاعجاب والاستهجان ، وراح يبحث عن منفث لهذه المشاعر المتضاربة . وما لبث ان نال مجادلا على اثر غمزة ساخرة من عين ابن العم ليون : « تبيع المزرعة ؟! إن الوقت لا يتسع للبيع قبل ٦ ديسمبر ، وإلا بعتها بثمن بخس . إن المزرعة تساوى مائة وستين الف فرنك على اقل تقدير ، وبغير الغابات التى اشتريتها فى (سان كاسان) منذ أربع سنوات !»

.. ولا شك فى أن المحامى كان قد استعرض هذه المسألة اثناء البحث ، فقد كان متأهبا للإجابة ، وبادر قائلا : « هذا ميسور . وتبقى امامنا وسيلة اخرى هى القرض الرهنى » .

— أجل ، بفائدة قدرها خمسة فى المائة ، او اربعة ونصف .. خمسة فى المائة على الأرجح ، نظرا للحاجة الملحة التى لا يفوت رجال الأعمال استغلالها ، لا سيما وان الأرض لا تغل سوى ريع لا يكاد يصل إلى ثلاثة فى المائة ، كما ان سقوط الصقيع أو الجليد قد يكفى لإتلاف المحصول . إن لك من الخبرة يا ابى ما لا يجعلك تجهل أن القرض الرهنى — بالنسبة للأرض — مرض عضال ، قاتل . إن العقارات الثابتة أصبحت اليوم خطرا على أولئك الذين لا يعيشون فى أراضيهم ويفلحونها بأنفسهم ، أو الذين لم يؤتوا ريعا طيبا يستطيعون بفضله مواجهة تقلبات الظروف والمنافسة ..إن هذا يعرض المستقبل لنوائب لا سبيل إلى إصلاحها . ثم أن المزرعة هى تراث الأسرة .. التراث المقدس الذى يجب الا يمس !

وتركه السيد روكفيار يتكلم ، حتى إذا عيل صبره ، قال بصوت مرتفع : « ليس هناك من يفوقنى حبا للأرض ، وفهما لها ، وسماعا للنصح ، وكشفا لمواطن العلل التى تنتابها .. فانا الذى الام إذا نسيت شئونها ! ولكن عليكم ان تعلموا — إذا لم تكونوا تعلمون — أن فى ميدان الشئون الإنسانية نظاما قدسيا يجب احترامه . إننى أقدم التراث الأدبى والمعنوى على التراث المادى . فليس الميراث هو الذى يخلق مكانة الأسرة ، ولكن تعاقب الأجيال هو الذى يخلق الميراث ويصونه .

والأسرة التى تنزل عن املاكها تستطيع أن تسترد هذه الأملاك . اما إذا فقدت تقاليدها ، وإيمانها ، وتضامنها ، وشرفها .. وإذا هى انحدرت إلى مجرد جماعة من الأشخاص الذين تتقاذفهم المصالح المتضاربة ، والذين يقدمون مصالحهم الخاصة على رفعة المجموع ، فان الأسرة تستحيل إذ ذاك إلى مجرد جسد خال من الروح .. إلى جثة تفوح منها رائحة الموت .. ولن تستطيع اعظم الثروات أن ترد إليها الحياة بعد ذلك !.. من الممكن شراء الأرض ثانية ، اما فضائل السلالة فلا يمكن شراؤها إذا هى بددت . ولهذا فان ضياع مزرعة البرج اقل اثرا عندى من تعريض ابنى واسمى للعار . على انه لما كانت مزرعة البرج ملكا لأسرة روكفيار قرنا بعد قرن ، لم اشأ ان اقطع هذا الاسترسال الطويل العمر دون إخطاركم ، ودون استشارتكم .. فادلوا إلى بآرائكم — كل بدوره — فى إخلاص ، ولست اعد بأن احفل بها إذا كانت تعارض رايى . اننى زعيم الأسرة المسئول . ولكن اى قرار يحطم بضربة واحدة عمل عدة اجيال خليق بأن يعتبر قرارا خطيرا ، ومن ثم طاب لى ان احصل على تحبيذ من مجلس يمثل الأسرة ! » .

* * *

واظهر له الصمت الذى اعقب كلامه أن جلساءه قد ادركوا اهمية القرار الذى يوشكون أن يتخذوه . وتطلع إلى خريطة المزرعة المعلقة إلى الجدار ، والتى كانت تبين المساحات التى وسعت من رقعتها ، مع تواريخ عقود شرائها .. لطالما تأملها وهو يعد مرافعاته ، لا ليقرا عليها حدودا وارقاما ، وإنما ليتمثل

الغابات والحقول والكروم والعمل الدائب وجنى العنب .. كان
ذلك الإطار الضيق – الذى لم يكن تأبل معالمه السوداء عبثا –
يضم قطعة من الأرض ، ومن الجهود الزراعية ، ومن تعاقب
الفصول !.. وأشاح ببصره عن الخريطة ، ونظر خلال النافذة
فرأى تحت السماء المكفهرة حصن الدوقات الأقدمين – الذى
شيد على مهل فى كافة حقب التاريخ – وقد انهار نصفه ، وبدت
أطلاله الباقية مهيبة ، وكأنها تقوم على حراسة الماضى ..
كانت هذه الأطلال شهود عيان تفوق جميع المستندات ، وجميع
المحفوظات ، وجميع المراجع والتقاويم . وكانت تبعث فى ذهنه
– هو وحده – ذكرى (السافوا) القديم ، وعصر الجدود
والحروب الطاحنة ، بينما كانت قباب الكنيسة المقدسة تمثل
نزعات التقوى التى تعتمل فى القلب . ما الذى كان يتبقى من
الأموات – ومن أعمالهم ومشاعرهم – لولا هذه المعالم المادية
التى يتجسدون فيها ، والتى تذكر الناس بهم ؟.. وهذه المزرعة
– مزرعة البرج – التى طالما فلحت ، وأينعت ، واتسعت ،
واستصلحت .. أتراها كانت شيئا عديم القيمة فى مصير آل
روكفيار ؟.. وإذا هى فقدت ، أفلا تحرم السلالة من نقطة
ارتكازها ، ومن الدليل المرئى على استمرارها ؟.. إن الأجيال
– فى الأسرات التى تعيش على ملكية الأرض – تتناقل الفأس ،
كما كان العداءون القدامى يتناقلون الشعلة .. وها هو ذا آخر
زعيم للأسرة يترك الفأس تهوى من يده !

على أن المحامى رفع رأسه ، وقمع كل تردد . فما كان
التراث هو قوام الأسرة ، اللهم إلا إذا كان البرج هو مصدر

شجاعة المقدام ، والكنيسة هى مصدر تقوى المصلى !.. لقد
كان هوبير وفيليسى – فى غربتهما عن وطنهما ، فى السودان
وفى الصين – يحملان فى أطوائهما النشاط الحيوى والهمة
اللذين ورثاهما عن عراقة أصلهما . ولو أن موريس رجع إلى
الحياة العادية لكفر بعمله عن ذنبه . أما مرجريت ، فإن جذوة
التقوى والوفاء تذكو فى أعماقها . وما لبث المحامى أن وجه
الكلام لابنته ، بوصفها أصغر الحضور سنا ، ورغبة منه فى
أن يسمع منها صدى أفكاره : « أنت الأولى فى الكلام ! » .
فقالت : « أنا يا أبت ؟ كل ما تفعله أنت حسن ، فأنقذ موريس
.. إننى أضرع إليك ! فإذا رأيت أن بيع مزرعة البرج ضرورى
فلا تتردد فى بيعها ، إذ أننا لسنا فى حاجة إلى الثروة . وعلى
كل حال ، فأننى فى صفك ، وينبغى ألا تشغل بالك بى ..
فلست محتاجة فى عيشى إلا للقليل ، وبوسعى أن أقنع بأى
وضع ! » . فأمن السيد روكفيار على قولها : « كنت أدرك
هذا » . ثم ربت يدها فى لطف ، وهو يقول لابن أخيه :
« وأنت يا ليون ؟ » .. ولما كان سيىء الظن به ، فقد أردف :
« تذكر أباك ! » .

واصطنع الشاب مظهر الوقار الذى ينتحله الوصوليون
الناجحون ، إذا ما تأهبوا لأن يفضوا إلى الغير – دون مقابل –
بخطتهم للنجاح .. وخيل إليه أنه سيلقى درسا على هؤلاء
الكهول الذين يجهلون الحياة العصرية ، ليعلمهم أن الظروف
الجديدة فى الحياة تقوم على السرعة والأنانية والواقعية : « إنك
يا عمى من رجال العهود العتيقة الذين كانوا يبحثون عن
الحروب – من أجل المبادىء – فى كل مكان ، وينازلون طواحين

الهواء ! إن إفلاسك لن يجديك شيئا ، فانظر إلى الأمور من
ناحية إيجابية . إن موريس يشهر — فى هذه اللحظة — سلاح
الشرف ضدك ، فى حين ان شرف مدام فرازن لا يساوى مائة
ألف فرنك . إن ابن عمى الظريف يتظاهر بالشهامة فى السجن،
ولكنه لن يلبث ان يتخلى عن هذا التظاهر فى لطف إذا ما وقف
امام المحكمة !.. أننى لست محاميا ، غير أننى كثيرا ما قرأت
ما يقرؤه كل الناس فى الصحف عن الجرائم العاطفية ، فان
المتهمين دائما — لا سيما اكثرهم غطرسة — يميطون اللثام عن
شركائهم أو ضحاياهم ، ويشهرون بهم أو يتهمونهم ليبرئوا
أنفسهم . إن الخوف من الحكم هو بداية ركونهم إلى الحكمة .
وموريس ولد ذكى ، تواق إلى المستقبل ، ومن ثم فانه لن يلبث
أن يدرك مصلحته . فاذا قدر له الا يفهم ، فليتحمل مسئولية
إصراره ، آخر الأمر !.. ومن المحزن ان اقول هذا امامك
يا عمى ، وإنى لأعرب لك عن أسفى وحسرتى، ولكنه هو الذى
أراد هذا لنفسه . وانى لأعرف انك تحب الصراحة . ان الخطر
الذى يتهدده لا يحوم إلا حول شخصه. وتضامن الأسرة ما عاد
يجر الانحطاط على الجميع ، بسبب ذنب واحد منهم .. فتلك
كانت نظرية سخيفة دفنها عصرنا نهائيا فى أكفان الماضى . كل
مسئول عن نفسه . هذا هو الشعار الجديد . ولا يلزم احد
بديون الغير ، ولو كان هذا الغير أباه أو أخاه أو ابنه ! فالمال
الذى اكسبه إنما أكسبه لنفسى ! وكذلك حسناتنا وسيئاتنا .
ان لدى المرء من أعباء تدبير سعادته الخاصة ما يثقل عاتقه ،
فلا حاجة به إلى ان يحمل أعباء عشرين جيلا ! وبوسعك ان
تمنح موريس نصيبه من ثروتك مقدما — إذا شئت — ولكنك

جدير بأن تحتفظ لأخويه وأخواته بأنصبتهم ، وبأن تحتفظ
لنفسك بقوت شيخوختك . أما المزرعة فلك أن تبيعها إن
وجدت ثمنا مغريا ، ولكن .. لا لتبتاع بها رأفة
المحلفين ، وإنما لأن الأرض لم تعد ذات نفع إلا للفلاح الذى
يقضمها كما يقضم الفأر الخبز اليابس . إن المستقبل للصناعة
والآلات ، فهى بالنسبة له كالفرد بالنسبة للمجتمع ! » .

وعلى اثر هذا الخطاب ، اطلق اكبر الحضور سنا ضحكة
لاذعة ، وتمتم : « إنه يحسن الكلام .. صحيح انه يسهب ،
ولكنه يجيد القول ! » . واغتاظت الأرملة ، فضمت راحتيها
لتدعو الله .. بينما تساءل السيد روكفيار فى شيء من
الاستهجان : « هل فرغت من الكلام ؟ » . فأجاب الشاب :
« اجل » . فعاد المحامى الشيخ يقول : « إذا كنت قد فهمتك
حقا ، فانى اراك على استعداد لأن تلقى بموريس من حالق ! »
.. وقال الشاب : « معذرة يا عمى .. بل هو الذى يلقى
بنفسه ، وهذا الوضع يختلف عن ذاك . ولو أنه كان عاقلا ؛
لاستطاع ان ينجو بسلامته من براثن العدالة . ولكنه لا يريد
أن يكون عاقلا .. وأنا فى صف العقل دائما ! » .

واتجه زعيم الأسرة إلى زوج ابنته متسائلا : « وأنت
يا شارل .. أتراك من أنصار العقل كذلك ؟ » . فتردد مارسيلا
قبل أن يجيب : كان يحتمل بصبر نافد سمو مركز حميه عليه
وكان تفوق مكانة أسرة زوجته على مكانة أسرته يثير حنقه عن
كل مقارنة ، لا سيما بعد أن نقل أعماله قريبا من مسقط رأسه
ولما كان مجتهدا ومقتصدا ، فقد حرص على أن يعمل بحماس

من أجل مستقبل أبنائه ، ومن ثم كان يبدى غيرة فى حماية ثروته المتواضعة التى اكتسبها بعناء . ولقد استغرقه العمل ، فأورثه ذلك مرارة نفسية وصلابة . ولكنه كان يحب زوجته «جيرمين» ، وإذا كان قد اساء الظن ببعض تصرفات لها توحى بالترفع ، فما ذلك إلا لأنه كان محروما مما يدعوه للترفع ! ومن ثم فقد انحرف عن الموضوع الأصلى ، لينحى باللوم على الماضى ، قائلا : « لماذا يفضل موريس مدام فرازن علينا ، حتى وهو فى السجن ؟ إنه لسخف ، لا سيما وأنها غير معرضة لأية عقوبة . انه يغدر بالأسرة متذرعا بالشرف فى تعلل خاطىء !.. مائة الف فرنك ! الا ترى ان دفع مائة الف فرنك أمر يفوق طاقتك ؟ ! ليس من الواجب ان تقدم على المستحيل ! » فقالت مرجريت : « بل من الواجب عمل المستحيل لإنقاذ موريس » . وهنا قال السيد روكفيار الذى كان ينشد جوابا واضحا محددا : « مجمل القول انك أنت أيضا يا شارل تنصحنى بأن اتخلى عن ابنى .. أليس كذلك ؟ » .

وطاطأ الموثق الشاب راسه حتى لا يلتقى بصره بنظرات ليون الساخرة ، وتمتم فى خزى : « لا ، لست اذهب إلى هذا الحد » . فلما رفع راسه ، أدهشته النظرة التى كان والد زوجته يرمقه بها ، والتى تجردت من سطوتها المألوفة ، وبدت غامضة ، رقيقة ، ذات لطف غير معهود .. كنظرة المرء الذى يكشف ـ تحت بعض الحشائش الندية ـ المنبع المتواضع الذى يتدفق منه نهر سيال !.. وما لبث السيد روكفيار أن قال : « هذا دورك يا تيريز » . وكانت المرأة لا تصغى إلى أى قول

بعد أن ألقى ابنها خطابه ، ولكنها حين سمعت اسمها ، بادرت تلبية الدعوة . ولما كانت ذات فطرة ساذجة بسيطة ، فانها لم تزج بنفسها فى مناقشة المبادىء ـ التى كانت تطبقها فى حياتها دون أن تعرف لها كنها ! ـ وإنما عمدت مثل كثيرات من النساء إلى النظرات المتعلقة بالأمور الشخصية ، الأمر الذى ساعد على إقصاء الحلول المبهمة ، وعلى تبديد الضباب المتخلف عن المناقشات الفلسفية. ولم تكن قد استوعبت من كل الجدل سوى قول واحد ، ولكنه كان افضل الأقوال. وإذ كانت لا تقوى على مواجهة أكثر من فرد واحد بإجابتها ، لذلك وجهت خطابها إلى ليون ، غير حافلة بالباقين : « هل قلت إن كل امرىء مسئول عن نفسه ؟ لو أن عمك الجالس هنا اتبع هذه السنة يا بنى ، لما كنت اليوم تدير مصنعا يدر عليك مئات ومئات ! » .

فقاطعها الشاب وقد مس قولها اعتزازه بنفسه : « أتهزئين بى يا أماه ؟ » .. ولكن السيدة الطيبة كانت قد انطلقت ، فما من سبيل إلى إيقافها : « لا ، لا .. انك لتدرك تماما ما أريد قوله ، لأننى قلته لك من قبل . وإذا كنت قد نسيت ، فاننى اذكرك : كان ذلك منذ خمس عشرة سنة ، حين استثمر ابوك كل مدخراته فى المصنع الذى اسسه . ولما لم تصادف أعماله رواجا فى الحال ، فانه لم يلبث ان اضطر يوما إلى أن يتوقف عن دفع التزاماته . وكانت الصناعة إذ ذاك حديثة عهد فى البلاد ، ولا يثق بها أحد . فذهب ابوك إلى أخيه الأكبر ـ عمك فرانسوا ـ واطلعه على ما كان يتهدده ، فما كان من فرانسوا إلا ان أقرضه فى الحال ، وبغير فوائد ، العشرين الف

فرنك التى كان فى حاجة ماسة إليها ، إذ كنا مهددين بالإفلاس .. وهكذا تم إنقاذنا يا صغيرى !.. ومنذ تلك الساعات العصيبة ، تولد عندى ذعر طاغ من الفاقة . فليسامحنى الله ، إن الفاقة هى التى جعلتك انانيا ، سيئ النية ! » .. فاعترف ليون فى استياء وضجر : « حسن .. حسن ، إننى لم أكن اذكر هذا ! » .

ولكن مدام كاميل روكفيار كانت مفعمة الصدر بما لديها ، فلم تشأ أن تتراجع ، وهى التى اعتادت أن تنزل عن آرائها أمام حجج ابنها ، بعد مناوشات هينة . فان المرء إذا عاش إلى جوار غيره ، لم يفطن إلى نفسه . ومن ثم فان الدهشة تأخذه أحيانا — إذا اتاحت له الظروف العصيبة فرصة — حين يتبين انه فى عزلة . ويزداد هذا الشعور فى عصرنا ، جيلا بعد جيل ، بسبب تفكك الروابط العائلية ، وسرعة انتقال الآراء من مكان إلى آخر !

وتحولت مدام كاميل تقول لأخى زوجها : « لست قريبتكم إلا بالنسب يا فرانسوا ، غير أننى لا أنسى أننى أحمل نفس الاسم الذى تحملونه . ومن ثم فانى أضع تحت تصرفك عشرين الف فرنك ، إذا كنت بدورك فى حاجة إليها .. لست أفقه من أحاديثكم شيئا ، ولكننى أدرك أنك تعس . أما مدام فرازن فامراة عاجزة ! » .. وهتفت مرجريت : « لكم احبك يا عمتى ! » . فأضاف السيد روكفيار إلى حديث ابنته : « شكرا يا تيريز . من المحتمل الا أحتاج إلى هذا المبلغ ، ولكننى سعيد وأنا مدرك أن بوسعى ان أركن اليك إذا دعا الأمر » .

وحان دور العم الأكبر ، فأدلى برأيه فى بطء ، وبصوت واضح جازم ، كان يجد عناء فى إرساله أحيانا ، فيبدو كرنين جرس مصدع : « إن الأب هو خير من يحكم على ممتلكاته يا فرانسوا . فأنت وحدك المسئول ، ولست مقيدا بأحد . لقد كنت أنا الأخ الأصغر لأبيك ، وتيتمنا معا منذ صبانا .. وكان أبوك هو الذى كفلنا . وأرشدنا ، وساعدنا ، إذ كان هو الوريث وزعيم الأسرة . وكان المتبع إذ ذاك أن الفتيات لا يرثن سوى نصيب ضئيل ، إذ لم يكن الرجال يتزوجونهن من أجل الصداق . أما تراث الأسرة ، فكان يؤول إلى فرد واحد ، بكل تبعاته التى لم يكن الوريث يملك التخلف عن أدائها ، مثل تغذية ، وتمويل ، وتنشئة الصغار ، وكفالة العجزة والمحتاجين والمكتهلين !.. إن شباب اليوم يجهلون ما كان يعنيه الميراث ، وهو القوة المادية للأسرة .. لكل الأسرة ، مجتمعة حول زعيم واحد ، آمنة من العوز ، بفضل تماسكها . أما اليوم ، فما جدوى الاحتفاظ بتلك الضيعة ؟.. إذا أنت لم تبعها ، فسيتولى القانون تفتيتها .. فان التقسيم الإجبارى للميراث لم يترك مجالا للتراث العائلى .. بل لم تعد هناك أسرة بفضل مبدأ « كل مسئول عن نفسه » ، وبفضل تدخل الحكومة الدائم وتقاضيها نصيبها فى كل العقود التى تتصل بالحياة .. ولسوف ترى ما الذى يستطيع أن يحققه هذا المجتمع المؤلف من أفراد تستعبدهم الدولة ! » .

وارسل ضحكة استهجان وازدراء ، ثم اختتم كلامه قائلا : « ومع ذلك ، فانت على حق عندما تفضل شرفنا على أموالك . ومن الصواب أيضا أنك أطلعتنا ، فلقد كنا نتبعك فى رخائك ،

وإذا كان القدر قد ناواك ، فنحن لن نتخلى عنك . ولست أملك شيئا يذكر ، فالى جانب معاشى كمستشار ، لا أملك ســوى سندات تبلغ قيمتهـا خمســة وعشرين او ثلاثين الف فرنك ، استعين بريعها على الحياة . اما وقد اصبحت طاعنا فى السن ، فاننى امنحك إياها بعد موتى .. بل إننى امنحك إياها فورا ، إذا شئت ! » . فأجاب السيد روكفيار فى تأثر : « أننى لفخور بتأييدك يا عمى ، ومتأثر بتعضيدك . لسوف يهـون على اداء مهمتى الآن .. فان هذه التضحية بالمـال ستبرىء ســاحة موريس ، وهذا ما تؤكده لى خبرتى بالقضـايا . وما أظننى سأستطيع أن أنقذ المزرعة .. وهذا هو تفتيت ثروتنا ! » .. فقاطعه الكهل وهو ينهض : « ليس هذا من شأننا ! » .

ـــ بل ان من واجبى ان ابينه لكم ، حتى إذا خرجت مزرعة البرج يوما من قبضة آل روكفيار ، ادركتم ان هذا لم يتم دون الم ، ودون حاجة قاهرة .. فكونوا شهودا : إن مزرعة البرج تساوى مائة وستين الفا من الفرنكات ، كما ان غاباتى فى (سان كاسان) تقـدر بعشرين الفا .. وقد تسلمت جيرمين صداقا قدره ستون الفا من الفرنكات .

وهنا قال شارل مارسيلاز فى خجل: « هل يجب على ان أرد إليك هذا المبلغ كله او بعضه ؟ إنه مستثمر إلى حد ما فى أعمال المكتب الذى اتخذته فى ليون ! » .. وكان هذا السخاء يستحق من التقدير قدر ما صاحبه من أسف ، وندم ، وتردد . ومن ثم اجاب حموه : « لا ياصديقى ، فقد اصبح هذا المبلغ نهائيا ملكا لكما ، لا سيما وان لديكم ثلاثة اطفال .. ولقد رصدنا باسم

فيليسى ـــ حين دخلت الدير ـــ عشرين الف فرنك ، تستغل ريعها مدى الحياة . كما احتفظنا لمرجريت بصداق يعادل صداق جرمين .. وقد تسلمت من ريع هذا الصندوق ثمـانية آلاف فرنك ، أعطتها لأخيها » .. وحسب ليون المبالغ التى حصـل ـــ وسيحصل ـــ عليها موريس ، ثم قال بصـوت خافت وهو مقطب الجبين : « مائة وثمـانية الآف فـرنك .. انه لثمن غال ! » .. وكان ما يزال يجهل المبالغ الصغيرة التى اقرضتها أمه والمستشار الشيخ لموريس ـــ فى العام السابق ـــ والتى احتسبت من الديون المعدومة !

وقالت مرجريت : « تصرف فى صداقى يا ابى ، فاننى لن اتزوج ! » . وهنا قالت الأرملة : « إنما خلقت النساء للزواج » . ولكن مرجريت قالت فى إصرار : « إن لدى مؤهلاتى الدراسية ، وسوف اعمل .. سأنشىء مدرسة ! » .. فقاطعها العم الشيخ : « بالرغم من أن النساء لا يورثن ، إلا أننى ساحيد عن مبدئى هذا لصالح الفتاة .. وسأوصى لها بالأربعين فرنك بعد وفاتى » .. فقال ليون ـــ الذى كان يقدر خسارته ـــ يصحح له الرقم : « إنها ثلاثون الفا » .. ولكن الشيخ صاح وقد تخلى فى الضائقة المصبية عن شحه وتقتيره : « لا ، بل أربعون ! لقد كذبت الآن عن غير قصد ، وآخر قول هو انها خمسة واربعون الفا .. سأغير وصيتى يا فرانسوا لتصبح وريثى ! » . فقال هـذا متأثرا : « إننى اشكرك نيابة عن مرجريت يا عمى ، ولكننى لن امس صداقهـا ـــ الذى لا أراه كافيا لهـا ـــ إلا إذا بات من المستحيل على أن أبيع المزرعة بشروط مواتية . ذلك لأن بيع



وما لبث أن نبه أمه ـ وهما يهبطان السلم ـ قائلاً :
ـ إن الضامن هو الغارم دائمًا ..

العقار ـ إذا تيسر ـ خير من الاقتراض .. هذا ما استقر رأيى عليه ، فان غلة الأرض ضئيلة فى هـذه الأيام ، وقد أصبحت كرومنا وقمحنا معرضة لمنافسة شديدة من محصولات الأماكن النائية ـ بفضل سهولة المواصلات ـ بحيث لم يعد فى وسعنا أن نطمئن إلى دخلها . وإننى لأوثر أن أؤمن مستقبل مرجريت ، تاركا أولادى الذكور يكافحون فى سبيل رزقهم . وإذا أنا لم أبع الأرض ، فانها ستكون ذات نفع دائما ، كضمان للاقتراض » . وإذ ذاك قالت الأرملة مؤكدة : « ونحن أيضا نضمنك » . فأمن العم اتيين على ذلك ، قائلا : « تماما ! » .

* * *

وانفرط بذلك عقد مجلس الأسرة ، فحيا الحضور بعضهم بعضا فى صفاء ومودة ، ما عدا ليون الذى أبدى بعض الفتور . وما لبث أن نبه أمه ـ وهما يهبطان السلم ـ قائلا: « إن الضامن هو الغـارم دائمـا » .. فقالت فى حـرارة : « فليكن .. سأدفع ! » . وإذ ذاك ، قال ساخرا : « أنت .. ما أعظم طيبة قلبك ! » . فأجابته : « وأنت .. ما أجحدك ! » . فقال مبررا تصرفه : « إن ما حدث كان مع أبى ، لا معى أنا » . فتساءلت فى استنكار : « أولست وأبوك سواء » . ولكنه أجاب فى قحة : « لا ! » .

وقاد شارل السيد اتيين روكفيار فى عودته إلى داره . وظل المحامى مع ابنته وحيدين . وكان النهار قد بدأ ينصرم ، وخيم على الحصن وبرج المحفوظات ضباب كأنه معطف يلقيه الليل عليهما . ورانت على المكتب تلك الكآبة التى ترافق نهاية النهار

فى الشتاء ، فغذت مرجريت المدفأة بقطعة من الوقود . وقال
ابوها : « إننى مغتبط ، فقد انتهى كل شىء على خير وجه » .
وهنا قالت الفتاة محنقة : « إن هذا الـ « ليون » شرير خبيث
.. وإننى لأكرهه ! » . فقال ابوها : « ولكن امه طيبة
القلب ! » .

ولاذا بالصمت ، ثم تأملا معا خريطة المزرعة المعلقة على
الجدار . وبدلا من ان يريا الورقة المعتمة ، تمثلت لاعينهما
الكروم التى تسبغ عليها الشمس الساطعة لون الذهب ،
والحقول المحصودة ، والأرض المتأهبة للحرث ، والدار الكبيرة ،
العتيقة ، المريحة .. كانت هذه الصورة هى الصرخة المدوية
التى خالا انها تنطلق من التراث الذى قضى عليه بالضياع !

وفعلا ما كان موريس قد فعله من قبل ، حين أطل من أعلى
هضبة (كالفير دى ليمنك) قبل رحيله — وان صدرا فى فعلهما
عن نوع آخر من الحب ، لم يبتغيا من ورائه سعادتهما
الشخصية — فقد ودعا المزرعة !

٣ — صفقة رابحة

لم يكن من ضجة فى (شامبيرى) بأسرها سوى تلك التى
اثارتها الصفقة الرابحة التى عقدها الأستاذ فرازن !.. وكانت
هذه الصفقة من الموضوعات العامة التى دار حولها الحديث ، فى
الحفلة الساهرة التى اقامها السيد والسيدة « ساسيناى » ،
لمناسبة بلوغ ابنتهما « جان » عامها الثامن عشر . فقد كان من
خصائص المجتمع الريفى ، أن يصطحب الرجال إلى المجتمعات

ما يشغلهم ويهمهم من شئون الحياة العامة والعمل ، فلا يتخلون
فى أوقات فراغهم ولهوهم عن المتاعب التى يعانونها . ومن ثم
فانهم لم يلبثوا — بين رقصتين من رقصات الفالس — ان تركوا
السيدات يتنافسن فى إظهار اناقتهن ، وتجمعوا فى كافة
الأركان ليستأنفوا الحديث عن متاعبهم المالية ، وشواغلهم
المهنية . ثم تحولوا إلى المأساة العائلية التى هزت مكانة آل
روكفيار الاجتماعية العريقة ، والتى قد تقوضها بعد يومين —
وكانت الحفلة فى ٤ ديسمبر — حين تعرض القضية على محكمة
الجنايات . وكان الرأى العام متحمسا .. فقد كان ينقم على
هذه الأسرة : قوة نفوذها ، وعراقة أصلها ، وتفوق مكانتها ،
ومن ثم استبدت به الرغبة فى ان يراها تنحدر لتتساوى مع
غيرها !.. ولقد اثارته بوجه خاص ، تلك الكبرياء الصامدة ،
التى أبت — حتى فى النوائب — أن تئن وتشكو وتطلب العطف.
ولهذا كان الرأى العام يرقب نهاية المسرحية ، كى يرى
السقوط النهائى لسلالة كانت — فيما مضى — تعتبر بمثابة
زينة تزهو بها البلدة !

وكان بين المدعوين بعض رجال القانون والطب والصناعة ،
وبعض أصحاب الضياع ، الذين انتحوا جانبا فى حجرة
التدخين ، فلم يكن يسعى منهم — فى أول كل رقصة — إلى
الشابات والفتيات الجالسات فى قاعة الاستقبال ، سوى
افراد قلائل ، كانوا لا يلبثون أن يغادروا القاعة وكأنهم غزاة
مظفرون ينفذون من مكان محاصر ، ليعودوا إلى أماكنهم بين
الرجال . ولم يكن بينهم سوى شخص واحد يجهل الصفقة

الرابحة التى وفق إليها الموثق ، والتى كان البعض يؤاخذونه — والبعض يقرونه — عليها .. اما ذاك « الجاهل » فهو الكونت ديلا مورتيلليرى . وكان عذره فى ذلك ، انه كان يعيش فى القرن الرابع عشر ، لانهماكه فى دراسة تاريخ حصن الدوقات . ولقد حاول عبثا ان يحدث من كانوا حوله عن عبقرية « اماديه الخامس » الذى ابتكر — فى سنة ١٣٢٨ — انابيب من الخشب لنقل المياه من عين (سان مارتان) إلى مطابخ الحصن الواسعة ، حيث كانت تلك الأنابيب تصب فى حوض ضخم من الحجر ، كان مستودعا تربى فيه الأسماك لإعدادها لمائدة الدوق !.. ولكن احدا لم يصغ إلى ذلك الثرثار الذى كان يرجع إلى ما قبل عصره بستمائة سنة . وكان السيد لاتاش ، رئيس غرفة الموثقين ، يعارض — فى تفلسف وتكلف ولجاجة كان يظنها تليق بكرامة مهنته ومكانته — الموثق الناشىء كولانج ، الذى بدا معطرا — وقد نثر المساحيق على وجهه ، وحرص على تجعيد شعره ! — والذى تولى باسم « مدرسة الشباب » — او باسم الناشئين — الدفاع عن السيد فرازن..

وراح السيد لاتاش يقول مؤكدا فى وقار : « لا ، لا .. إن المجرم مواطن له حقوق المواطنين . وكان من الواجب انتظار حكم المحلفين قبل قبول التعويض عن الضرر المادى . او كان من الواجب على السيد فرازن ان يسحب شكواه ، بعد ان تقاضى التعويض ، فلا يجمع بين الكسب والانتقام ! » . فبادر الموثق الشاب يقول وكأنه يتاهب للنزال : « معذرة ، عفوا .. لنترو من فضلك ! لقد قدم السيد فرازن شكوى ضد موريس

روكفيار ، يتهمه بأنه اختلس مبلغ مائة الف فرنك للاضرار به ، وادعى لنفسه بالحق المدنى ، فعرض عليه الأب — السيد روكفيار — ان يرد هذا المبلغ قبل النطق بالحكم . فكيف تلوم فرازن على قبوله المبلغ ؟! » .

— لست الومه على القبول ، وإنما على مضيه — برغم ذلك — فى إجراءات الدعوى . كما اننى لا افهم السيد روكفيار !

— آه ! إنه يعلم ان ابنه مذنب ، وهو يشترى بعمله عطف المحلفين . اما فيما يتعلق بتصرف السيد فرازن ، فانه — نظرا لان الحكم بالإدانة امر غير مؤكد فى محاكم الجنايات دائما — قد آثر ان تكون لديه وسيلتان لبلوغ غايته . ومن ناحية اخرى ، فانه سيستغل دفع هذا المبلغ ليعتبره — فى الجلسة — بمثابة اعتراف . وهى سياسة قوية جدا !

— بل إنها سياسة مربحة ، قبل كل شىء ! اما السيد روكفيار ، فاننى ولو لم اكن أملك ان اشرح الدوافع التى حملته على هذا التصرف ، إلا انه فى الوقت ذاته — عظيم الحنكة ، بحيث انه لا يسلم سلاحا كهذا إلى خصمه دون أن يتخذ احتياطاته . ولابد ان الإيصال الذى طلبه قد تضمن انه وإن ادى عن غيره التزاما ، إلا انه لا يعترف قط بأن هذا الغير هو ابنه !

وهنا وصل المحامى « باييه » ، فاشترك فى النقاش دون أن يضيع دقيقة واحدة ، إذ قال : « إن الإيصال يتضمن هذا التحفظ فعلا ، وفى ادق صيغة قانونية ! » فصاح السيد

لاتاش مظفرا : « لقد استنتجت ذلك . وكان الأحرى بالسيد فرازن ان يدع الأمر رهنا بحكم القضاة ، بدلا من ان يقف موقفا يتعارض مع توقيعه على مثل هذا التحفظ ! » . بيد أن السيد كولانج ابى التسليم بالهزيمة ، فصاح : « وأى دليل يقوم عليه إيصال كهذا ؟ أنهناك من يدفع مائة الف فرنك عن شـــخص مجهول ؟ » .

واقر الحاضرون رأيه ، وتمتموا معربين عن تحبيذهم لهذا الرأى الذى كان يعنى ان مثل هذا الكرم لم يقدم فى الواقع إلا بدافع ضرورة ملحة . على ان نجاح الشاب كان قصير العمر ، إذ سرعان ما أخفاه المحامى « بابيه » كما يخفى الساحر كرة صغيرة .. فقد كان مرحا ، قصيرا ، بدينا فى تناسق ، لا يلم بكل شيء ، ولكنه يحشر نفســه فى كل مكان ، فيسيطر على الألباب . وقد قال إذ ذاك : « أرى انك تجهل الصفقة الأكثر براعة ، التى عقدها السيد فرازن » .

— هات ما عندك — آه ! آه !

واستحوذ على اهتمام الحضور بالنبأ الذى يحمله ، ثم انتهز فرصة شروع الفرقة الموسيقية فى عـزف إحـدى المقطوعات الراقصة ، وترك فى غير اكتراث مستمعيه المأخوذين ، وأسرع — ككرة تتدحرج ! — إلى إحدى السيدات تدعاها للرقص .
ولما لم يكن لدى أولئك السادة ما يصنعونه ، فقد راحوا — خلال مصراعى الباب — يرقبون الراقصين ، متظاهرين بعدم الاكتراث لما سـمعوا ، مصطنعين الإعجـاب بالراقصـين والراقصات الذين كانوا يتقدمون ثم يتأخرون ثم يتبـادلون

التحية ، ثم يدورون حول أنفسهم ، تبعا لأنغـام الموسيقى ، ونظام خطوات الرقصـة . وكانت جان ساسيناى متوردة الخدين ، وقد سوت شعرها بحيث بدا فى فوضى متناسـقة متعمدة ! وبدت أبهى ما تكون رشاقة ونضارة ، فى ثوب أزرق شاحب كشف صدره عن « زاوية » ناصعة راح النور يداعبها .. وانهمكت فى الحفاوة بجميع المدعوين ، وفى الإقبـال على المرح واللهو ، فأثارت بذلك تعليقات الكثيرين : « لا باس بهذه الفتاة الصغيرة ! » .. ولكنها غاية فى النحافة .. انظـر إلى ردفها ! » .. « انها لم تزل فى الثامنة عشرة من عمرها » .. « آه ! ولكنها لن تلبث أن تتزوج عما قريب » .. « ولماذا ؟ » .. « لأن لها صداقا ضخما » .. « هذا صحيح، ولكن شقيقها غارق فى الديون » .. « وممن تراها ستتزوج ؟ » .. لا احد يدرى بعد .. يقال انه ريمون بيرسى ! » .. « الخطيب السابق للآنسة روكفيار ؟ » .. « انه طبيب ناشىء » .. « حقا .. لم يذبح أحد بعد ! » .

وبعد الرقصة الأخيرة ، احس المحامى بابيه بتعب ، فقاد زميلته إلى المقصف ، حيث تناول قسطا من الشمبانيا ، وأكل شطيرة محشوة بالكبد الدسم ، وبذلك استرد نشاطه ، فعاد إلى الظهور فى الوسط الذى تركه يتقلب على جمر الفضول . ولكنه تفادى سخطهم بأن بادر ضاحكا : « لن تعرفوا شيئا إذا وبختمونى ! » . فصاحوا : « ها نحن منصتون إليك ! » . وإذ ذاك قال يستأنف الحديث السابق : « انكم ما زلتم عند نقطة قيام السيد روكفيار بدفع مائة الف فرنك إلى السيد فرازن »

.. فقيل له : « وانها لنقطة هامة ! » . ولكنه مضى قائلا : « بل
إنها اقل أهمية مما توشكون أن تعرفوه ! » . وما أن انبعثت
أنغام « البولكا » ، حتى أدار رأسه ، فظن القـوم أنه
يعتزم أن يغادرهم مرة أخرى فى غياهب حيرتهم ، ومن ثم اتجه
فريق منهم إلى الباب ، وقرروا أن يسدوا عليه الطريق . وقال
له السيد لاتاش : « انك تتصبب عرقا ، فليس من الحكمة أن
تعود للرقص » . بينما عمد الموثق كولانج إلى حيلة أخرى ،
إذ أبدى تشككا فى النبأ المنشود ، وإذ ذاك بادر صاحب النبأ
إلى فتح فمه ، فترك صيده يطير :

— إليكم النبأ إذن : لقد استولى السيد فرازن دون مقابل
على مزرعة البرج، التى تساوى ما يقرب من مائتى الف فرنك!

وهنا تعالت صيحات التكذيب والاسـتنكار : « ما هـذا
القول ؟ » .. « إنك تسخر منا ! » .. وكان المحامى باستار ،
والسيد فاليروا — المدعى العام — يتحدثان على حدة ، فاقتربا
وقد أرهفا سمعيهما .. بينما قال الخطيب : « بل إنها الحقيقة
.. دون مقابل ! » . وتعالى التساؤل : « وكيف حدث ذلك ؟» .
فأجاب : « إليكم الأمر : لقـد عـرض السـيد روكفيـار
الضيعة للبيع ، فى سبيل الحصول على المـال اللازم ، فعرض
عليه السيد دودان — الموثق ، والوسيط فى الصفقة — مائة
الف فرنك تدفع فورا ، على شريطـة الا يعلن إليـه اسـم
المشترى قبل اليوم الخامس عشر . واذكروا جيدا هذا الشرط
.. اليوم الخامس عشر ! ولما لم يكن لدى السيد روكفيـار
فرصة للاختيار ، قبل انعقاد محكمة الجنايات ، فقـد قبل .

وما كان يرجو خيرا فى مثل تلك المـدة القصـيرة . وحـدث
— بفضل ثرثرة أحـد الكتبـة ! — ان عرفت الآن ، وتوا ،
أن المشترى الحقيقى هو السـيد فرازن .. السـيد فرازن
الذى انفق مائة الف فرنك بإحـدى يديه ، ليقبضها باليـد
الأخـرى ، والذى يجد نفسه الآن بحيـلة بسيطة مالكا بغير
مقابل لضيعة فخمة ! » .

وكانت هذه السياسـة « المكيافيلية » تبز جميع الأسـاليب
الاحتيالية التى تعودها أبناء المدن ، فبهت الحاضرون .. ولم
يكلف أحدهم نفسه عناء البحث عن الحافز المعنوى ، ولا عناء
سبر غور تضحية السـيد روكفيار بهذا التراث العريق ! .
وكان السيد فرازن — فى المحنة الأليمة التى اجتازها ، والتى
هدمت بيته ، إن لم تكن قد أودت بثروته كذلك — قد ركز كل
مشاعره فى الأشياء التى ظلت بمنأى عن التأثر ، وهى اعماله ،
كالفنان الذى يستمد من فنه سلوى ، أو المرأة التى تنشد فى
الاحسان عزاء ! .. وعلى هذا كان تدبير العقود والأرقام يمده
بمنفذ يهرب خلاله من الأفكار المحزنة . ومن ثم تناسى — لفترة —
همومه بالانشغال بشـئون عمـلائه ، وبالرضى الذى كان
يستشعره فى إدارة معركة المصالح المادية . وقد أوحى إليه
مصير ضيعة البرج بواحدة من تلك الخطط البارعة الجريئة
التى لم يكن يملك ان يصد نفسه عنها . وكان يأمل فى ان يظل
السر مكتوما إلى ما بعد انعقاد محكمة الجنايات ، ولكن ..
اى سر ذاك الذى يظل مكتوما فى بلدة يقل عدد سكانها عن
عشرين الفا ، ومن ثم يعد كتمان الشئون الداخلية فيها بمثابة
بدعة مكشوفة ؟ !

وكان السيد لاتاش هو أول من عبر عن مشاعره ، إذ نطق بكلمات ثلاث كانت بمثابة خطاب كامل ، لصدورها عن رئيس غرفة الموثقين : « عمل غير سليم ! » . فرد السيد كولانج : « كلا ، مطلقا ! هناك أرض معروضة للبيع ، وقد اشتراها . وهذا حقه ! » . ومع ذلك ، فان المناورة الماكرة التى لجأ إليها السيد فرازن لم تلق سوى عدد قليل من التحبيذات ، انبعثت من معسكر الشبان الذين يوجهون اليوم تحمسهم – كما يوجهون أموالهم – نحو المشروعات المؤكدة الربح . ولقـد لقى السيد فرازن نجاحا كبيرا فى مشروعاته المـادية ، ولكن المتمسكين بالأخلاق وذوى الإدراك العملى من الحاضرين ، نقموا عليه هذا التصرف ، لا سيما وأنهم لم يغفلوا عن أنه جاء نتيجة فـرار زوجته . وفوق هذا ، فان انتماء الرجل فى الأصل إلى مقاطعة (دوفينيه) كان يبديه – فى نظر خاصـة المجتمع – أجنبيا ، يثرى بمثل هذه المكاسب على حساب بلدهم !.. حقيقة أن أحدا لم يأس لتدهور آل روكفيار – الذين كانت مكانتهم تثير حفيظة الطبقة الوسطى – ولكن القوم بهتـوا حين رأوهم يضاعفون بأنفسهم النكبة ، ويسحقون بأيديهم ما تبقى من أطلالهم .. إذ ما الذى يدعو إلى التفريط فى المـال إذا لم يكن موريس مذنبا ؟ فاذا كان مذنبا ، فما الداعى لتصرف ينطـوى على اعتراف ؟ ذلك لأن ما قرره الشاب كان أمرا مجهـولا ، إذ أن السيد هاميل كان شديد التكتم ، كما أن السيد باستار كان يلتزم فى صمته خطة مرسومة : فقد كان تواقا إلى القضايا ذات الضجيج المدوى ، وكان ما يزال يرجو أن يطلب عونه فى هذه القضية بالذات .

على أنه لم يستطع أن يكبح نفســه عن الكلام طويلا لفرط الانفعال .. وكانت الحلقة التى دار فيها الحديث قد انفضت نظرا لوصول مدعوين جدد ، واستؤنف الموضوع فى جماعات صغيرة تناثرت هنا وهناك ، كالنار يذكو لهيبها قبل أن تخمد نهائيا . وانضم المدعى العام فاليروا إلى السيد باستار فى ركن منعزل ، وبادره قائلا : « ها هى ذى مفاجأة بارعة تستغلها فى مرافعتك ، لتمطر زوج مدام فرازن بلذعاتك الساخرة ! » . فقال المحامى : « ليس من المؤكد بعد أننى سـأترافع » . فتساءل الآخر فى دهشة : « كيف ؟ ألن تترافع ؟ » . ومن ثم لم يجد المحامى بدا من إيضاح الأمر ، فأفشى السر دون أن ينتبه ، إذ قال : « إن هذا الشاب الغبى يأبى أى دفاع جدى ، خشية المساس بشرف عشيقته ! » .. وفـاه بالكلمـات الأخيرة فى سخريـة وازدراء ، ثم راح يشرح لرجل القضـاء المرهف السمع ، كيف كان المتهم يرفض مقدما كل إشارة تدين مدام فرازن .

— إذا لم تكن أنت ، فمن الذى سيترافع ؟

— ما زلت أجهله ، إنه السيد هاميل ولا بد .

ولم يخص النقيب باحترام يزيد على ذلك الذى خص به مدام فرازن ، إذ فضفض عن رأيه فى شيخوخة النقيب وعجـزه بالازدراء الذى ذكر به اسمه ! وبعد لحظات من الصمت ، قال السيد فاليروا : « إننى أفهم الآن تصرف السيد روكفيار ، فهو يلغى السرقة لينقذ ابنه ! هـذه فرصته الأخيرة ، ومن ثم لم يتردد فى التضحيـة بثروته . هـذا بديع جدا ! » .. ولم

يستسغ السيد باستار هذا الإطراء ، فندت عنه إشارة غامضة تحتمل شتى التأويلات ، ثم قال مستدركا إفشاءه سر مهنته : « هذا سر بيننا ! » . واتجه صوب فريق من السيدات ، وقد استقرت لحيته الأنيقة على صدره ، وسار فى بطء وجلال كأنه طاووس يتأهب لأن يبسط ريشه . وبقى رجل القضاء وحيدا فلم يحاول ان ينشد لنفسه رفاقا ، بل واصل التفكير فى السيد روكفيار بإعجاب ، وأخذ يستعرض حياة هـــذا الرجل التى افعمت بالآلام والبسالة . فمنذ اليوم الذى رفع فيـــه فرازن شكواه ، لم يظهر روكفيار ســـوى إنـــكار المصلحة المادية ، والاعتزاز بالنفس ، والاستعداد للتضـحية . وراح الســيد فاليروا يسائل نفسه : « لماذا لا يفهم شخصيته العظيمة هنـــا سواى ؟ .. إن اى فرد من الحاضرين لا يســمو إلى مواطىء قدميه ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء السادة منذ لحظات يترفعون فى حديثهم عنه ، وكان النحس قد حط من قدره وهوى بمكانته ! إن الريف لحاسد حقود ! » .

وفى هذه الحدود البسيطة ، كانت المأساة مؤثرة ، وداعية للعجب : كان الشاب موريس يجرد الأسرة من كرامتها ، بمثوله اعزل امام المحلفين ، ومن ثم تخلى ابوه عن الضـيعة العريقة بثمن بخس ليتغلب على الابن الضـــال . ولكن .. اذا كـــان محامى المتهم مضطرا إلى أن يغلق فمه ، فان ثمة صوتا أعلى ، واكثر سلطانا من صوته ــ لأنه يصدر عن سلطة عليـا ــ يستطيع أن يدوى فى الآذان بدلا من ذاك الصوت .. أفليس من حق المدعى العام ان يعرض القضية من ناحيته ، بعد ان يتكلم

المدعى بالحق المدنى ؟ وبدلا من أن يقيم « العدالة » بالطريقة المتعارف عليها فى مثل هذه القضايا ــ التى تمتاز بأنها خاصة أكثر مما هى عامة ــ أليس من واجبه ان يتدخل تدخلا فعالا فى كشف الدور المشئوم .. الدور الأعظم تأثيرا .. الدور الفريد الذى قامت به مدام فرازن ، إذ كانت الوحيدة القادرة على إساءة استغلال الثقة ، دون أن تدان لهذا السبب ؟! ما أروعها من فرصة لخدمة العدالة ، وإعطاء كل ذى حق حقـــه ، وإدخال شىء من الفرح على تلك النفس التى حرمت منه !

تتابعت كل هذه الخواطر على رأس السيد فاليروا ، ولكنه كان عاجزا : فقد كان يجلس فى مقعد المدعى العام ــ فى محكمة الجنايات ــ محام عام ، وليس هو . ومن ثم لم تعد قضية موريس روكفيار من اختصاصه . فضلا عن أنه قد تعرض للوم بسبب الخطوة الغريبة التى اتخذها إزاء الموثق فى العام المـاضى ، والتى لم يقدر لها ان تغلل فى طى الكتمان طويلا . وما الجدوى فى أن يقحم نفسه فى قضية لم تعد من اختصاصه ، ولن تجر عليه سوى العناء ؟ يجب أن يقتنـــع بإبداء العطف السلبى من اجل راحة باله وطمأنينته !.. واسرع يختلط بالمدعوين حتى لا يسترسل فى التفكير ، ولا يقدر انانيته . وداخلته السعادة حين شعر بالناس حوله .. ففى وجود بنى جنسنا عـــزاء وتسرية لنا حين نحاول أن نقيس مدى ضآلة شأننا .. ولكن ــ من ناحية أخرى ــ لا يقدم على هذه المحاولة ســوى خير الناس !

* * *

وأثار التردد على المقصف حركة رائحــة غادية فى قاعتى الاستقبال وفى البهو وقاعة المائدة ، انتهزها الشبان ليحوموا حول الفتيات . وكان بين الفتيات من استهواهن الرقص فرحن يطالبن الفرقة الموسيقية بالعزف ، ومن أظهرن سعادة فى تقبل بعض المغازلات البسيطة ، لترويض أزواجهن ، بيد أن بعضهن — وكن فئة ضئيلة — لم يأبهن بإلقاء نظرة سريعة للتأكد من وجود أو غياب خاتم الزواج فى الأيدى اليسرى للرجال ، قبل ان يستجبن لمغازلاتهم فى تحبيذ مستتر ! وكانت عيون الشباب المنتشى تتألق بوميض الابتهــاج كما تتــلألأ المجوهرات التى كانت تزين الشعور والصدور والأذرع والأصابع !.. وكانت الوجوه المزدانة بالمساحيق تبرز بين ثياب السهرة السوداء ، فى خطوط واضحة كأنها الألوان المــائية !

فالى اية طبقة منهن كانت تنتمى الآنسة جان ساسيناى ، التى تخلت تماما عن ذراع ريمون بيرسى — الذى كان فى العام السالف خطيبا للآنسة روكفيار — حين تبعتها عين أمها اليقظة، فى قلق، وفى شىء من الدهشة ؟. ترى هل كان رأسها الصغير، المتناسق ، الشبيه برؤوس التماثيل الإغريقية — التى تبدو لنا رشيقة واخاذة وهى تستوى فوق اكتاف حجرية — هل كان رأسها هذا ضيق العقل إلى درجة لم تمكنه من أن يرعى ذكرى صديقتها التى هجرهــا ذلك الشــاب ؟ أو لم تكن نظراتهــا الصافية ، المنبعثة من عينين فى زرقة السماء ونضارة الربيع ، تنم فى قرارتها عن استخفاف وعدم اكتراث ؟.. وكانت الدماء تجرى فى وجنتيها ، نتيجة الحركــة التى بذلتها فى الرقص ،

ولكنها لم تكن تبتسم ، بل كانت عابسة ، تجز على شفتيها ، وكأنما اتخذت قرارا جادا لا يتلاءم مع روح الطفولة الجميلة..

وقال لها الشاب: « إننى لم ارقص معك بعد، فهل تؤثريننى بإحدى رقصات الفالس ؟ » . فأجابته فى جفاء بعد أن اطمأنت إلى أنهما ليسا وحيدين : « لا » . فهتف يسألها : « ولم لا ؟ هل جميع رقصاتك « الفالس » محجوزة » .. وكان جوابهـــا : « ليست كلها » . ولم يحمل رفضها على محمل الجد ، بل انه طفق يضحك بدلا من أن يعبس ، وقــال : « لقــد نبهتنى . فشكرا ! » .. فأرسلت زفرة متعبة ، كتلك التى يصــدرها العمال وهم يرفعون حملا ثقيلا ، ثم اندفعت فجــأة قائلة : « الواقع أن من واجبى أن انبئك يا سيدى : لقد تحدثت أمك إلى أمى ، وأمى لا تخفى عنى سرا ، وحتى الذى تكتمه لا ألبث أن أحدسه .. فهــل أدركت ؟.. قط — وأرجو أن تصــيخ السمع — قط لن أتزوجك ! ».. فهتف الشاب مبهوتا : « عفوا يا آنسة ، فأنا لم أطلب يدك » .

— لقد استكشفت أمك الميــدان .. « جست النبض » كما يقولون !

— إن الأمهات يرسمن كثيرا من المشروعــات لأبنائهن .. ومع ما فى هــذا المشروع من شرف لى ، إلا انــه لا يتفق مع نواياى .

— أوه ! هذا افضل !   — إننى لا افكر فى زواج .

وبهت عندما اجابت : « إنك لمخطئ ! » . فقد بدأ هــذا التأنيب غريبا ، وموجعا ، وهو يصدر من ذلك الفم الدقيق .

واستطردت الفتاة : « عندما يتاح لامرىء حظ مصادفة فتاة مثل مرجريت روكفيار فى حياته ، فجدير به ألا يهدم بنفسه سعادة كهذه ! » .. وكان هذا هدفها . ولقد ادرك الشاب ذلك . وكان بوسعها أن تدرك مدى الضربة التى وجهتها إليه من التطور الذى الم بأسارير وجهه ، لولا ان العينين فى مثل سنها الغضة لا تكونان قد اكتسبتا بعد القدرة على تتبع مظاهر انفعالاتنا الداخلية ! كذلك كانت تنقصها القدرة على الاعتدال فى الانسياق لتحمس الصبايا المتحررات ، إذ استطردت تقول: « من القبيح دائما يا سيدى ان يتخلى الشاب عن خطيبته ، لا سيما حين تكون فى ظروف تعسة .. هذا امر لا يطاق ! ». بأى حق سمحت لنفسها بأن تؤنبه بهذه القسوة ؟ واغتاظ ريمون بيرسى ، لا سيما وانه كان يستشعر فى قرارة نفسه سرورا مشوبا بالمرارة عندما يسمع حديثا عن مرجريت . وانصب غيظه ومرارته فى رده ، إذ قال : « إننى لم انصبك حكما يا آنسة . وإذا كنت تتكلمين بلسان فتاة أخرى ، فاننى أجيبك بـ ... » ، ولكنها قاطعته قائلة : « لست أتحدث بلسان أحد » .

— إذن فما ابعد معلوماتك عن الحقيقة .. فما انا بالذى فسخ خطبة كانت عزيزة على !

— كانت عزيزة عليك ؟! اجل . هكذا انتم أيها الرجال : تحضرون إذا اشرقت الشمس ، حتى إذا أمطرت السماء ، لا يبقى منكم اثر !

— ولكنك جد ظالمة .. وإنى لأوشك ان افقد صبرى .

وبدلا من ان تسكت ، ظلت تطن كالزنبار الذى يبحث عن شخص يلدغه : « لا يغضب سوى المخطىء ! » . فقال : « ليس هناك ما أؤدى حسابا عنه امامك يا آنسة . فاعلمى أن الآنسة روكفيار هى التى فسخت الخطبة . فقالت معقبة : « بدافع من الشهامة » . ولكنه أجاب : « إنها لم تعبأ بقلبى ، ولا اكترثت لآلامى » . فاشتد احتقان وجهها ، ولم تعد تتمالك نفسها ، فقالت تستنكر عمله فى عنف: « فى مثل هذه الظروف ، ما كان ينبغى أن تقبل القطيعة » . ولم يعد بدوره قادرا على الهدوء ، فقال : « وإذا ادين اخوها ؟ » .

— هذا ادعى واكرم . — آه ! أحقا يا آنسة ؟

— اجل ، إنه لحق . فأنا إذا احببت لا يتغير حبى بذهاب خطيبى إلى السجن . بل إننى اتبعه إلى هناك ! اتسمعنى يا سيدى ؟ ولو استدعى لحاقى به ان أرتكب جريمة ، فاننى ارتكبها .. فى الحال . ودون تردد ؟

فقال : « إنك لطفلة ! » . ثم غير من لهجته فجأة ، وتمتم معترفا بصوت أجش : « أو تظنين أننى غير آسف عليها ؟ » . واذ تبدل بهذه السرعة ، استخفها الانتصار حتى كادت تلقى بنفسها على صدره ، وإذا بمدام ساسيناى تقترب وقد رابتها هذه الحركة وهى ترقبها عن بعد . وقالت جان : « آه ! كنت موقنة ياسيدى من انه ليس فى وسعك أن ترغب فى الزواج منى .. إذن ، فأسرع . أسرع واخطر مرجريت ، واضرع إليها باسمى انا الأخرى ، كى تصفح عنك . واستعد بسرعة مكانك فى الأسرة قبل القضية ، وإلا فسوف يفوتك القطار .

إن هذا أفضل من كل ما تعالج به مرضاك من أنواع العقاقير السيئة ! » .

— شكرا . — اذهب فى الحال .

— ولكن الساعة بلغت الحادية عشرة والنصف .

فهتفت : « إذن فاذهب غدا » . وكانت مدام ساسيناى فى طريقها إلى ابنتها ، فاستوقفها فريق احتدم بين افراده النقاش ، واحذ يزداد حدة بين لحظة واخرى : كان السيد فاليروا يسأل شابا — فى زى عسكرى ينم عن أنه من هيئـــة أركان الحرب : « أواثق أنت ؟ » . فأجاب الضابط : « كل الثقة . لقـد نبى الخبر إلى الفرقة فى الساعة السادسة ، وقـد ذهب الجنرال بنفسه لزيارة السيد روكفيار » . فهتف السيد كولانج وقـد ادهشته — وأثارت مشاعره — خطوة رسمية كهذه ، نحـو رجل تكأكأت عليه المحن : « بنفســه ؟ » .. وســألت مدام ساسيناى اقرب شخص بجوارهــا ، وكان السيد لاتاش : « عم يتحدثون ؟ » ، فأجابها : « عن موت المـلازم روكفيار يا سيدتى . فقد توفى بالحمى الصفراء ، فى الســودان » . فتمتمت وقد طغت عليها الشفقة : « يا لهم من تعساء ! » .. وقال السيد لاتاش مؤمنا : « أليسوا كذلك يا سيدتى ؟ » .

كان هذا المصاب الفادح سببا فى أن اكتسب آل روكفيار عطف النساء ، وفى تحطيم روح العداء لدى الرجال ، بعد أن كان القوم يؤيدون انهيار الأسرة المـادى والأدبى بنفـوس راضية . لقد أرادوا لها الهوان ، فأجابهم القدر ، ولاحقهــا

بالنوائب فى غير ما تردد ولا هوادة ! وران الصمت على انصار السيد فرازن وصفقته الرابحة .. وعبر المدعى العام عن شعور القوم بقوله : « يا للمساكين ! » .. واختفت جان ساسيناى بعد هذا اللغط ، فبحثت عنها أمها فى المسكن دون جدوى ، حتى إذا لمحت ريمون بيرمى فى الردهة وهو يرتدى معطفه فى عجلة سألته : « أترحل مبكرا يا سيدى ؟ » . فأجاب دون أن يحاول تبرير هذا الانصراف المفاجىء : « أجل يا سيدتى » . وأدركت ما كان يجثم على صدر الشاب ، فربطت بين هـذا وبين اختفاء ابنتها ، وبدأ القلق يساورها بشدة ! ثم سألت زوجها — الذى صادفته عند مدخل قاعتى الاستقبال : « ألم تر جان ؟ » . فأجابها : « لا .. أفتبحثين عنها ؟ » .

وكان السيد ساسيناى رجلا مجتهدا ، صريحا ، وفيا ، ولكنه مجرد من القدرة على تفهم العوامل النفسية .. فكان فى وسعه أن يتغلب على أعظم العقبات المـادية ، ولكنه كان عاجزا عن أن يعنى بتحليل العواطف . ومن ثم لم تر زوجته جدوى من مصارحته بهواجسها واكتفت بأن سألته أن يعنى بضيوفهما ، بينما اتجهت هى مباشرة إلى غرفة مخدع ابنتها ، فما أن ولجتها وادارت زر المصباح الـكهربائى ، حتى ألفت ابنتها غائصة فى احد المقاعد ، وقـد انحنت على نفسـها ، وانخرطت فى البكاء ، غير مكترثة لمـا قد يصيب ثوبهـا من تجعد . وبادرت تسألها وهى تربت ظهرها : « جان .. ماذا بك ؟ » .. فهتفت الفتاة : « أماه ! » . وكانت الصرخـة أشبه بشكوى طفلة هدأ روعهـا فى الحال . فسألتها أمها : « لمـاذا تبكين ؟ » .

— إنما خطرت لى أحزان مرجريت ، بينما أرقص أنا لاهية !

وتنهدت مدام ساسيناى ، إذ كانت تدرك الود العظيم الذى تكنه ابنتها للآنسة روكفيار . وما لبثت ان سألتها حين وجدتها لا تكف عن البكاء : « أو تذكرين الملازم هوبير ؟ » . فأجابت الفتاة : « أجل ، كان ظريفا .. ولكننا كنا نتخاصم فى ساحة التنس ، إذ كان دائما متفوقا » .. ولكن هذا لم يكن مبعث أسى الفتاة . إذ استطردت دون تمهيد : « مسكينة مرجريت ! إننى افضل موريس السجين على هوبير ! لسوف تبرأ ساحته . اليس كذلك ؟ » . فأجابت الأم : « آمل يا عزيزتى » . وإذ ذاك قالت الفتاة : « برىء يبرىء القضاء ساحته ، ويدينه الناس ! إنه لأمر عجيب ، اليس كذلك يا أماه ؟ » . فتساءلت مدام ساسيناى : « أواثقة أنت انه برىء ؟ » ، فهتفت الفتاة لفورها : « وكيف لا وهو شقيق مرجريت ؟ » .

وابتسمت السيدة لهذه الفورة ، ولهذه الثقة التى تعمدت ان تستثيرها . وتذكرت وهى تسرى عن ابنتها حديثا دار منذ امد بعيد بينها وبين مدام روكفيار حول اولادهما . فقد قالت المرأة التقية وقتئذ : « قد يحين يوم أطلب فيه يد ابنتك لموريس ، إذا أثبت جدارة ، وبذلك تبقى الطفلة بالقرب منك ! » . ومع أن موريس لم يثبت جدارة ، إلا انه ظل يحتل فى قلب الصبية النبيلة مكانته السالفة . وهنا موطن الخطر ، فلا بد من الحذر . وبينما اعتزمت الأم أن تعنى بذلك ، راحت تفكر بالرغم منها فى بقية آل روكفيار ، الأموات منهم والأحياء ، الأفاضل منهم والمبتلين بالمحن !

وكان ضجيج الموسيقى يصل واهنا إلى الحجرة ، فقالت الأم : « خففى عنك يا صغيرتى برفق ، وانثرى بعض « البودرة » على وجهك . حسنا . إنك الليلة جميلة ! والآن ، لنعد إلى القاعة سريعا ، وإلا لاحظ القوم غيابنا » . فقالت الفتاة : « أصبت يا أماه ، وقد وعدت بالاشتراك فى هذه الرقصة » . واستردت جأشها لفورها ، ثم تقدمت أمها فى الردهة .

* * *

وفى تلك الساعة ، كان ريمون بيرسى ، الذى افجعته وفاة صديقه هوبير ، يذرع الطريق أمام دار آل روكفيار . وكانت سقوف الحصن المكسوة بالثلج تلمع تحت ضوء النجوم ببريق كئيب . وبدا برج المحفوظات وقمة برج الكنيسة كحارسين ساهرين على البلدة الهاجعة . وكان ثمة ضوء خافت يتسلل خلال مصاريع نوافذ غرفة المكتب الأربع ، التى كان الشاب يعرفها جيدا . هناك كانت مرجريت تجلس مع أبيها ، يتألمان معا ، وقد اصابت قلبيهما طعنة جديدة !

وتملكت الشاب رغبة فى الصعود ، ولكنه لم يجد الجرأة . كان فسخ الخطبة ، والنفور الذى أبداه أهله والرأى العام ، وظلمات الأنانية الجاثمة .. كانت هذه كلها ما تزال تحول بينه وبينهما . ولكنه — فى تلك الليلة القارسة ، وخلال هذه الجولة — أحس بحقيقة عواطفه ، وبأن الألم والاشفاق ينميان الحب أكثر مما ينميه الفرح !

٤ ــ الأرض الملهمة

كان لابد من قرار . ولكن السيد روكفيار كان يرزح منذ الأمس تحت ثقل مصابه فى ابنه .. المصاب الذى نمى إليه بإخطار رسمى مقتضب ، قيل فيه إنه مات فى خدمة الوطن ، بعيدا عن كل إسعاف ، فى أحد المراكز الأمامية ! بل إن الأب الثاكل لم يجد فى هذا العزاء السامى ما يخفف لوعته . لقد رحل هوبير إلى المستعمرات سعيا وراء المخاطر ، ليرفع الاسم الذى اهين ، فكان بذلك آخر قربان للتكفير عن خطأ موريس الذى نسى الأسرة ، وكان موريس يوشك أن يمثل أمام محكمة الجنايات ، فى اليوم التالى ، وما فتىء الجدل دائرا حول المصاعب التى تكتنف الدفاع عنه . ولاشك فى أن تضحية تراث الأسرة لم يكن عبثا ، كما أنه لاشك فى أن إصلاح الضرر الذى وقع يجعل الحكم بالبراءة جد محتمل ، إن لم يكن مؤكدا ، ويقلب ميزان الحظ فى مصلحة المتهم . ولكن هذه البراءة بالذات ما كان ينبغى أن تنتزع بدافع من التسامح أو من الشفقة . بل كان لابد للشاب أن يغادر دار القضاء مطهرا من كل شبهة تمس سمعته ، مبرأ من كل ذنب ضد القانون أو ضد الشرف ، لكى يعود إلى احتلال مكانه فى البيت ، وفى المدينة ، وفى مقاعد المحامى ، ولكى يستأنف نفس تقاليد الأسرة ، وينقلها بدوره إلى ذريته .. ولكن ، كيف السبيل إلى ذلك دون ذكر اسم مدام فرازن ؟ حقيقة أن السيد باستار رجع ــ بعد بيع ضيعة

التى تعودها : « إن هذه القضية تكلفك أكثر مما تستحق . ولكن هذا السخاء سينتزع عطف المحلفين ، فان هؤلاء القوم الذين يقيمون الدنيا من أجل بيضة ، ويقتلون من أجل شجرة كمثرى ، سيجأرون كالبقر عندما يعلمون أنك بعت أرضك لرد دين الفريسة ، ولكنهم كذلك قادرون على أن يصدروا الحكم بالإدانة ، إذا انتبهوا إلى المثل السيىء الذى تضربه ، وإذا تكشفت صفقة السيد فرازن للمحكمة كحجة نهائية ، فى أسلوب متعمد لإثارتهم ودفعهم إلى غيرة جامحة فى صالحنا ! » .

كان لا يقيم كثير وزن للعدالة والإنسانية ، وإنما كان يدرس ملف القضية ، ويهب هذه الدراسة كل نفسه ، وكان ــ بصيته الذائع ــ يفرض تأثيره فرضا . وكان المقرر أن يزور السيد روكفيار فى الساعة الخامسة ، ليتفق معه ومع السيد هاميل على الخطوط الرئيسية للمرافعة ، للمرة الأخيرة . إلا أن والد موريس لم يكن يثق بالأسلوب المسرحى ، وبفن إثارة الريب ، لكسب قضية أسرته .

وبعد الغداء الذى لم يكد السيد روكفيار وابنته يمساه ، نهض الشيخ متأهبا للخروج .. فقد كانت أحزانه تثقل عليه وهو بين جدران البيت . ولكنه كان يجد القدرة على التفكير فى الخارج ، إذ كان الهواء ينعش أفكاره ، وقواه المستنزفة ، ونشاطه المتداعى . وما أن بلغ الباب ، حتى نادته مرجريت : « أبت ! » . فالتفت إليها فى دعة ، إذ كانت منذ وفاة زوجته ــ بل وقبلها ــ موطن سره ومشورته ، وأعظم مصدر للترفيه فى

حياته . وكان رحيل جوليان الصغير — إذ اصطحبه شارل مارسيلاز إلى ليون غداة اجتماع مجلس الأسرة — قد خلفهما وحيدين ، وجها لوجه ، فى البيت الذى كان يخلو من أهله رويدا ! وكانا قد قضيا الليلة السالفة معا حتى الصباح تقريبا ، يتحدثان عن هوبير ويبكيانه ويصليان . .

وعندما اقتربت الفتاة من أبيها ، رفع يده فى بطء إلى شعرها الجميل ، فأدركت أنه يباركها ، وإن لم يتكلم . واغرورقت عيناها بسرعة ، وقد ألفتا الدموع ، ثم بكت من جديد ، وقالت: « أبت . . ما الذى قررت بشأن موريس ؟ » . فأجابها : « لقد استعد باستار للدفاع عنه ، وسيحضر مع السيد هاميل فى الساعة الخامسة ، لذلك فسأعد إرشاداتى الأخيرة فى الهواء الطلق » . فسألته : « هل أنت بحاجة إلى أن أصحبك ؟ » . وأجابها متلطفا : « لا يا صغيرتى . لا تقلقى على ، بل إننى سأفكر أثناء المشى ، إذ لا وقت لدينا كى نكفن موتانا . . فان الأحياء ينادوننا ! » . وإذ ذاك غمغمت الفتاة : « إذن ، فسأذهب إلى السجن » . فقال : « أجل ، وامضى إليه بالمصاب ! » .

— يا لموريس من مسكين ! لكم سيتألم !

ولكن الأب قال « إن ألمه أقل من ألمنا » . فهتفت الفتاة : « أوه ! لا يا أبت ، إنه مثل ألمنا ، بل أكثر ! لسوف ينحى على نفسه بالتأنيب » . . فقال : « جدير به أن يفعل ، فما رحل هوبير إلا بسببه » . وأمنت الفتاة على قوله : « هذا حق يا أبى . إننا نبكى دون أن نؤنب أنفسنا . ألا أنبئه بشى نيابة

عنك ؟ » . فأجاب : « لا ، لا شىء » . ولكنها هتفت : « أبت . . » ، فبادر قائلا : « قولى له . . قولى له أن عليه أن يتذكر أنه آخر سلالة روكفيار ! » .

وخرج ، فجاوز الحصن ، وصار فى الخلاء . وكان اليوم من أيام الشتاء الجميلة ، وقد تألقت أشعة الشمس على صفحة الجليد ، فسار — وهو شارد البال — فى طريق ليون التى تفضى إلى الضيعة ، والتى كان يسلكها فى رياضته عادة . وكانت الطريق تخترق حى (كونيان) ، حتى إذا جاوزت مصانع قطع الأخشاب ، عند قنطرة (سان شارل) ، اتصلت — بين تلال فيمين وسان كاسان المحيطة بجبلى ليبين وكوربيليه — بطريق طويلة تمتد حتى نهاية ممر (ايشيل) . وما أن بلغ السيد روكفيار هذا المكان — وهو مستغرق فى أفكاره ! — حتى عرج يسارا ، وسلك الطريق الزراعية المفضية إلى مزرعته القديمة . واجتاز القنطرة العتيقة القائمة على نهر (ايير) . . ذلك الخيط الرفيع من الماء ، الذى كان يجرى بين ضفتين من الجليد ، والذى كانت أشجار الصفصاف — العارية من أوراقها — لا تخفى مجراه . وبعد دورة صغيرة ، ألفى نفسه عند منعرج مقفر من السهل ، تطبق عليه سفوح (مونتانيول) التى كانت تشرئب بقمتها نحو السماء . ولم يشعر بوحشة ، وإنما انطلق يسير ببطء متخففا من أحزانه . ألم يكن فى موطنه ، تحيط به أراضيه ؟ . . ألم تكن تلك الأرض هى التى اعتادت أن تسرى عنه بصداقتها القديمة الوثيقة ، وبذكريات الطفولة التى كانت تحتفظ برونقها ، وبكل الماضى

الإنسانى الذى كان يعزو إليه ــ بعد الطبيعة ــ تكوينه ؟..
وإلى اليســـار : الكروم المثقلة بالعناقيد ، لا يميز منهـــا غير جذوعها المحزومة بالأسلاك الحديدية .. تلك الكروم التى جنى ثمارها فى الخريف الماضى فقط .. وإلى اليمين : هذا الجدول الذى كان يعتبر الحد الفاصل بين مقاطعتين متجاورتين ، وهذا التل الذى كان مقفرا ، لا تقوم عليه ســوى شجرة واحدة ، والذى زرعه بعد ذلك بأشجار الزان والبلوط التى ابتاعها بما ادخر من مال ، وحرص على تشذيبها لتحيط بأراضيه . وعند نهاية الطريق الصاعدة ، وصـــل إلى الدار التى أصـلحها ، والتى كان قدمها شاهدا على عراقة الأسرة ، وحسن ذوقها ، وقوة أخلاقهـــا . من هنـــا كان ينفذ إلى المزرعـــة ، ويلاطف الأطفال ، ويشرب كأسا من « العرق » ، الذى كان يقطـــره بنفسه مع المرأة التى تقيم بالمزرعة ، والتى لم تكن تخشى تأثير الكحول !.. ثم كان يعانق بنظره الأفق الشاسع الذى كانت المرتفعات والسهول الخصبة والبحيرة البعيدة تؤلف معالمه الراسخة ، الملهمة .. ثم يرتد إلى أفق المزرعة الأضيق نطاقا ، فيلم بما فيها من نباتات متباينة .

هكذا أخذ يسير ساهما على التربة التى ألف السير عليها ، وبنفس الخطى النشيطة التى كان يسير بها فى الماضى ، حين كان يشعر بقوة الشباب تعاوده برغم تقدمه فى السن .. ذاك لأنه كان سعيدا ، محاطا من كل جانب بمن يحبه ويشد أزره ! على أنه ما لبث أن توقف فجأة ، إذ خطر له فجأة خاطر: « إننى لم أعد فى ممتلكاتى ، فقد بيعت المزرعة ، ولم يعد آل روكفيار هم سادة المكان. فما الذى جئت أفعله ؟.. لنرحل من هنا »..

وعاد أدراجه منكس الرأس ، كشريد فوجىء فى حديقة خاصة. ووقف عند الجدول الذى كان يفصل بين (كونيان) و (سان كاسان) ، فاجتازه ووجد نفسه إذ ذاك على بقعة من الأرض تتصل بالمزرعة ــ من حيث الاستثمار ــ وإن لم يتضمنها عقد البيع ، فهى بذلك كل ما تبقى له من أملاك !

وتوقف عند أسفل المنحدر لحظة ليسترد أنفاسه ــ كجيش عثر على ملاذ وهو يتقهقر ! ــ ثم شرع يتسلق التل فى شىء من العناء ، إذ كانت قدماه تنزلقان فيضطر إلى غرس عصاه فى الأرض ليحتفظ بتوازنه . ولما كانت الطريق مهجورة ، فإنها صارت مسدودة تماما ، ولذلك اتجه صوب الشجرة الوحيدة القائمة على رأس التل .. وكانت من أشجار البلوط القديمة ، تركت فلم تجتث : لا احتراما لقدمها ، ولا لجمـال فروعهـــا الباسقة وقوامها السامق ، وإنما لأن التلف بدا يدب فيها ، مما هبط بثمنها ، فلم يكن ثمة ربح يرتجى من وراء قطعها وبيعها. وكانت أوراقها القوية الكثيفة ملتوية ــ وكأنها تستجمع قواها لتحسن الدفاع عن نفسها ــ وقد بقيت متشبثة بالأغصان التى كانت تظهر خلال الصقيع ــ هنا وهناك ــ فى لون الصدا . وكانت جذوع الأشجار المقطوعة ــ التى لم ينقلها بعد قاطعو الأخشاب ــ ملقاة على طول الطـــريق المنحدرة ، كأنها جثث متهالكة على الجليد !

•

وبلغ السيد روكفيار أخيرا غايته ، فتحسس بيده الشجرة ــ التى اجتذبته إلى ذلك المكان ــ كما يتحسس المرء يد صديق، وأخذ يتأملها معجبا بضخامتها وقوتها ، وهو يقول لنفسـه ــ

بينما كان يجفف العرق المتفصد من جبينـــه : « إنك مثلى ..
رأيت رفاقك يتهاوون ، وظللت وحيدة بعدهم . ولكنا جميعا
مسوقون إلى السماء .. والزمن هو الفأس التى ستجتثنا عما
قريب ! » .

وكان صعود التل قد استغرق منه وقتا طويلا . ومع أن
الاصيل لم يكن قد اكتهل ، إلا ان الشمس كانت قد انحدرت
نحو سلسلة جبال (ليبين) . فان النهار فى شهر ديسمبر قصير
جدا ، وكان تقارب الجبال وارتفاعها يزيدانه قصرا . ومن فوق
التل ، اطل روكفيار على نفس الأفق الذى كان يراه من المزرعة
تقريبا .. ففى مواجهته جبل (السنيال) ، وتحته طـــريق
(ايشيل) ، وإلى اليمين — فى الطرف الأقصى ، وراء التل —
كانت تبدو بحيرة (بورجيه) ، وسلسلة (ريفار) ، وجبـــل
(نيفوليه) المتناسق السفوح . وكان الجليد يوشى الحواف ،
ويمزج المناظر بعضها ببعض ، مخففا من حدتها ، منسقا بينها
.. وقد خلع عليها اقتراب المساء حمرة وردية واهنة ، فكأنها
بشرة جسد حى !.. وشعر السيد روكفيار ببرد برغم اعتدال
الجو ، فأحكم ازرار معطفه . وكان قد كف عن السير — الذى
كان يبعث فى كيانه حرارة — فأحس بشيخوخته وآلامـــه .
ما الذى حمله على تسلق هذا التل الذى تراءى له سفحه —
بما عليه من اشجار مقطوعة وممدة على الارض البيضاء —
كأنه مقبرة ؟.. اجاء إلى هنا ، فى مواجهة ضيعته التى تخلى
عنها بعد جهود اجيال عديدة لصيانتها ، كى يتأمل ما حاق به
من خراب ، ويتفقد فجيعته فى آماله ؟.. لقد كان بوسعه أن

يتبين فى الجانب الآخر تلك المبانى والاراضى التى آلت إليه
عن طريق الميراث . اما البيت الذى كان يضم فى العام الماضى
كل افراد اسرته ، فى ظلال السعادة واحضان السرور ، فقد
اغلق ، ولن يدخله قط بعد الآن !

.. على هذه الأرض الموحشة الحزينة ، كان الصمت والوحدة
يحيطان به من كل جانب ، كما كان الموت يحوم حوله ويتربص
له ! وكما يفعل القائد المنهزم بعد المعركة ، اخـذ يستعيد
الحوادث ، ويستعرض آلامه واحدا بعد الآخـر : زوجـتـه
المحطمة التى قضى عليها الحزن ، وابنته فيليسى التى وهبت
نفسها لله ، وابنه الأكبر هوبير — خير ابنائه — الذى ذوى فى
ميعة الشباب بعيدا عن فرنســا ، وبعيــدا عن ذويه ..
وجيرمين التى هجرت مسقط راسها ، ومرجريت التى قـدر
عليها ان تظل بلا زواج لفقرها ، ثم .. ها هو ذا آخر سليل
لآل روكفيار ، الذى بتوقف عليه مستقبل الأسرة ومصيرها ،
ملقى فى غياهب السجن بتهمة مشينة ، ومهدد بان يدان ..
حتى بعد التضحية بهذا الميراث ! واحس السيد روكفيار بأن
الستين عاما التى انفقها فى خدمة الأسرة قد ذهبت كلها عبثا !
لقد انفرط عقد الأسرة بعد ان اثقل كاهليها وزر فرد واحد من
افرادها ، فتهالكت عند اقدام الضيعة كالجذوع المقطوعة
التى غاصت فى الجليد . اما هـو ، الذى كانت قوته وإيمانه
الراسخان يمنيانه بالنصر ، فقـد دب إلى نفســه الشعور
بهوان الهزيمة !

وإذ احس بعزيمته تخور ، استند إلى شجرة البلوط ،

وكأنها رفيق له فى الباساء ، وأرسل تأوها طويلا حزينا ، كأنين الشجرة التى تترنح مجاة تحت ضربات الفأس المتوالية ، وتشرع فى السقوط ! وخيل إليه أن السماء والأرض اللتين لفتهما ألوان هاذئة ، ثابتة ، لم تعودا تصغيان إلى شكاته ، فأحس بأنه وحيد ، لا حول له ولا سند !.. وانحدرت على خديه دمعتان من دموع الرجال الضنينة ، النادرة ، التى تفتت القلوب لأنها تنطوى على اعتراف بالذلة والضعف !.. وراحت الدمعتان تنسابان على بشرته فى بطء وهما نصف متجمدتين بسبب البرد !

ولم يدر بخلده أنه كان يبكى ! لم يفطن إلى ذلك إلا حين لمح شخصا يتسلق السفح بدوره ، فبادر إلى تجفيف عينيه لكى لا يفاجأ وهو فى قبضة الألم ! وكان الشكل الأسود لامرأة عجوز انهمكت فى جمع الحطب اليابس وحزمه . ولم تره لأنها كانت منحنية على الأرض البيضاء ، فلما أصبحت قريبة من الشجرة ، نصبت قامتها قليلا ، فاذا بها تراه . وتمتمت قائلة : « السيد فرانسوا ! » .. فتمتم بدوره : « لافوشوا ! » .. ودنت منه ، ثم وضعت حملها على الأرض ، وراحت تبحث عن شىء تقوله ، ولكنها لم توفق إلى شىء ، فأخذت تنتحب .. ولم يكن نحيبا صامتا ، بل كان عاليا مدويا . فسألها : « لم تبكين ؟ » . فأجابت : « أبكى لما حل بك يا سيدى ؟ » .

ــ لما حل بى ؟! ــ أجل !

ولم يكن قد باح بآلامه لأحد ، كما أن عزة نفسه كانت تنأى به عن مواطن الرثاء ، ومع ذلك فانه تقبل رثاء العجوز لحاله ، فبسط إليها يده متسائلا : « وهل علمت بما حل بى من



وإذ أحس بعزيمته تخور ، استند إلى شجرة البلوط ..

مصائب ؟ » . فأجابت : « نعم يا سيد فرانسوا » .. فعاد يسألها : « وبالمصاب الأخير ؟ » .

— اجل . علمت به من شخص من أهالى (سان كاسان) ، قدم من البلدة فى هذا الصباح .

وصمت الاثنان ، ثم عادت لانفوشوا تجهش بالبكاء — بالصمت فى أوقات الأسى لا يوائم الطبائع التى ما تزال على الفطرة ! — ثم أخذت تقول : « لقد كان السيد هوبير موفور الصحة ، شابا ، ظريفا مع الجميع . وكان يأتى إلى المطبخ ليلقى نظرة على الأطباق ويمزح معنا ! والسيدة ؟ لقد كانت السيدة قديسة من قديسات الله ! كل هذه حسنات تجنيها فى السماء ! » . وظل السيد روكفيار صامتا ، جامدا ، يحسد الأموات على راحتهم فى القبور . بينما استأنفت لانفوشوا : « والسيد موريس .. هل يردونه إليك ؟ » .. وأردفت بصوت منخفض مشوب بذلك الخوف الذى يساور الناس إزاء القضاء : « إن محاكمته غدا ! » . ورآها تبتهل إلى الله ، تسأله عونه القدسى . وتذكر — عن غير قصد — أن ابنة تلك المرأة كانت قد سجنت لأنها اتهمت بالسرقة ، فسألها عن أخبارها فى تلطف — إذ أن نفسه المهيضة لم تعد تعرف الازدراء : « وابنتك .. الديك أنباء طيبة عنها ؟ » . فأجابته العجوز : « لقد عادت لى يا سيد فرانسوا » .. وإذ ذاك قال روكفيار : « لقد أحسنت صنعا ! » .

— آه ! ليس لها فضل فى ذلك ، وإنما دفعتها الحاجة إلى العودة .. لقد جاءت من ليون فى أشد حالات المرض ، ولم يزل شفاؤها مستعصيا .

— وماذا بها ؟ — الآثار المترتبة على الوضع !

فهتف فى دهشة : « الوضع ؟.. وهل هى تزوجت ؟ » . فأجابت : « لا يا سيد فرانسوا ، ولكنها رزقت بطفل .. طفل صغير ، حبيب ، مفعم بالحياة ، لا يكف عن الحركة طوال النهار . وما كنت راغبة فى ان ارى هذا الملاك ، بدافع من الخزى والعار كما تدرك .. ولكننى حين نظرت إليه ، وجدته يستميل قلبى بابتسامة صغيرة .. وقد أصبح بهجتى الوحيدة ! » .. فسألها : « أهى بنت ؟ » . ولكنها صاحت : « بنت ؟.. أحسبك تريد ان تقول إنه ولد .. ولد سمين مفعم بالصحة ! » .. فقال الشيخ : « إنه عبء ثقيل على عاتقك ! » .

— بكل تأكيد . على أننى حين أعود إلى المنزل فأبصر الطفل وهو يمتص « بزازته » ، أشعر بأن لمرآه تأثير كوب من عصير كرومك ، إذ يبعث فى كيانى حرارة واستساغة للحياة !

— ولكنك اكتهلت ولم يعد فى إمكانك أن تعملى .

— بل إننى لا أصلح لغير العمل !

وهكذا ، كانت تستمد العزاء من البؤس ذاته ! كما كان الشقاء فى أيامها الأخيرة مبعث متعة ضافية لها ! وأعجب السيد روكفيار — الذى شغل بالقصة عن همومه — بالمرأة البائسة التى ضربت له المثل فى الصفح والشجاعة دون أن تفطن ! وانحنت المرأة لترفع حزمتها إلى كتفها ، وقالت : « إلى اللقاء يا سيد فرانسوا » . فسألها : « إلى أين تذهبين ؟ » . فأجابت : « إلى كونيان ، لأدفع بحطبى إلى الخباز » . فقال : « انتظرى ! » .. وأراد أن ينفحها بقطعة من ذات الخمسة

فرنكات ، مشاركة منه فى بؤسها ، ولكنها أبت . فقال ملحا :
« يجب ان تأخذيها : » .

— إن مزرعة البرج لم تعد الآن ملكا لك يا سيد فرانسوا ،
علىٰ ما يقولون .

فعبس المحامى وقال : « لا ، لم تعد مزرعة البرج ملكا لى ،
ومع ذلك فخذى هـذه النقـود .. ان هـذا سيجلب الحظ
لى ! » .. وادركت أن الرفض يجرح كبرياءه ، فبسطت يدها.

وهبطت العجوز التل وهي تميل على ساقيها فى كل خطوة ،
حتى لا تزال قدماها . وظـل السيد روكفيـار يرقبهـا وهى
تتضاءل ، حتى لم تعد اكثر من نقطة سوداء فى قاع سهل ..
والفى نفسه وحيدا ، ولكنه كان قد تغير .. فان هذه البائسة
ردت إليه ما كان قد قدمه إليه فى حصاد الكروم — فى العـام
الماضى — من تشجيع وشحذ للهمة ، مضاعفا مائة مرة !

وكان الليل قد أرخى سدوله فى تلك الاثناء ، فاذا به يشيع
فى الطبيعة الساكنة — وكأنها قد تجمدت بفعل الجليد — تلك
المهابة الخاشعة الغامضة التى تسبق احتضار النهار . وبدت
حواف الجبال وكأنها ذابت وامتزجت بحافة السماء الشاحبة
.. ولم تك ثمة نأمة تعكر الهدوء الذى كان أعمق تأثيرا على
النفس من عاصفة هوجاء !

وكان الجدول الصغير يجرى فى أسفل التل صامتا ، تحت
طبقة رقيقة من الجليد تفتتت ثم تكونت من جديد . اما الأرض
ذات الصبغة الشاملة ، فقـد بدت ملتفة فى غلالتها الناصعة

كحلية وسط قطن مندوف !.. وتأمل السيد روكفيار المزرعة
المهجورة ، التى فجعت فى السلالة التى ذللتها وملكت زمامها ،
فاجتذبه المنظر وسحر لبه .. لقد أيقظت «لافوشوا» فى نفسه
غريزة الكفاح ، وباعدت بينـه وبين اليأس . فنحى رئيس
الأسرة أله جانبا ، ليفكر فى الابن الذى كان معنيا به . وراح
يبحث عن وسيلة لإنقاذه ، ولكن بصره — الذى تطلع وكأنه
يضرع إلى السماء ! — اصطدم بذلك الغلاف البارد القاسى
الذى كان يلف الفضاء .. وإذا الأرض صامتة ، لا تنطق بما
اعتادت أن تتنبىء به من تعاقب فصول الحياة .. ترى كيف
يدافع عن ابنه متسلحا بالمـاضى وحده ؟.. وأى عون ينتظره
من الأرض المهجورة ، ومن السلالة التى غيبها الثرى ؟..
وبأعلى صوته ، راح يردد الكلمات التى قالهـا له السـيد
باســتار ، وهو ينبئه بأن المتهم رفض كل مناقشة للاتهام :
« إن الإنسان لا يتذرع بالموتى فى دفاعه ! » .

ورمت الشمس — التى كانت تمس ذرى الجبال — آخر
شعاع من نورها ، فبدأ الجليد المتراكم فى منحدرات الجبـال
وكأنه ينتفض تحت وهجها من نعاس كان يحتويه !.. وأخيرا ،
دبت الحياة فى الأفق الساكن بفعل هذا الضوء ، فاذا به — فى
صمته وصفائه — يحس بالحياة ويعكسها . وانفصلت الأرض
المرتعشة عن السماء التى كانت زرقتها الشاحبة تصطبغ بآلاف
الظلال التى كان يغلب عليها اللون الذهبى . وكان الصقيع
الذى جلل الأشجار والغابات القريبة يعكس أشعة الشمس
الآفلة ، كتلك العدسات البلورية التى تجمع أضواء الثريات

لتسلطها على بقعة صغيرة .. وكان السيد روكفيار — وقد
ثبت عينيه على المزرعة — يكمل المنظر الذى كان يمثل البعث !..
وارتدت الحياة للطبيعة بضع لحظات ، تحت لمسات المساء ،
فاذا الدم يجرى من جديد فى وجهها المرمرى . وعلى طول الكروم
القائمة على قمة الهضبة التى كانت بقايا أشعة الشمس تمتد
إليها فى خطوط أفقية ، لم يعد المالك — الذى فقد ملكيته — يرى
الأرض فى لونها الأبيض الذى لا يتغير ، وإنما استطاع أن يلم
بحركات التربة التى ذكرته بتعاقب المواسم الزراعية : فها هى
ذى الأشجار المتناثرة هنا وهناك .. أشجار الحور الوادعة ،
الباسقة ، المزهوة ، وأشجار النخيل الفارعة المستقيمة ،
وأشجار الزيزفون ذات الأغصان الوارفة ، والسندس النحيل ،
والكستناء المتكاثفة ، وشجيرات الفاكهة الرقيقة العود ، ذات
الأغصان التى كانت — برغم رقتها وليتها — ماهرة فى حمل
ثمارها .. وإذا هذه الأشجار التى كانت تبدو منذ لحظة ،
متشابهة مختلطة ، قد انقلبت تطفر بالحياة وكأنها أشخاص !

ولم يعد الشيخ يشعر بالوحدة ، إذ كان يعرف هذه الأطياف
واحدا واحدا . وتضاربت الانفعالات فى نفسه وهو يذكر
الأجيال المتعاقبة التى استصلحت هذه الأراضى ، وشيدت هذا
المنزل الريفى ، وهذه المبانى الخلوية ، وتلك المزرعة ،
وأسست هذه الضيعة ، منذ عرف أول ثوب لبسه أقدم فلاح
من آل روكفيار عليها ، إلى ذلك الزى التقليدى الذى كان
يرتديه أعضاء مجلس الشيوخ — منهم — عن دائرة (سافوا) ،
إلى رداء المحاماة !.. كانت الهضبة التى قامت إلى مثل

ارتفاعه ، فى الجانب المواجه له ، كحصن احتلته سلسلة من
أسلافه الذين زرعوا فى هذا الركن من الأرض تقاليد الأمانة
والشرف والشجاعة والنبل ، مع ما زرعوا من قمح وشعير
وبساتين وكروم .. وكما كان لمحاصيل هذه الأرض صيت طبق
الآفاق ، كذلك كانت تلك التقاليد تسطع على البلدة القابعة فى
أحضان الجبال — والتى بدأ الظلام يزحف نحوها — وعلى
الإقليم الذى أدت له أجل الخدمات ، وبسطت عليها حماها ،
ورفعت من شأنه فى بعض فترات تاريخية .. بل لقد امتد أثر
تلك التقاليد إلى الوطن الذى كان يستمد قوته من استمرار
قيام أمثال هذه الأسرة ، ومن عراقتها وصلابة كيانها ..

وعاد السيد روكفيار يردد مرة أخرى : « أن الإنسان
لا يتذرع بالموتى فى دفاعه ! » ، ولكنه أردف فى الحال :
« لا ، ليس بالموتى ، وإنما بالأحياء .. وأنهم لحاضرون
جميعا ، لا يتخلف واحد منهم عن تلبية النداء !.. لقد فتحت
الأرض صدرها لتسمح لهم بالخروج .. ولسوف أجتاز هذا
الوادى الضيق الذى يفصل بيننا .. فأنا مشوق للانضمام
إليهم ! » .. وأخذ يسبر عمق الوادى الضيق المعتم ، وكأنما
احتشدت أطياف أسلافه جميعا فيه !.. وزحف الظلام على
الطبيعة ، فاحتوى السهل بأكمله ، وراح يصعد والجبال
تحاول أن تصده ، لا سيما جبل (نيفوليه) ذو السفح المقسم إلى
طبقات ، والذى كان يقف فى وجه الغرب ، ومن ثم انصب عليه
لهب الشمس الغاربة المشتعلة ، فبدا ما كان يكسوه من جليد
أرجوانى وبنفسجى كأنه يشع وهجا كذلك الذى ينبعث من
معدن ينصهر :

واخذ السيد روكفيار يتتبع معركة الغروب ، وهو يطل من أعلى التل .. وإذا بكل كيانه ينتفض ! فقد لمح فجاة الأطياف تصعد مع ظلال الغروب .. كل الأطياف ارتفعت مغادرة المزرعة ، فى طريقها إليه !.. كانت نفس الأطياف التى تمثلها منذ لحظة متجمعة فى الوادى الضيق ، وكأنما خفت إليه لتشعره بوجودها ، وبعونها ، وبولائها !.. وانتشرت على جميع الدروب ، فكانها جيش يحتشد حول قائده الواقف على قدميه عند أسفل شجرة البلوط . حتى إذا التام شمل الجيش، سمعه يناديه طالبا منه أن يقوده إلى النصر : « لقد عملنا ، واحببنا ، وكافحنا ، وتألمنا ، لا لهدف شخصى فحسب ، ولا لغرض تحقق او لم يتحقق لكل منا ، وإنما لغاية ابقى على الزمن منا .. هى الأسرة .. ولقد منحناك كل ما جمعناه الصالح المشترك ، كى تسلمه بدورك لمن يليك .. وليست المزرعة هى الذخر المتوارث ، فما المزرعة سوى أرض تقتنى بالعرق والداب المنظم ، وإنما الذخر هو روح سلالتنا التى تحملها بين جنبيك ، وانا لنوقن من أنك قادر على الذود عنها. ما الذى قلته فى يأسك عن الوحدة والموت ؟.. الوحدة ؟ الا أحص عددنا ثم نبئنا : من أين انحدرت ؟.. الموت؟ ان الأسرة نقيض الموت ، وما دمت تحيا فنحن جميعا أحياء . ولسوف تبعث إذا ما لحقت بنا ، إذ أن حياتك تتجدد فى ذريتك . انظر : هانحن أولاء جميعا حضور ، فى هذه اللحظة الحاسمة. فارفع عنك آلامك كما رفعنا نحن الحجر عن ارماسنا ، واعلم

انك أنت الذى اختص بشرف الدفاع ، وبإنقاذ آخر سلالة روكفيار . لسوف تتكلم باسمنا ، وفى وسعك – بعد ان تتم رسالتك – ان تلحق بنا فى سلام الله .. » .

واتكأ السيد روكفيار على شجر البلوط بيده . وكان الظلام قد احاط بجبل « نيفوليه » الذى قام على أعلى طبقات سفحه صليب اخذ يتوهج قبل ان ينطفىء ، كشعاع الشمس المنحدرة للمغيب .. وإذ ذاك، استشعر الشيخ طمانينة عارمة ، وتقبل الرسالة التى عهد الماضى بها إليه ، وهتف لنفسه : « انا الذى سأتولى الدفاع عنك يا موريس .. ولن اذكر قط اسم مدام فرازن ! » .. وعندما ابتعد عن الشجرة ، اخذ يتأمل المكان الذى هم بأن يغادره ؛ وقال لنفسه : « هنا ، سأشيد البناء من جديد .. انا او ابنى ! » .

٥ – خطبة مرجريت

روع موريس موت هوبير وحطم الكبرياء التى كانت تعزله عن الأسرة . وانصرفت مرجريت من السجن ، بعد ان اطلعته على النبأ المحزن ، فسارت فى الشارع لا تكاد تبصر شيئا ، إذ اطبقت احزانها عليها . وما ان بلغت باب الدار ، حتى سألت خادمها : « هل عاد السيد ؟ » .. كانت متلهفة إلى شد ازر أبيها ، بعد ان شدت ازر أخيها ، وهى تقاوم العذاب النفسى بتلك القوة المألوفة لدى النساء اكثر مما هى لدى الرجال ، والتى تدعو إلى التسرية عن الغير ، بدلا من الاستسلام للأحزان !

وكان الجواب الذى تلقته من الخادم : « لا ، لم يعد بعـد يا آنسة » . فهتفت فى دهشة وقلق : « لم يعد بعد ؟ » .. كانت قد مكثت فى السجن وقتا طويلا ، وها قد حل المساء ، ولم يكن السيد روكفيار قد غادر الدار إلا لنزهـة قصيرة ، إذ كان يتوقع أن يزوره السيدان هاميل وباستار فى السـاعة الخامسة ، ليستعرض معهما آخر وجهات النظر فيما يتعلق بجلسة الغد . ومن ثم فقـد كان غيابه الطويل — فى ظروف كهذه — امرا غريبا !.. وقالت الخادم مستطردة : « ولكن فى قاعة الاستقبال سيدا يبغى مقابلة الآنسة » . فتســاءلت مرجريت : « مقابلتى أنــا ؟ » . فأجابت الخــادم : « اجــل يا آنسه » . فعادت الفتاة تسألها : « ومن يكون ؟ » .

— لقد ذكر لى اسمه ، ولكننى لا اذكره .. إنه طبيب .

وكانت الخادم ريفية لم تتأقلم بعد ، ولم تألف وجوه اهل البلدة واسماءهم . فقالت لها مرجريت فى تأنيب : « ما كان ينبغى استقباله يا ميلانى ، فى يوم كهذا » . فأجابت الخادم : « هو ذلك يا آنسة ، وما نسيت هذا ، ولكنه ابى ان ينصرف إذ جاء فى مهمة خاصة للآنسة ! » .

ودخلت مرجريت قاعة الاستقبال وهى كارهـة ، وقـد استبقت قبعتها وقناع الحداد ، لتتعجل رحيل هذا الفضولى ، وإذا بهـا تجد نفسها وجها لوجه امـام ريمون بيرسى ، الذى تمتم متلعثما فى اضـطراب وكانه فتـاة : « يا آنســة » .. وتقهقرت مرجريت فى حركـة ادرك لفوره مغزاها ، فهتف فى توسـل محـاولا استبقاءها : « اغفرى لى مجيئى يا آنســة

مرجريت .. لقد علمت مساء أمس بمصابكم ، ومن ثم .. » ، فتقدمت منه قائلة : « سـيدى ! » ، ودفعتـه هـذه الكلمة وحدها — بما تجلى فيها من حـزم — بعيدا ، ومنعتـه من مواساتها ! فقد كانت مرجريت تكره الرثاء ، مثل ابيها ! وارتج القول على خطيبها السابق ، فطأطأ راسه ، لائذا بالصمت . وإذ ذاك قالت ، وقد لانت بعض الشىء : « لماذا اصر السيد على مقابلتى .. اليوم ؟ » . فتطلع إليها مبتهلا فى ضراعة ، وقال فى اسى : « لاننى ساكون جد متاخر ، لو انتظـرت إلى غد » .

— جـد متأخر ؟ غـدا ؟.. الديك امر تريد ان تفضى به إلى ؟.. اهو بشأن موريس ؟

كانت قد نسيت نفسها ، فلم يخطر لها انها المعنية بالزيارة . أو لم تقطع كل رابطة بينها وبين ريمون منذ عام .. منذ اليوم الذى لم تحجم فيه عن فسخ خطبتها — فى دار مـدام بيرسى — دفاعا عن كرامة اسمها ؟.. ولم يـدع الشـاب قط ليستعيد حبها وودها . ثم تتابعت الحوادث كالعاصفة : بلاغ السـيد فرازن ، وموت مدام روكفيـار ، وصدر الحكم على موريس غيابيا ، وهوان الأسرة وخرابها ، ثم .. آخر ويلات القدر : فقدان الأب الأكبر ، الذى كان مدخرا للمستقبل . كانت هذه الأحداث من الكثرة بحيث لم تدع للشاب مبررا فى هجـره ، ونأيه ، ونسيانه . ولكن ، اليس من خصـائص البؤس انه يوسع الهوة بين الناس ؟.. لقـد استنزفت مرجريت — فى وحدتها — دمعها ، وتجرعت اساها ، وعانت وحدها المرارة

دون ان يقاسمها احـــد . فبأى حق يأتى الآن هـــذا الشاب
نيفرض وجوده غير المجدى ، وعطفه المتأخر ؟ لابد أن ثمـــة
سببا آخر دفعه إلى هذه الخطوة ، ولعله يعرف شيئا يفيد
الدفاع عن المتهم . ومن اجل هذا الغرض ، وهـــذا الغرض
وحده ، تلتمس له العذر فى اقتحامه الباب ، ودخوله المنزل!
على ان الشاب لم يتعجل الإفصـــاح ، وكان من الواضح انه
كان يعانى اضطرابا عميقا طاغيا .

وقالت مرجريت اخيرا : « تكلم يا سيدى » . فأجاب : « إن
الأمر لا يتعلق بموريس » . وتساءلت وهى تتقدم منه خطوة :
« إذن ؟ » .. ثم رفعت القنـــاع الذى كان يعوق حركاتهـــا
ويحجب وجهها . وبدت له فى اقترابها ـــ وقد شدت قامتهـــا
وعضلاتها ـــ كما لو كانت قد ازدادت بعدا عنه ! وبين الثوب
الأسود والشعر الأسود ، لاح وجهها شديد الامتقاع ، وعيناها
ذابلتين ، وشفتاها رقيقتين كأنهما مجرد خط احمر !.. وحبس
الشاب دموعه ـــ لفرط إحساسه بأنهـــا بعيدة ، حزينـــة ،
ولخوفه من ان يعجز عن إلانة قلبها ، وتلهفه إلى ان يسرى
عنها بحنانه الفيـــاض ـــ واستجمع كل شجاعته ، وشرع فى
الكلام متلعثما ، ثم راح صوته يقوى رويدا : « الا انصتى لى
يا آنسة .. يجب ان تصغى إلى ، ولن تلبثى ان تفهمينى وان
تصفحى عنى .. لابد لى من ان اتحدث إليك اليوم !.. اننى
احتـــرم المك واحس به .. ارجـــوك ، لا تقاطعينى ! ليس
بوسعك أن تمنعينى من ان احس بألمك ، فاننى اتعذب ـــ انا
الآخر ـــ منذ ذاك اليوم .. وإن عذابى ليجعلنى اكثر إدراكا

لآلام الغير . لقـــد احببتك . آه ! لا تقطعى على الحديث ..
دعينى افرغ ما فى جعبتى ! اجل ، لقد احببتك ، ولم اكن أتصور
مستقبلى إلا فى قربك . ولكننى صادفت من أسرتى مقـــاومة
شديدة ، وعراقيل بالغة ، بسبب .. بسبب اخيك ! فان امى
ـــ وإن كانت طيبـــة فى قرارة نفســـها ـــ تصغى إلى أقاويل
النـــاس ، وأبى يفـــكر فى مستقبلى ! إنه من رجال العلم ،
لا يعيش إلا بين جدران مكتبه ، أو إلى جوار مرضاه . امـــا
البيت ، فلا سلطان له عليه !!.. وأنا .. آه ، لا .. لست
ابغى ان امضى فى اتهام الآخرين ، لكى اخفف من ذنبى . لقد
كنت جبانا ، خسيســـا .. ولكننى نلت عقابى ، وإذا كنت لم
أدافع عنك ، فمـــا ذلك إلا لاننى لم اكن اعـــرف كيف ادافع
عنك .. » .

وأومأت عدة مرات تحاول أن تقاطعه ، وقد وقفت منتصبة
القامة ، فى ترفع غير متعمد ، فكشفت بجلاء عن ذلك الإبـــاء
الذى فطر عليه آل روكفيار ، والذى أكسبهم كثيرا من الأعداء !
وكانت فى تلك الأثناء تؤدبه بنظرة حزينة من عينيها المغرورقتين،
وبذلك الجلاء الغامض الذى ورثته عن امهـــا . وما لبثت ان
اجابته ببساطة : « ولكننى لم اطلب إليك أن تدافع عنى ! ».
فقال متلعثما : « هـــذا صحيح يا مرجريت .. » . ونسى فى
اضطرابه الأسلوب المتكلف ، فناداها باسمها مجردا ، كما اعتاد
ان يفعل عندما كان خطيبا لها ـــ من قبل ـــ ثم استطرد : « بل
اننى نقمت عليك ازدراءك لى ! » . . فقالت : « لست أزدرى
أحدا يا سيدى ! » .

— بل إنك طعنتنى طعنة نجلاء بنظرتك القاسية فى ذلك اليوم الذى أعفيتنى فيه من عهودى .. ما كان أشد قسوتك !

فهتفت بصوت محتبس : « أنا .. قاسية ؟ » . وقدرت الا جدوى من الرد ، ولكنها ثارت فى أعماقها على هذا الظلم . بينما قال الشاب : « أجل ، فما كنت أفهم حتى ذاك الوقت قيمة اعتزاز المرء بكرامته فى المحن . لقد لعنتك ، ولكن قلبى كان يتحطم !.. كنت اتهمك بدلا من ان اعترف بتفاهة هواجسى وشكوكى ، وبافتقارى إلى الرأى السليم . على أننى تغيرت كثيرا ، واقسم لك !.. إننى الآن معجب بك ، وامجدك ، بل اعبدك .. اجل !.. لا تتكلمى. دعينى اتم حديثى ! لقد حاولت أن اسلوك ، واراد والداى ان يزوجانى من فتاة اخرى ويطمئنا على استقرارى ، كما يقولان . ولكننى لم أستطع .. لست احب ، ولست املك ان احب سواك ! » . فهتفت : « ارجوك يا سيدى » . ولكنه مضى فى حديثه : « إذا كان ثمة قدر من الخير استطيع ان افعله ، فانت مصدره . سأسمو بنفسى إلى مستواك رويدا . إن الرجال الذين على شاكلتى — بل كل الرجال ! — يتأرجحون بين الخير والشر ، وبين الوفاء والأنانية .. وليس يجول بخاطرهم انهم مدفوعون بكل ما فى الحياة من سفاسف ! على انهم قد يصادفون احيانا حافزا واحدا يرفع من شأنهم .. ولقد مدنى حبك بهذا الحافز ! » .

وتوقف عن الكلام مترقبا كلمة تبعث فى نفسه الأمل .. فغضت مرجريت بصرها ، وتركت القناع يتدلى على جانب وجهها ملقيا عليه شيئا من الظلام . وعاد ريمون يتمتم :

« مرجريت .. ردى على عهودك ، واقبلى ان تكونى زوجتى ! .. إننى اهواك ، وإن حبى ليزداد لما انت فيه من آلام ! » .. ورآها ترتجف ، ولكنها اجابت فى غير تردد : « هذا مستحيل ، فلا تطلبه منى ! » . وصدمه هذا الرفض لأنه صدر فى وقت كانت تساوره فيه بقية من غرور توسوس له بما فى خطوته من كرم وشهامة .. ومن ثم انفلتت منه صيحة كصيحة اليائس المتداعى ، وهتف متأوها : « إن هذا جماع هنائى ، فكيف تريديننى على الا اطلبه منك ؟ » . ولانت على الفور ، فاكتسب صوتها رقة جديدة ، وقالت : « ستمنحك امرأة اخرى هذا الهناء . إننى موقنة من هذا ، وأرجوه لك ! » .

— لست ارى فى الدنيا امرأة سواك !

— لا ، لا .. هذا مستحيل ، فلا تعذبنى !

— مستحيل ؟ ولماذا يا مرجريت ؟ لماذا تثبطين من عزيمتى ؟ إنك لا تحبيننى !.. على انى قد افلح يوما فى ان أجعلك تحبيننى ، فهل ما زلت ترفضين ؟.. أواه ! يا إلهى !.. أتنبذيننى بغير سبب ؟

ولاح انها تبحث عن مخرج ، فترددت ، ولكنه كان يرتقب ردها فى لهفة . واخيرا قالت : « إننى لم اعد تلك الفتاة التى كنتها فى العام الماضى » . فقال فى حيرة : « لست افقه ما تقولين » .. وإذ ذاك قالت : « لم اعد أملك صداقا » . فهتف : « أهذا هو السبب ؟.. إننى لا أستحق منك هذه المعاملة يا مرجريت . ان فى نفسك — فى عينيك — شعاعا يسطع كأنه صفاء الحياة !.. إننى حين أنظر إليك أحس بالشجاعة تدب

فى نفسى ، وبالرغبة فى الخير ، وباحتقار ونسيان جميع الرغبات
الحقيرة القائمة على الماديات ! فأية قيمة للثروة إذا قيست
بهذا الذى تمنحيننى ، والذى يبث فى القوة ؟ » . فقالت
متسائلة « وإذا حدث غدا .. » ، فلما أمسكت عن إتمام
قولها ، ردد التساؤل : « وإذا حدث غدا ؟ » .

— إذا حدث أن منينا غدا بكارثة أفدح .. إذا حدث أن
قضى غدا بإدانة موريس ؟!

— إنما جئت اليوم بدافع من هذا الخطر المحدق .. جئت
انشد شرف الوقوف إلى جانب أبيك فى محكمة الجنايات غدا ،
كابن له .. ولهذا كان لابد لى من أن أقابلك اليوم ! » .

فتمتمت : « آه ! » .. وادرك من دهشتها أن كل ما كانت
تبديه له من عدم اكتراث قد تبدد أخيرا .. وتبين امارات
العطف والعرفان — وربما التقدير أيضا — على ذلك الوجه
الشاحب الذى كان يقرأ عليه كل ما كان ينتابها من مشاعر ..
فتراءت له السعادة : غير مؤكدة ، وغير سافرة ، ولكنها
موجودة .. يهز وجودها فؤاده . ودعمت مرجريت أمله حين
مدت له يدها قائلة — فى غير تحرج من ذكر اسمه كما اعتادت
فى الماضى ان تذكره : « اشكرك يا ريمون .. لكم أنا متأثرة ،
أعمق التأثر ! » . ولكن هذا لم يكن القول الذى توقعه الشاب ،
فأخذ يتأملها فى ذهول قلق ، موجس . حتى إذا لاذت بالصمت ،
تمتم فى حياء : « نعم الشكر ، ما دمت أحبك ؟ .. أحسب أن
هذا الحب أعظم قيمة من اى شىء آخر » .. ثم تأوه قائلا :
« مرجريت .. الا تودين أن تصبحى زوجتى ؟ » .

وقرأ على وجهها الشاحب أمارات الحنان والأسى . ولكنها
قالت : « ريمون .. إننى لا أستطيع » ، فهتف : « لا تستطيعين؟
إذن .. إذن فأنت تحبين شخصا آخر » . فتأوهت قائلة :
« آه ، يا صديقى ! » .

— نعم ، أنك تحبين شخصا آخر .. شخصا لم يكن جبانا
مثلى ، ادرك ما تنطوى عليه نفسك ، ففهمك ، واستحقك ..
بينما فقدت أنا هنائى بخطئى .. هذا عدل ، ولكن وقعه أليم
على من يحب !

وانساب دمعه فمزق فؤادها . وقالت وهى تهتز انفعالا :
« ريمون ، أتوسل إليك الا تكلمنى هكذا » . فقال : « لست
اتهمك ، فأنا المذنب .. كما أن هناءك أعز على من هنائى ! »
.. وإذ ذاك قالت وفى نفسها أمر : « أصغ إلى يا ريمون ! » .
فتهالك فجأة على أحد المقاعد ، مضعضع النفس ، واحتوى
رأسه بين راحتيه ، غير متحرج من البكاء . وبحركة سريعة ،
رفعت مرجريت قبعتها ، كالممرضة التى تتخفف مما لا نفع له
من ثيابها ، لتحسن أداء عملها . وتناولت يدى الشاب وازاحتهما
عن وجهه بقوة ، وقالت « انظر إلى ! » .. وسيطرت على
الموقف ، لا بطريقة أبيها الآمرة الصارمة ، وإنما فى لطف رادع!
ولم تحاول أن تتصنع شيئا ، أو أن تكتم شيئا من مشاعرها ،
او ان تدافع عن مسلكها ، بل اقبلت عليه فى بساطة بالغة ،
فاذا به يستسلم لتأثيرها ، ويطيعها بطريقة آلية . إذ أنه لم
يكد يرمقها حتى كف عن البكاء . فقد تبدلت أسارير وجه
الفتاة ، واضاءتها النظرات المنبعثة من أعماق نفسها ، فبدت

كالهالة التى تحف بأولئك الذين وفقوا إلى الطمانينة بعد الاضطرابات والانفعالات .. وكساها — وهى حية ! — ذلك الوقار الصافى الذى يكسو وجوه الاموات ، فتلاشى كل اثر للالم من وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين ، وتولاها هدوء عميق راسخ ، يكاد يكون رهيبا ! .. وصاح الشاب فى لوعة ولهفة ، كمن يستوقف رفيقا يوشك أن يتردى فى هاوية : « مرجريت ، ماذا بك ؟ » .. ولكنها كررت قولها السابق : « أصغ إلى يا ريمون ! » . ثم اردفت : « اجل ، إننى احب شخصا آخر ! » . فصاح ملتاعا : « آه ! كنت اعرف هذا » .

— احب شخصا آخر لا تستطيع أن تغار منه .. إننى لن اتزوج ، ولن اكون امراة احد .. اسوف اسلك طريقا آخر .. ومع ذلك ، فاننى لم اوت العصمة التى تقينى من الشعور بالزهو إزاء الحديث الذى قلته لى منذ لحظة !.. إننى ما زلت اتمسك بالكبرياء ، وهى من عيوب اسرتنا .. ولكن توالى الخطوب علينا كان يتطلب منا ان نعتز بأنفسنا قليلا !

وارتسمت على فمها ابتسامة رقيقة ، لم تلبث ان تلاشت وكانها اشفقت ان تغير من طهر معالم هذه الأسارير الجامدة. وعادت الفتاة تتكلم — بينما اعتصم الشاب بالصبر ، مستسلما للقوة الغامضة التى كانت تنبعث منها : « لا ، لن انسى انك اخترت الساعة التى تكاثفت على فيها اقسى الأحزان ، كى تعود لى من جديد ! » .. فهتف ريمون كالطفل : « اننى احبك ! » .

— يجب أن تكف عن حبى يا ريمون !.. لقد لبيت نداء

آخر سبق نداءك .. سأكشف لك عن سر لا يعلم به احد .. ولا ابى ، ولكننى لا اتردد فى ان افضى به إليك ، فاحفظه لى : لقد عاهدت الله — عندما فقدت أمى — على ان احل محلها فى بيتنا الذى اجتاحته النوائب .

— او لم تؤد هذه المهمة ؟

— إنها لم تتم بعد .

— وهل يمنعك الزواج من إتمامها ؟.. اننا لن نغادر شامبيرى .

— إن المرء لا يستطيع أن يوزع نفسه بين اثنين يا ريمون .. لقد نزلت عن سعادتى الشخصية ، وما اعظم القوة التى استشعرتها يوم نبذت هذه السعادة !

فوثب فى عنف ، وهتف محتجا . « ولكن هذا جنون يا مرجريت .. ليس من حقك أن تنسى نفسك إلى هذا الحد . لسوف تعيشين بعد أبيك ، ولسوف تبرأ ساحة اخيك غدا ، وسيعيد بناء صرح حياته بغيرك . أما انت ، فما الذى تصيرين إليه وانت وحيدة ؟.. وما جدوى أن تضحى نفسك من اجل وساوس زائفة ؟ » .. فقالت : « لقد طعن ابى فى الصميم ، كما ان اخى مهدد بالخطر دائما . فلا تسلبنى جزءا من شجاعتى بقولك إننى ساكون عديمة الجدوى لهما ! » .. فكف ريمون عن النضال ، إذ ساوره شعور داخلى اثارته اسارير مرجريت اكثر مما اثاره كلامها .. شعور اوحى إليه بالهزيمة . فتوسل إليها فى صوت حنون ، خجول : « وإذا انتظرتك ، فهل تصدقيننى ؟ .. إذا مكثت وفيا لك حتى تتم رسالتك العائلية ،

فهل توافقين على العودة إلى ؟ .. إننى احبك إلى الدرجة التى افضل عندها الصبر ، حتى لا افقدك .. ولسوف يكون الصبر قاسيا وعذبا ، فى آن واحد . فهلا وافقت ؟ » .

إزاء هذا العرض المنطوى على شهامة وحب عارمين ، كفت عينا الفتـاة عن الوميض لحظة ، فظن ريمون ــ حين راى تاثرها ــ انها اوشكت ان تلين ، وعاوده امل لم تلبث الكلمات الاولى من ردها أن بددته : « لا ياريمون .. لن اقبـل قط ان ارسى اسس مستقبلى على آلامك ! هـذا مستحيل ! إنك لم تفهمنى تمـامـا ! لقـد وهبـت نفسى لله ، فلا تحـاول ان تستردنى ! » .

فصرخ الشاب فى لوعة : « اواه يا مرجريت ! » .

ــ إن المرء إذ يهب نفسه لله ، فانما يهبها لكل من يتعذب !

ــ الآن فهمت .. إنك تريدين الانخراط فى سلك الرهبنة ..

ــ لست أدرى بعد .. على أن هناك طرقا كثيرة لخدمة الله . فلا تبح بما قلت لك لأى إنسان .. اتبكى ؟ .. لا تبك يا ريمون . ليسكب الله عليك العزاء كما سكبه على قلبى !

فهتف : « لا .. لن اجـد العزاء مطلقا » .. وانحدرت دموعه وهو يسالها : « ما الذى تنتوين عمله ؟ » . فأجابت : « لسوف اساعد ابى ، ما بقى على قيد الحياة ، ولسـوف اساعد موريس إذا ما احتاج إلى . لقد عاهدت امى على ذلك وهى على فراش الموت . وسأكرس قواى بعد ذلك لخدمة البائسين والشيوخ ، أو لرعاية الأيتام . وقد انشىء هنا مدرسة لابناء الفقراء .. لست أدرى ، وليس بوسعى الآن ان اجزم ،

فلا داعى للتعجل ، لأن الوقت لن يلبث ان يحين من تلقـاء ذاته .. افلا ترى انك الآن عليم بكل اسرارى ؟ » .. فتمتم قائلا : « وانا ؟ .. ما الذى قدر لى ؟ .. انك تفكرين فى مواساة كل البائسين وتنسيننى ! » . فهتفت ضارعة : « ريمون ! » .

ــ إننى اكثر تعسا من جميع البائسين . إنهم لم يعرفوا السعادة ، على الأقل ، اما انا فانى القى بها من حالق !

ــ لا ، لا تتحسر على ، فاننى لم اخلق للزواج !.. لقد انذرنى الله بذلك فى شىء من القسوة . اما انت ، فانه ولا بد قد آثرك بامراة اخرى اكثر منى مقدرة على إسعادك .

ــ ما من امراة تضارعك يا مرجريت .. إنك لسـت من اولئك اللاتى يمكن الاستعاضة عنهن بسواهن !

وتسللت الظلمة إلى غرفة الاستقبال مع مقدم المسـاء ، ولكن وجه الفتاة المشرق بالروحانية ظل محتفظا بضيائه فى هذا الظلام ، ولو ان هذه الضياء لم تكد تقوى على ان تشيع الحياة فى الصفاء الشاحب الذى كان يجلل ذاك الوجه ، حتى ليخشى المرء ان يحس فيه ــ إذا مسـه ــ ببرودة الصخر ، بدلا من دفء الحيـاة !.. وقالت مرجريت اخيرا : « إنك لن تلبث أن تنسانى .. لابد من هذا ، لا سيما وانى أرغب فيه !» . فتطلع إليها فى تقاعس ، كسائح يتأمل قمة لا سبيل إلى بلوغها ، وقال : « لا سـلطان لك على ذاكرتى » . فقالت : « إذن ، فاذكرنى فى غير مرارة ، كما تذكر اختا ماتت » .

ــ لا يا مرجريت ، لا سبيل إلى ان اذكرك دون مرارة . لقد سموت بفكرى وفؤادى ، ثم تركتنى اهوى من حالق !

وتأثرت لقوله ، فأجابت فى لهجة جادة ، أوشكت أن تكون رهيبة : « إذا كنت قد أحببتنى يا ريمون .. إذا كنت قد أحببتنى حقا ، لمنحتنى سرورا ساميا بإدراكك أن رسالتى لن تكون عديمة الجدوى ، بالنسبة إليك أنت الآخر .. ولما وسعك أن تقنط إزاء رفضى ، لأنه يجب ألا يضيرك ، فهو لا يستطيع أن يجرح شعورك أو أن يحط من قدرك . يجب أن تكون ذكراى بلسما لحياتك لا موردا لهلاكك . ذلك لأننى أحببتك يا صديقى ، وكنت أرقب فى طمأنينة اقتراب يوم زواجنا .. وما الطمأنينة سوى هدوء النفس ، وأمان المستقبل . ولكن عاصفة غير متوقعة فرقت بيننا .. وسمعت خلالها نداء الله !.. فإذا كان الله قد شاء ألا أحمل السعادة إليك ، وإذا كان قد ابتلاك أنت الآخر ، فدعنى أعتقد أن هذه التجربة بالذات خليقة بأن تقويك ، وترفع من شأنك ، وتسمو بنفسك .. وإذا كنت أنا — على عيوبى ونقصى — قد ساعدت على السمو بك ، فلا تقل إنك ستهوى من حالق . لسوف أصلى كثيرا من أجلك ! » .

ولما كانت مستغرقة فى نجواها ، فإنها لم تره وهو يجثو أمامها ببطء ، ولكنها أحست بشفتيه على يدها ، فهتفت : « ماذا تفعل يا ريمون ؟ ألا انهض .. أرجوك ! » . ونظرت إليه وهو جاث عند قدميها ، وقد بهتت لهذا الانهيار الجديد الذى أبداه أمامها . ولم تعد أساريره تتلوى لفرط العذاب ، وإنما بدا وجهه واجما حزينا ، فى هدوء . فقد استولى عليه — دون شعور منه — ذلك الجلد وتلك السكينة اللذان كانا يشعان من إيمان الفتاة . وتمتم ريمون : « ما كنت أهلا

لك .. ولكننى أحببتك كل الحب ! » . فعادت تهيب به : « ألا انهض .. أرجوك ! » . وقال وهو ينهض : « ما من رجل جدير بك .. وهذا هو عزائى الأوحد ! » .

وتمت التضحية ، فشعرا بها كما لو كانت شيئا ماديا ملموسا ! وأخلدا إلى الصمت . ودلفت الخادم — خلال هذا الصمت الجاثم ، المفعم بالحزن — إلى الغرفة التى سيطر عليها الظلام ، فوجدت عناء فى تبين مخدومتها التى ذاب شكلها فى العتمة . ونادتها قائلة : « يا آنسة ! » .

— ماذا جرى يا ميلانى ؟

— لقد وصل السيدان .

فقالت مرجريت : « آه ! وهل أدخلتيهما مكتب السيد ؟ » . فأجابت الخادم : « أجل يا آنسة ! » . فعادت مرجريت تسألها : « أولم يصل السيد بعد ؟ » .. وكان الجواب : « لا يا آنسة ! » .

— سليهما أن ينتظرا بضع دقائق ، فإنه قادم !

وكان تأخر أبيها — دون ما مبرر — قد بدأ يشغلها ، فأدرك ريمون بيرسى أن بالها قد نأى عنه . وهمس لنفسه : « أبمثل هذه السرعة ؟ » .. لقد كان على الأقل يشغل فكرها وقلبها عندما صدت حبه فى رفق منذ لحظة .. حتى اللوعة التى بعثتها فى نفسه ، كان مدينا بها إليها ، وكانت محببة إليه ، ما دامت مرجريت مبعثها !.. ورمقها بنظرة أخيرة ، وكأنه يقدر فداحة الخسارة التى منى بها ، ولكى يحفر شكلها فى أعماق ذاكرته . ثم تأهب للانصراف ، متمتما : « وداعا يا مرجريت ! » .

— وداعا يا صديقى ، فامض بسلام .. لسوف اقرن اسمك بأسماء اسرتى فى صلاتى . أفتريد اكثر من هذا ؟

— شكرا .. لقد قام أمامى امل عظيم ، ولكنى هدمته بنفسى !

فأجابت بصوتها الحازم : « إن الله — ولست انا — هو الذى اراد ذلك .. فليحفظك الله ! » .. وانحنى لهـا ، ثم انصرف . وما ان ألفت نفسها وحيدة ، حتى اعتمدت جبينها براحتيها . ولكنها لم تلبث ان نهضت فسارت إلى مكتب ابيها حيث رجت الأستاذين هاميل وباستار ان ينتظرا الشيخ بضع دقائق اخرى . وكان القلق يستبد بها شيئا فشيئا ، فاعتزمت ان تخرج للبحث عن ابيها .. وفى تلك اللحظة سمعت صوت مفتاحه يدور فى قفل الباب الخارجى ، فهرعت إليه قائلة : « أبى .. هانتذا اخيرا ! » .. فجفف السيد روكفيار العرق الذى تفصد من جبينه برغم البرد ، لفرط إسراعه فى السير ، وسألها : « هل حضر السيدان يا مرجريت ؟ » .

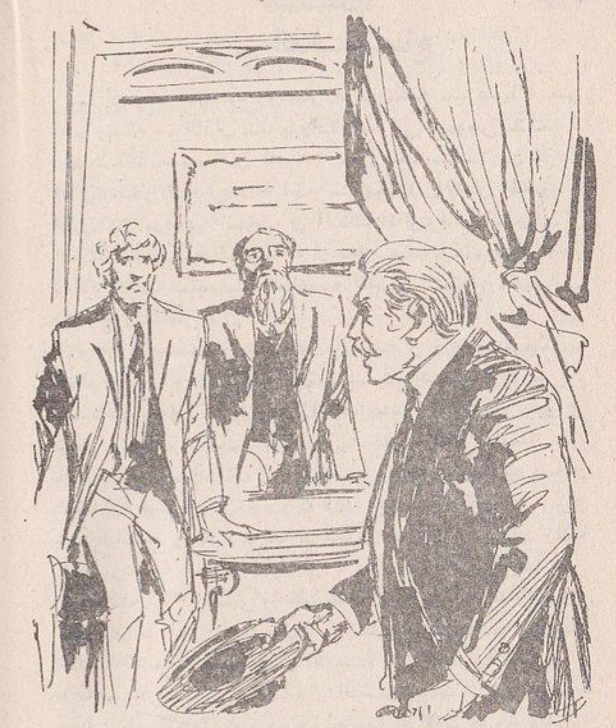
— انهما ينتظرانك . — حسنا ، إننى ذاهب إليهما .

ووقفا وجها لوجه فى الردهة المضاءة . ولما كانا قد افترقا فى قنوط وتداع نفسى ، فقد ادهشهما ان طالع كل على وجه الآخر نوعا من صفاء النفس بدد ما كان يعلو اساريرهما من حزن وخوف ! وأحسا بإلهام روحى منبعث عن الثقة : فقد كان الأب ينصت إلى نداء الماضى المنبعث من أجيال سحيقة .. وكانت الابنة تصغى إلى نداء الله !

٦ — الدفاع

ما ان ولج السيد روكفيار غرفه مكتبه مسرعا ، حتى بادر زميلاه — اللذان كانا يتجادلان — إلى النهوض لملاقاته . ولم يتمالكا نفسيهما من الدهشة حين الفيا — بدلا من الرجل الذى هده الأسى لوفاة ابنه — زميلهما روكفيار المعهود ، الذى كان مرهوب الجانب فى المحكمة ، وموضع الشورى فى المسائل العويصة العاصفة ، لرجاحة حكمه وحزم قراراته.. والذى كانت شخصيته الطاغية تقابل — كنظرته الثاقبة — بالحرج والمضض .

وقال فى سهولة أغنت عن الاعتذار : « لقد تركتكما تنتظران » . وكان السيد هاميل — بتاج شعره الأبيض ، وقسماته الحادة ، وترفعه المتكلف بعض الشىء — يبدو فى شكل وقور .. كما كان السيد باستار بلحيته المرسلة على صدره ، ورأسه المائل إلى الخلف ، يفرض شخصيته ويحتل الصدارة فى كل مكان .. ومع ذلك فقد بدا المحاميان — فى حضرة السيد روكفيار — كما لو كانا فى حضرة رئيس كان أولهما يتقبل رياسته عن طيب خاطر ، وكان الثانى يتقبلها على الرغم منه !.. وتلاشى ما كانا يمتازان به من أمارات التفوق، امام أمارات اخرى لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها . وتمتم النقيب الشيخ وهو يبسط يده إلى السيد روكفيار : « يا صديقى ! » .. بينما قال السيد باستار فى تكلف : « يا زميلى العزيز » . وراحا يعزيانه : الأول فى ود وتأثر ، والثانى فى عبارات عادية ، فأجاب مضيفهما وهو يشير بيده ،



ما إن ولج السيد (روكفيار) غرفة مكتبه مسرعًا ، حتى بادر زميلاه ــ اللذان كانا يتجادلان ــ إلى النهوض لملاقاته ..

قاطعا عليهما استرسالهما : « اجل ، لم يبق لى غير ولد واحد . وهــذا الولد ســأنقذه .. اجل ، اريد ان أنقـذه ، وإليكما ما قررت » .

وكان هذا الاجتماع الأخير قد عقـد بالذات بين المحامين الثلاثة ليتفقوا نهائيا على خطة الدفاع ، فاذا بواحد منهم ينفرد بالرأى دون مشورة .. وهتف نقيب المحامين ، الذى اخذ بهذه الثقة وذلك الحزم : « آه ! » ، بينما رد السيد باستار فى شـك ، وهو موزع بين احتـرام حداد رب الدار ، وبين اعتداده بقيمة نفسه : « قررت ؟ » .

وفى هدوء ، وصوت رنان ، أماط السيد روكفيـار اللثام عن فكرته بكلمات قلائل : « ستساعدانى انتما الاثنان .. فانا الذى سأتولى المرافعة ! » .. فهتفا معا : « انت ؟! » .. « انت ؟! » . وكانت إحدى الكلمتين مفعمة بالدهشة ، والثانية حافلة بالغضب ، وحدق السيد هاميل فى رفيق الجهاد القديم بعينيه الخابيتين اللتين كان بريق الحياة يرتعش فيهما واهنا ، وإن ظل محتفظا بصفائه .. فى حين تلقى المحـامى الآخر فى استياء نبا إعفائه من المرافعة فى قضية حساسة ومدوية .. ونسى ظروف القضية والمصائب التى نالت من الأسرة واسلمتها إلى اليأس بعض الوقت ، لكى يقصر تفكيره على الانتصار الذى كان يرجوه لشخصه ، ثم انتزع منه بقسوة !.. وقال السيد روكفيار فى لهجة الأستاذ اللطيف الذى يعرف ــ برغم مجاملته ــ كيف يفرض إرادته : « اجل ، انا !.. سأطالب بابنى فى قوة ولسوف يرد إلى .. فما من أحد [illegible] أبا على ابنه ! » .

أما وقد أملى إرادته ، وكأنها أمر ، واعرب عن نواياه فى الصراع ، فقد راح يعمل على استبقاء حليفيه ، فى شىء من الدبلوماسية .. فقد كان خبيرا فى الجمع بين اسلوبه الآمر وبين فن قيادة الرجال . ولما كان موقنا من معونة النقيب ، فقد ركز كل جهوده على السيد باستار ، الذى كان خليقا بأن يتخلى عنه : « لسوف تحضران معا ، إذا اننى اعول عليكما : وإذا كنت اطلب ان احل محلك يا باستار ، فليس ذلك لاننى اقيس كفاءتى على كفاءتك ، وإنما لأن هناك أمورا يمكننى موقفى الخاص الأليم — كرب الأسرة — من ان افسرها للمحلفين ! » .

— وما هى هذه الأشياء ؟

— إنها سر احتفظ به ، وستعرفه غدا . وانى لأعتقد اننى كفيل بإقناعهم ببراءة ابنى ، دون أن أورد اسم مدام فرازن !

— هل ستتوسل لذلك بزوال الضرر الذى وقع ؟

— لا ، بل مباشرة ! — لست أفقه شيئا .

— لسوف تسمع كل شىء . ومع ذلك ، فاذا شعرت بشىء من الضعف فى صوتى او كلامى ، وإذا كانت مرافعتى توحى إليك بالخوف من الفشل ، فانى أعتمد كل الاعتماد على ما لك من خبرة عظيمة بالمحاكمات الجنائية ، وعلى ما لك من حضور بديهة عجيب !.. إن وجوه هؤلاء القضاة كتاب مفتوح بالنسبة لك ، كما انك افضل منى إلماما بالقضية ، وقد تأهبت لها . ولهذا فبوسعك ان تحل محلى . وبهذه المساندة سأشعر بأننى قوى .. فهل انت راغب فى ذلك ؟

وأخذ المحامى — الذى ازيح بلباقة عن الدفاع — يحك لحيته برفق ، وهو يخفى استياءه وراء مظهر من عدم الاكتراث .

وقال : « وما الجدوى يا زميلى العزيز ؟.. إن معاونتى لك عديمة النفع ، فأنت فى غير حاجة إلى احد !.. إنك لا تحجم عن الاضطلاع بأسمى الأعباء واشقها ، فاسمح لى بان اعتبر مهمتى منتهية ! » . وكان المتحدثان فى تلك الأثناء واقفين ، بينما جلس السيد هاميل فى ركن بجوار المدفأة ، يرقبهما بعينين زائغتين قليلا ، دون أن يشترك فى الجدال . وما لبث الأستاذ روكفيار أن اقترب من زميله الذى كان يصغره سنا . فوضع يده على كتفه فى حركة تنم عن ود ، وقال : « إنى ادرك يا باستار اننى أسألك خدمة كبيرة . وإذا كنت اطلب شرف الدفاع بنفسى عن ابنى ، فافهم ان اسمى هو الذى انتوى الدفاع عنه .. ولست انكر غط الفرص التى تتيحها لنا كفاءتك ، ودرايتك ، ولباقتك النادرة .. ولكنك لو كنت فى موقفى لفعلت ما افعل .. فقدم لى هذا الدليل المعبر عن الصداقة وإنكار الذات ، والتقدير ايضا . إنك بذلك تثبت لى مدى إدراكك لكلامى . أرجوك ! » .

وظل السيد باستار يتخلل شعر لحيته الطويل بأصابعه المضطربة وهو يوازن بين القبول والرفض ، واضعا نصب عينيه — فى كل مرة — تقاليد الزمالة فى الهيئة التى كانوا ينتمون إليها ، وكبرياءه الجريحة التى كان يجد عناء فى وضعها فى المرتبة الثانية . كان قد فرض خدماته فرضا تقريبا ، لا لإنقاذ موكله فحسب ، وإنما لينتزع ايضا نصرا شخصيا فى ساحة مكتظة بالناس ، ستضم ولا شك خيرة القوم ، ولا سيما النساء التواقات إلى سماع مرافعته !.. وبدلا من ان يتأمله القوم واقفا فى مجده مسيطرا على الموقف ، سيراه هؤلاء

القوم ــ صفوة المجتمع ــ جالبــا ، وكأنه سكرتير للسيد روكفيار الغريم الخطير الذى طالمــا اصلاه بردوده اللاذعة فى الجلسات . فهل يليق به وضع مهين كهذا ؟!.. ثم ان حضوره الجلسة لن يكون مجديا ، فان والد المتهم قد يكون ــ فى غمرة تحمس بديع ــ واهما او مخدوعا فى قوة الحجة التى واتته فجاة ففتنته ، والتى يقدم على إماطة اللثام عنها .. والتى خطرت له بإيحاء حزن قد يكون أوهن من قوته المعنوية وقوته الذهنية معا !.. إن هذه الحرارة المصطنعة التى تشيع الحياة فيه ، قد تخبو بين لحظة واخرى ، ليحل محلها اشنع انواع الانهيار . فكيف يأمل او يتوقع القدرة على بذل جهد حيوى عنيف كذلك الذى تتطلبه مرافعة كهذه ــ أعدت فى أمد قصير ــ من رجل هده القدر .. رجل افلس ، وانتزع منه ابنه الاكبر بقسوة فى الليلة الماضية ، ولكنه مع ذلك يريد ان يضطلع بنفسه بعبء الدفاع عن آخر ابنائه وإنقاذه من إدانة مشينة ؟.. إن الامــر كان بعيــدا عن المعقول ، ومن الخليق ان يفسر هذا القرار الجديد بأنه من وحى الانفعال الغامض المنبعث عن الالم .. ومن ثم يجدر بالسيد باستار ان يكون على اهبة الاستعداد ، فقد يدعى إلى الدفاع فى آخر لحظة .. هكذا توحى الحكمة !.. وهذا ما يمليه عليه ــ دون نزاع ــ واجب العناية بالدفاع ، الذى يجب ان يطغى على كل فكرة لدى المحامى ، وعلى كل مصلحة شخصية بالذات !

على أن الاعتداد العجيب ، الذى كان السيد روكفيار يبديه إزاء الخطر ، حد من قوة هــذه الدوافع الكريمة . فما لبث السيد باستار ان قال : « لا ، ليس بوســعى ان اجيبك إلى

طلبك . إننى آسف . فإما أن آخذ على عاتقى مسئولية المناقشات ، وإما ان انسحب تماما ! ». فقال السيد روكفيار : « إن الأمــر يتعلق بابنى ، ومن الانصــاف الا اتخلى عن الدفاع عنه » .

وهنا غادر السيد هاميل مكانه ليتدخل فى الأمر ، فى الوقت المناسب ، قائلا : « بوصفى نقيبا للمحامين ، اسألك يا زميلى العزيز ان تعاوننا. إننى افهم دواعى ترددك ، وكان من الممكن ان اقدر رفضك فى اية ظروف أخرى .. قد تكون لدى السيد روكفيار اسباب خاصة تجعله راغبا فى الدفاع عن ابنه ، برغم ان العادة جرت بأن يوكل امر الدفاع عن الأقارب إلى الغير . ولما كانت الخطوب قد ابهظته ، فلا بد ان تكون إلى جواره ، إذ انه قد يتعرض لخطر المبالغة فى الثقــة بمقدرته .. وإنى لأصر على رايى » .. اما وقد تطور الأمر إلى التذرع بالواجب بدلا من الاستجداء ، وإلى اللجوء إلى السلطان بدلا من الإقناع ، فقد طرح المحامى عنه كل تردد ، وعمــد إلى البت ، فقــال للشيخ فى لهجة اقرب إلى الغلظة : « لا ، لا .. مستحيل ! لقد عرضت مساعدتى فى اكمل صورها ، ولكنها اقتضبت ، وتغيرت خطة الدفاع دون استشارتى ، واخفيت عنى حجة لابد وانها حاسمة قاطعة .. وفى هذه الظروف ، لا املك سوى ان انسحب ، وإنى لمنسحب ! » . ولم يتبد على وجهه المتجهم سوى امارات الكبرياء الجريحة ، والتفت إلى السيد روكفيار ليضيف فى معالجــة مصطنعة : « هل ترغب فى مذكرات مرافعتى ؟ إنها توفر عليك بعض الجهد ، وإنى لأضعها تحت امرك » .

— فكر جيدا يا زميلى .. يا صديقى . .لا تهجرنا فى المعمعة !

— إن قرارى حاسم .

— نهائيا ؟ — نهائيا !

واحتفظ السيد روكفيار فى حديثه الاخير بمظهر متعال ، هادىء ، ادهش زائريه . ولما كان النقيب غير مطمئن تماما إلى نتائج هذا الرفض ، فانه حاول استبقاء السيد باستار ، بالرغم مما كان يحسه نحوه من نفور طبيعى . فقال له : « اتوسل إليك الا تحرمنا من معونتك ! » . ولكن المحامى اجاب : « إننى لحزين لهذا .. صدقنى ! » .. فقال والد المتهم ، دون اى انفعال : « إذن ، فاننى استرد منك ملف القضية ، ومحضر المعاينة ـ على الأخص ـ وتحليل الادعاءات ، وصيغة الحكم الذى صدر غيابيا » ... وكان فى عدم اكتراثه هذا ما اشعر باستار بإهانة .. فعلى الرغم من انه لم يكن بنتوى ان يلين للرجاء ، إلا انه — بما فى الطبيعة الإنسانية من تناقض — لم يكن يصدق ان فى الامكان الاستغناء عنه ، .. ومن ثم استاذن زميليه فى الانصراف وقد اكفهر وجهه غضبا . وفى خارج حجرة المكتب ، شد مضيفه على يده بقوة — على السلم — وهو يشكره بحرارة إذ وافق على أن ينسحب من تلقاء نفسه . ولم ير السيد باستار فى هذه المجاملة المصطنعة سوى إهانة بالغة ، فراح يذرع البلدة ، محطما لدى الراى العام عدالة قضية آل روكفيار ، معلنا غرور الأب ، واحتمال إدانة الابن !

ولم يفلح السيد هاميل — بعد انصراف المحامى — فى ان يخفى اساه ، وهواجسه ، وقلقه الذى راح يعذبه ويزيد من وطاة السنين على كاهليه . أليس إبعاد المحامى المعروف فى القضايا الجنائية — طواعية — تصرفا بعيدا عن الحكمة ؟.. او ليس ينطوى على مغامرة قد يدفع آل روكفيار ثمنها غاليا ؟.. ما الداعى إلى الإقدام فى الساعة الأخيرة على اتخاذ هذا الإجراء الذى من شانه ان يشيع الاضطراب والفوضى فى معسكر الدفاع ؟.. واعرب عن هذه الآراء فى تلطف مشوب بالحزم ، فلما راى حديثه يضيع عبثا ، كف عن الاسترسال فيه ، وقال فى لهجة حزينة : « يا صديقى : لقد جئت منذ لحظة ووجهك مشرق بالهام نفسانى ، فادركت وانا انظر إليك انك لن تصغى إلى أحد . فمن اين كنت قادما ؟ » . فأجاب السيد روكفيار ، الذى كان قد احتمل تانيبه فى احترام : « من ضيعة البرج .. لقد تحدث الموتى إلى .. انهم لا يريدون من رجال ان يتذرع بما يناقض فضائلهم من اجل خطأ احد احفادهم !.. فهتف النقيب الشيخ ماخوذا : « الموتى ؟ » .

— اجل ، امواتى .. اولئك الذين كونوا عشيرتى وصانوها . لسوف يكونون غدا الضامنين لشرفنا . فكم عدد الذين ضحوا بأنفسهم — منذ اول اسم منا إلى اسم ابنى الأكبر — فى سبيل المصلحة العامة .. أفتريد الا يكون لهذه التضحيات حساب ؟

— إننى أؤمن بعودة الروح وافهمها . ولكن ، هل يفهمها المحلفون ؟

فقال مضيفه فى اعتداد اهتز له الشيخ : « يجب أن يفهموها ! » .. وقال النقيب : « إن ثمة شيئا يسرى فى كيانك ويؤثر فى اولئك الذين يتحدثون إليك ، فينساب إلى نفوسهم ! اجل ، لسوف تدافع عن ابنك خيرا من اى محام آخر ، فان لديك القوة والسطوة ؛ وسيكون لى شرف معاونتك غدا ; لأتركك الآن للعمل ، فوداعا ! » .. ولف كتفيه النحيلتين بمعطفه البالى ، وسار إلى الباب بسرعة مباغتة .

وبعد ان اصطحب السيد روكفيار النقيب إلى الباب الخارجى ، نادى : « مرجريت ! » . وظهرت الفتاة فى التو ، قائلة : « هانذى ! » . فقد كانت فى الحجرة المجاورة ، تنتظر اللحظة التى يعود فيها ابوها .. وقال الشيخ : « تعالى ، فانى اريد ان اتحدث إليك » . وقادها إلى مكتبه وسألها فى عجلة : « هل رايت موريس فى السجن ؟ » فاجابته « نعم يا ابى ، وقد بكينا معا ! » .

— بكيتما ؟.. نعم ، إن قلبى قد انتزع من مكانه ، ولكننى لا ابكى مع ذلك . ولسوف اغدو حرا — مساء غد — فى أن ابكى ما أسعفنى الدمع . اما قبل ذلك ، فلن اذرف دمعة واحدة !

وكانت مرجريت قد ارتاعت بعض الشىء لذلك التحمس الذى رد الشباب واضاء ذاك الوجه العزيز الذى طالما تتبعت ما تعاقب عليه من امارات الالم التى سببها ما حل بالأسرة من نكبات . لذلك انتهزت الفرصة دون إبطاء ، لتتم مهمتها فى إصلاح ذات البين بين أبيها واخيها ، فقالت : « ان موريس يطالب بمكانه فى قلبك يا ابى » . فقال : « إنه لم يفقده قط ! »

.. وهتفت الفتاة وقد اشرق وجهها : « كنت اعرف هذا جيدا .. أتصفح عنه ؟ » .. وقال الاب : « لقد صفحت عنه منذ أمد طويل » .. فصاحت الفتاة : « آه ! » .

— اتراك شككت يا صغيرتى فى ابيك ، ليلة عاد أخوك ؟

— آه ! لا ، فلماذا لا تنبئه بذلك ؟

— إنه لم يسألنى إياه .

— بل إنه يسألك إياه .. وهو يرجوك أن توجه الدفاع عنه الوجهة التى ترتضيها ، دون أى قيد . فهو يوقن انك ستعنى بكل ما يمس شرفه !

— دون اى قيد ؟.. لقد فات الأوان !

— ولماذا فات الأوان ؟

— لأننى اعفيت محاميه ، مسيو باستار .

— ومن الذى سيتولى الدفاع ؟ — انا !

فهتفت مرجريت وهى ترتمى بين ذراعيه : « آه ! كنت قد كففت عن الأمل فى ذلك ! لقد طالما رغبت فى ذلك ! » . وضم السيد روكفيار ابنته إلى صدره بقوة ، وهو مشغول البال بمهمته الجديدة العاجلة ، وقال : إنك تثقين دائما بى يا صغيرتى ، فاذهبى واحضرى لى سجلات الأسرة كلها ، حتى القديم منها » . وفى غيبة ابنته عن الحجرة ، تسلم ملف القضية الذى ارسله السيد باستار ، ففتحه وراح يقلب اوراقه وهو يتأمل ساعته : « لقد ناهزت الساعة السادسة ، فهل سيكون لدى متسع من الوقت ؟ » .. وراح يتأمل — فى كرب ! — اكداس الكتب الضخمة التى أخذت مرجريت تحضرها على

دفعات .. واخيرا قالت الفتاة : « ها هى ذى .. إن لدينـــا الكثير مما هو اقدم منها عهدا » .. كانت هذه المجلدات تضم عمل وكرامـــة وشرف خمسمائة عـــام !.. وقدمت مرجريت لابيها فى النهاية كتابا اقل حجما من سواه ، وقالت وقد تضرج وجهها قليلا : « هنا لخصت تاريخنا ، وســجلت خطــوطه الرئيسية ، لا سيما الخدمات التى اديت من أجل الوطن .. إنه ملخص فى كثير من التوسع ! » .

ـــ هل حدست أننا قد نحتاج إليه يوما ؟

ـــ لا ، يا ابت .. إنما كتبته فى الشتاء المـــاضى ، لأرد على الشانئين الذين حاولوا النيل منا . وقد قرأت على أمى فقرات منه ، فأقرتنى !

ـــ إنك كنت بهذا تعدين الدفاع عن موريس !

ـــ بهذا ؟ ـــ اجل ، فدعينى أنصرف للعمل .

وما ان ابتعدت حتى ناداها ثانية وقال : « لدى أمر آخر اريد أن أقوله لك يا مرجريت » .. فارتدت إليـــه الفتـــاة مسرعة . وقبل أن يتكلم أخذ يغمرها بتلك النظرة الأبوية التى تهب دون أن تأخـــذ ، وتذود دون أن تحتقـــد . وتأمل هدوء اساريرها وشحوبها وحلاوة ملامحها. ثم قال : « لقد صادفت ريمن بيرسى وأنا الج الدار يا صـــغيرتى .. كان فى الطابق الأسفل ، على عتبة البـــاب الخارجى ، جامدا بلا حراك ، مستغرقا فى التفكير ، مضطربا .. ولقد تقدم نحوى خطوة ، وكأنه يريد ان يتحدث إلى . ولكنه لم يجد الفرصـــة ، لأننى سرعان ما تجاوزته ! » .. فلم يبد على الفتاة اى تأثر ، بل اجابت : « لقد كان منصرفا من هنا يا أبى » .

ـــ آه ، وماذا كان يبغى ؟ ـــ أن يقف بجوارك غدا .

ـــ يا لها من فكرة !.. وبأية صفة ؟

ـــ بوصفه أبنا لك . ـــ ابنا ؟ إذن فقد طلب يدك ؟

ولمـــا اجابت الفتاة : « نعم » ، هتف : « ومع ذلك فانك اخفيت عنى النبأ .. لقد رثى الله لحالنا يا مرجريت .. لقد اشفق علينا لفرط ما مسنا من محن ! وأن تصرف ريمون بيرسى لنبيل ، فهو لم ينتظر حتى نبرأ امام الرأى العام من كل اتهام ثم يعود إلينا !.. وبماذا أجبته؟ » . فقالت : « لقد رفضت ! » . وإذ ذاك اجفل السيد روكفيار فى دهشة ، ثم جذب إليـــه ابنته فى حنان ، وراح ينظر إلى اعماق عينيها الصافيتين . وقال : « رفضت ؟ ولمـــاذا ؟ أستطيع أن أحدس السبب : لقد فكرت فى أمرى يا عزيزتى ! إنك تضحين بنفسك من أجل أبيك ، ولكن أباك يرفض هذا يا عزيزتى ، فلطالمـــا قلت لك إن الآباء يضعون حياتهم فى المرتبة الثانية بعد حياة ابنائهم .. هـــذا هو الأمر الطبيعى ، والعكس خطأ ! » . فتمتمت الفتاة قائلة : « لكم احبك يا أبت ، وإنك لتدرى ذلك . ولكنـــك تخطىء فى حدسك ، واقسم لك !

ـــ الم يكن الرفض من اجلى ؟

ـــ لا ، يا ابت !

وتبين على الوهج النقى ـــ الذى كان ينبعث من عينيهـــا الصافيتين وينعكس على الوجه الشاحب ـــ حقيقـــة نفس ابنته . الم تسنح له الفرصة ، مرة قبل اليوم ، كى يفهم هذه الحقيقة ؟ كان الله ينتزع منه أولاده واحدا بعد آخـــر ، فأية حمى تلك التى كانت تستبد بهم وتكويهم وتدفعهم إلى الزهد

فى الحياة ؟! الم يكن خليقا به ان يرى فى هذه القرابين المتعاقبة كفارة عن المذنب ؟!.. وتذكر إذ ذاك صباح يوم من أيام الصيف ، وقد وقف على ميناء مارسيليا يرقب — على بواكير ضوء النهار الوليد — تلك الباخرة التى اقلت ابنته فيليسى إلى الصين . ولم يتمالك أن ضم مرجريت بقوة إلى قلبه المرتجف ، وتمتم : « انت ايضا ؟ » . فطوقت عنقه ، وهمست فى اذنه ، وهى تقبله : « ليس الآن يا ابى » .

— أتنتوين ذلك بعد موتى ؟ — نعم !

واستبقاها برهة متكئة عليه كما تفعل الطفلة المدللة .. وكما كانت تفعل فى الايام الخوالى ، حين كان يمسك بها فى حذر . واخذ يفكر فيما كان يشعر به وهى ما تزال بقربه .. وتردد فى أن يقبل منها تلك المهلة التى انبعثت عن إشفاقها من أن تتركه وحده . ولكن مرآة كانت فى مواجهته عكست امامه صورة تلك الوحدة التى جمعت بينه وبين مرجريت . ولمح بنظرة واحدة ما اعترى وجهه من تغيرات خلال العام الاخير ، ثم قال لنفسه : « غدا سأكون قد انقذت موريس ، وبذلك تنتهى مهمتى . ولن اعمر بعد ذلك طويلا ! » .. وانحنى على ابنته فلثم وجهها الحبيب ، إشارة إلى موافقته . ثم عاد إلى الفكرة الرئيسية التى كانت تختمر فى راسه ، فطرح العواطف جانبا ، وشرع يتأهب للمعركة ، وهو يقول : « اعدى العشاء فى الساعة الثامنة . إن امامى عملا يستغرق حوالى الساعتين ، هما الفترة اللازمة لاستعادة تفصيلات هذا الملف ، وإن كنت اعرفها . ولسوف آوى إلى فراشى فى الساعة

التاسعة ، لأستيقظ فى الثالثة صباحا . ثم أعد دفاعى من الثالثة حتى التاسعة .. أى إلى ما قبل بدء الجلسة ! » .

— حسنا يا أبى . لقد تسلمت خطابا من جيرمين .. أن قلبها معنا !

— أقرئيه على اثناء تناول العشاء .

— ولسوف يحضر شارل غدا بقطار الساعة الواحدة ، فليس بوسعه ان يأتى قبل ذلك .

— سأنتظره ! — والآن أتركك يا أبى !

وما أن اغلق الباب خلف مرجريت ، حتى أمسك فى وجد بصورة لهوبير كانت على المنضدة ، فتأمل طويلا رسم ابنه الاكبر ، وقال فى سريرته يخاطبه : « أغفر لى لأنى اقصر كل تفكيرى على أخيك . غدا أناديك ، وأتحدث إليك ، وابكيك .. فلا تخش أن انساك ، ولكنك ترى أننى لست حرا .. غدا سأخلو إليك . أما الليلة فإننى ملك لسلالتنا بأسرها ! » .. ووضع الصورة أمامه فى رفق ، وطوى لوعته إزاء الضرورة الملحة .. وانهمك فى العمل .

٧ — جان ساسيناى

مثلت مرجريت روكفيار أمام المحكمة ، إطاعة لأبيها ، فأدلت بما كان لديها من بيانات عن المال الذى كان معدا لجهاز عرسها ، والذى أسلمته إلى أخيها موريس ، فى ليلة رحيله إلى إيطاليا .. وعن المال الذى أرسلته إليه فى (أورتا) ، ثم عادت إلى دارها فى عجلة ، وكأنما طغى عليها الخجل إذ ألقت

ضوءا على جودها وسخائها !.. لقد استطاعت بهذا الجهد المحدود أن تساهم فى الدفاع عن المتهم !.. وراحت تلوم نفسها على ما اعتراها من ضعف ، وما تولاها من خجل وارتباك وهى تجيب عن أسئلة رئيس المحكمة .. فقد كانت تضمر مروءتها فى أعماقها ، وكان إظهارها للملأ لا يروق لها. واخذت تنعى على نفسها تواضعها الذى تراءى لها كما لو كان جبنا ، فخشيت أن تكون قد أساءت بترددها إلى ما كانت ترمى إليه من جعل شهادتها واضحة صريحة .

ترى ما الذى جرى قبل دخولها إلى قاعة الجلسة ، وبعد خروجها منها فى عجلة ، كما لو كانت هاربة ؟.. لم تكن تذكر شيئا من هذا ، وكان ما تذكرته هو ذلك الوجل الذى استحوذ عليها من جراء هذا الاتصال القصير بالعدالة ، والذى لم تستطع أن تتغلب عليه . فما أن ضمها مع الشهود الآخرين المكان المخصص لهم ، حتى سمعت الحاجب يستدعيهم واحدا بعد آخر ، ثم رأتهم يختفون .. وكان عم أبيها « اتيين » ، وزوجة عمها « تيريز » من بينهم . وظلت وحيدة قريبا ، حتى حل دورها ، فاقتيدت إلى قاعة الجلسة . وكالممثلة الجديدة حين يدفع بها على المسرح ، راحت ترتجف وهى تلمح الحشد الذى زخرت به القاعة : تحت المنصة التى فى الصدر ، وفوقها ، وفى القاعة ، وفى الشرفة .. كانت ثمة أنظار كثيرة تحدق فيها وكأنها تخزها وتجرحها .. كانت بلدة (شامبيرى) بأسرها هناك ، تحملق فى غير إشفاق ، فى ابنة وجلة ، ولعلها ستحملق بعد قليل بنهم فى أسرة عريقة تحتضر !

والفت نفسها أخيرا أمام ثلاثة قضاة فى زى أحمر ، وإلى يمينهم مقاعد المحلفين . وكادت تسقط على الأرض وهى تذكر اسمها ، لولا جلجل فى أذنيها صوت أبيها .. هذا الصوت العذب ، الدافىء — الذى كانت تألفه — فشد من أزرها فى الحال ، وكأنه دواء مقو للقلب !.. وكان المحامى يقف أمام موريس وكأنه يحميه .. وكان هادئا إلى درجة أدهشتها ونقلت إليها عنه عدوى الطمأنينة . وكان يملى فى نبرات واضحة صيغة السؤال الذى يريد أن يوجهه إليها . ولقيت عناء فى سبيل الإجابة بوضوح ، ثم أذن لها بالانصراف ، فانطلقت إلى خارج القاعة كصيد يلوذ بالغابات ، وهى تلوم نفسها قائلة : « لن يرضى أبى عنى .. ما أقواه فى اعتداده وطمأنينته !.. وما أعظم تمالكه نفسه ، وما أشد مهابته ! لقد نهض مرتين فأحسست فى كل مرة بصمت عميق يسيطر على القاعة .. وكانت عيناه تشعان لهيبا .. وكان يبدو شابا .. إنه قوتنا وعمادنا ! » .

وعاد السيد روكفيار — فى منتصف الساعة الواحدة — للغداء ، فما أن بلغ الباب ، حتى قال للخادم : « أعدى لنا الطعام بسرعة يا ميلانى : فانى فى عجلة ! » .. وكانت تبدو عليه سيماء المجاهد : فقد تجعد جبينه ، وانطلقت نظراته سديدة ، لا سبيل إلى تحاشيها ، ومن الصعب الصمود لها ، بينما تقلصت عضلات وجهه .. كانت الليالى الأخيرة التى قضاها مسهدا قد تحالفت مع الأسى والقلق فمكنت للشيخوخة من أن تدب إلى قسماته ، وإن كانت إرادته

الفولاذية قد حدت مؤقتا من أثر تألب السنين والتعب والحزن عليه !.. وسألته مرجريت فى رجاء : « ما الأنباء يا أبى ؟ ». فقال مطمئنا : « ستستأنف الجلسة فى الساعة الثانية » .

ــ ألم تنته القضية ؟ ــ لا ، لا .

ــ وما الذى جرى ؟ ــ كأنك لم ترى شيئا .

ــ أوه ! لا يا أبت . لقد غادرت المكان ، فقص على كل شىء .. الا انظر ، اننى أرتعش !

ــ ينبغى الا ترتعشى يا مرجريت .. كونى واثقة !

وخلال تناول الطعام ــ بسرعة ، ودون شهية ــ شرع يلخص لها المناقشات : « لا شك انك لم تفهمى شيئا من الإجراءات الرسمية الخاصة بالمحلفين ، وبحلف اليمين ، وبالاتهام ، وباستدعاء الشهود ! » . فقالت : « لقد كنت على مقربة منك فى القاعة يا أبى . وعند ما نودى اسمى نهضت وأرشدت إلى حجرة أخرى ، وجدت بها العم أتيين والعمة تيريز » .

ــ هذه كانت قاعة الشهود . لقد ابتدأت أقوال الشهود بعد قراءة قرار الاتهام ، والمحضر الذى أعده رئيس البوليس عن سرقة المائة ألف فرانك ، واستجواب موريس الذى أصر على أنه برىء ، ورفض أن يتهم أحدا برغم إلحاح رئيس المحكمة .. ثم شهود الإثبات . ولقد كان رئيس كتبة فرازن أكثر الناس تحاملا على موريس . إن هذا المدعو فيليبو يكرهنا لسبب أجهله ، إذ أدلى بشهادته وقد استبد به سعار التشهير والتعريض ، وراح يورد قرائن اخترعها وفسرها وفق هواه ــ فى خبث ولؤم ــ وصاغها فى شكل أدلة لا تقبل الدحض !

وتساءلت مرجريت : « وما هذه القرائن ؟ » . فأجاب : « معرفة وجود نقود فى الخزانة الحديدية ، وإمكان اكتشاف الأرقام السرية لقفل الخزانة ــ من المفكرة ــ وإن لم يستطع إقامة دليل على ذلك .. ثم بقاء موريس فى المكتب ومعه المفاتيح إلى ساعة متأخرة من الليلة التى سافر فيها إلى الخارج .. واستحالة تصور وجود متهم آخر .. وغير ذلك. ولقد ردد الكتبة الآخرون شهادته كتلاميذ يرددون درسا لقنوه ، ولكنهم كانوا أقل تفصيلا وتأكيدا . وحان فى النهاية دور خادم مدام فرازن ، التى أغروها ــ ولابد ــ بالمال ، لأنها ادعت بأن سيدتها لم تلج حجرة المكتب قط ، فى غياب السيد . ولكن ، أية قيمة لهذا ؟ أكان على مدام فرازن أن تستدعى خدمها كى يشاهدوا عملية اختلاس المال ؟.. على أنى مضطر إلى الا أتهمها أنا الآخر ! » .

ــ ولكن موريس لم يعد يعارض فى ذلك ؟

ــ لن أفعل ذلك . لقد دفعنا مديته ، وليبق السر دفينا إلى الابد !.. ولقد ذكرت اسمك واسمى عمك أتيين وعمتك تيريز كشهود نفى ، لأثبت أن موريس لم يسافر وهو معدم بلا مال . كذلك ذكرت اسم الموظف الذى يعمل فى شركة الائتمان ، الذى سلمك فى آخر أكتوبر الماضى إذنا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك تصرف باسم أخيك من المصرف الدولى بميلان .. وأخيرا ، اسم الأستاذ دودان الموثق .

فتساءلت مرجريت : « ولم ذكرت هذا الأخير ؟ » . فقال : « ليبين حقيقة المائة ألف فرنك التى دفعتها عن طريقه للسيد

فرازن ، واسم المشترى الحقيقى لمزرعة البرج . ولقد أحله الرئيس – بعد مشورة السيد لاتاش ، رئيس غرفة الموثقين – من سر المهنة ، فاستوجب هذا أن يكشف للمحلفين عن الصفقة الرابحة التى دبرها السيد فرازن » . فسألته الفتاة : « إذن ، فالسيد فرازن هو الذى اشترى المزرعة ، لنفسه ، وليقيم حيث كنا ؟ » . فسألها الأب بدوره : « أو لم تعرفى هذا ؟ » . فأجابت : « ما كان ليخطر ببالى .. وما أكثر الأشياء التى لا افهمها ! .. لقد كان يبدو عليه – فى موسم حصاد العنب الماضى – الاهتمام بالاستقصاء والتحرى .. كان مهتما بكل شىء ! » .

– أجل يا صغيرتى .. إنه هو الذى سيحل محل آل روكفيار ، ويستأنف عملهم . لقد استولى على كل شىء ، دون مقابل !

ثم استأنف الحديث بعد هذا التعليق المرير : « لقد بدأ محاميه الكلام فى الساعة الحادية عشرة » . فسألته : « وأى محام هو يا أبى ؟ » فأجاب : محام يدعى بورتيريو ، من ليون . فإنه لم يوفق إلى محام من شامبرى ! » .

– مراعاة لخاطرك ؟ – بلا شك !

– وما الذى جرؤ على قوله ؟

– إنه رجل ماهر ، بارع الإشارة ، عنيف فى اتزان وبرود .. ولقد شرع يرسم لموريس صورة مغرضة ، تمثله كشباب اليوم الذى لا يقوى على كبح جماحه شىء ، ووصفه بأنه متطرف فى تفسير حقوقه الفردية ، حريص على تنمية شخصيته وعلى الفوز بسعادته ولو داس فى سبيل ذلك سعادة

سواه ، ويأبى الانضواء تحت لواء مجتمع منظم، وإنما هو – فى النهاية – من أولئك المثقفين ، الفوضويين ، القادرين على أن يتجاوزوا نطاق الأفكار ، إلى نطاق الاعمال . واستطرد يقول: « سلوا زملاءه وأصدقاءه .. إنهم لا يستطيعون أن ينكروا أنه لم يكف فى مناقشاته قط عن ازدراء وهدم الأوضاع القائمة ، وأنه يقصر إعجابه على النظريات الهدامة التى ينادى بها فيلسوف ألمانى يرى أن المثل الأعلى للإنسانية – أى الرجل المثالى – هو ذاك الذى يبنى صرح سعادته على أنقاض وآلام الصغار ، والعزل ، والضعفاء ! .. ومن ثم لم يوفق المتهم إلى التفاهم مع أبيه ، لأنه كان يضيق ذرعا بسلطانه عليه ! » .

فتمتمت مرجريت مستنكرة : « أقال هذا ؟ » . فأجابها أبوها : « أجل ، فأنا أوجز لك ما قال .. لقد اتخذ منى حجة ، ومن أسرتنا حجة أخرى تذرع بها ليزعم أن المتهم لا يستطيع أن يلتمس لنفسه عذرا ، متعللا بسوء تربية ، أو بنقص تعليم ، أو بقدوة سيئة ، أو بطفولة تعسة تملأ نفسه مرارة إلى الأبد .. ولست أحب أن أروى لك ما صور به إغراء الشاب لمدام فرازن ، من أجل مصلحته الشخصية » . فهتفت الفتاة : « مصلحته الشخصية ؟ » . فأجاب أبوها : « أجل ، فان موريس فى استهتاره بجميع القيم الخلقية – كما صوره المحامى – اشتهى المرأة والمال معا ، دون وازع من ضمير .. ولما تمكن الأستاذ بور تيريو – أو ظن أنه تمكن – من أن يجعل سوء استغلال الثقة أمرا ملموسا ، طرق موضوع الاتهام ، وتلك التى لم يتورع عن أن يسميها بالأدلة المادية : مدام فرازن توافق على الرحيل ، والزوج غائب ، واليوم مناسب ،

والساعة ليس لها مثيل . ولما كان العشيق لا يملك ثروة خاصة ، فلا بد من أن يبحث عن نفقات الرحلة .. وهو يعلم بوجود المبلغ الذى قبض ثمنا لمزرعة (بيلفاد) ، وقد اكتشف الرقم السرى فى مفكرة ، فعمل على أن يستولى على المفاتيح ودبر البقاء بمفرده فى المكتب ، ثم اخذ المبلغ وفر مع عشيقته إلى الخارج .. فهو ليس المذنب الوحيد فحسب ، بل لا مذنب هناك سواه ! » .

وسألته مرجريت : « ومدام فرازن ؟ » . فقال : « مدام فرازن ؟.. ليتهمها .. ليجرؤ على اتهامها !.. لقد لاذ بالصمت فى التحقيق ، وهو يتشبث به فى الجلسة .. إننى أتحداه أن يتهمها ! » .. « هكذا قال المحامى الذى علم ولابد — عن طريق عدم حيطة باستار ! — بعناد موريس الكريم . واستطرد مبينا ان هذا الصمت يدينه ، لانه بمثابة اعتراف !» .

وغادرا قاعة المائدة إلى غرفة المكتب . وكانت مرجريت تسمع خلال هذا التلخيص اللاذع — الذى حرص أبوها على سرده بأمانة — هدير الغضب والأسى الأبويين ، فذعرت وتمتمت : « أنعتبر فى حكم الضائعين يا أبى ، أم ما يزال لديك أمل ؟ » . فأجاب : « بل ما يزال لدى أمل » . وعادت تسأله : « ومتى تنتهى القضية ؟ » . فقال : « سيستأنف السيد بورتيريو مرافعته فى الساعة الثانية .. بعد أربعين دقيقة » . فهتفت : « الم يكتف بما أساء به إلينا ؟ » .

— لا يبدو عليه ذلك . فان لديه حجة أخيرة يريد أن يسوقها .

وتساءلت مرجريت فى قلق : « وما هى ؟ » . فأجاب السيد

روكفيار : « ما يعتبره اعترافا جديدا ، ممثلا فى تسديدى مبلغ المائة الف فرنك ، واعتقد ان دورى سيحين قبل الساعة الثالثة . وفى الرابعة ، او الرابعة والنصف ، أكون قد فرغت من مرافعتى » . ثم أردف متظاهرا بهدوء البال : « إن قطار شارل يصل فى الساعة الواحدة . فلا بد من أن يكون زوج اختك قد وصل » .. وفعلا ، لم يلبث شارل مارسيلاز أن طرق الباب بعد قليل . واقبل على حميه ، قائلا : « ما الأنباء يا أبى ؟ لقد بكت جيرمين وهى تودعنى — فى هذا الصباح — فحذا الأولاد الثلاثة حذوها . إن البرقية التى ارسلتها امس احزنتنا كل الحزن . يا لهوبير المسكين ! » .

— لقد كنت فى انتظارك يا شارل ، فان مكانك إلى جوارى .. ستطلعك مرجريت على الأنباء ، ريثما تتناول غداءك . فاتركانى بضع دقائق ، وكن مستعدا يا شارل فى الساعة الثانية إلا خمس دقائق .

— لسوف تجدنى متأهبا . آه !.. أريد أن انبئك باننى دبرت إجراءاتى لأرد لك نصف صداق جيرمين ، على أن ادفع الباقى فيما بعد .

وكانت لهجته تنم عن عدم الرضى ، كمن لم يألف فعل الخير ، ومن ثم فهو يفعله مكرها !.. كان تيار الصالح العام قد جرنه ، ولكن عقله ظل يعترض ، وإن أبى أن يعلن تخلفه .. على أن السيد روكفيار قال له : « لست أقبل » . وكان تأثره بهذه التضحية أقوى من تأثره بالعوامل المعارضة التى اكتنفتها وحاولت منعها ، فأردف : « الا تبنني ! » .. وهكذا توثقت عرى الألفة بين الأسرة فى البأساء ..

وخلا المحامى إلى نفسه ربع ساعة ليستجمع الحجج التى سيسوقها فى مرافعته .. وكان ما رواه لابنته ، فى ثورة نفسية عاتية ، قد خفف من الغضب والهوان اللذين تكاثفا فى نفسه منذ الصباح، وهو يصغى إلى الاتهامات المشينة التى وجهت إلى ابنه . لذلك استراحت أعصابه ، وانفثأ غضبه كبحر تعاوده السكينة بعد هبوب الريح !.. وعندما حانت اللحظة التى كان عليه أن يعود فيها إلى دار القضاء ، تبينت مرجريت فى أساريره أنه صار أهدأ نفسا .. ورأت فى نظرته ذلك الصفاء الذى عاد به من المزرعة ليلة أمس .. فقالت تودعه : « إلى المساء يا أبى .. وليساعدك الله ! » . فأجاب مسرعا وقد بلغ الباب الخارجى : « إلى المساء يا صغيرتى .. مع موريس ! » .

* * *

ما احتبست الفتاة نفسها فى غرفتها لتصلى ، حتى أقبلت جان ساسيناى تنشد مقابلتها قائلة للخادم : « الآنسة مرجريت : من فضلك » .. ولما كانت الخادم قد أصبحت أكثر صلابة ويقظة ، منذ الوقت الذى أصر فيه ريمون بيرسى على مقابلة مرجريت ، فقد رفضت فى إصرار أن تجيب هذا الطلب غير المناسب ، قائلة : « إن الآنسة متعبة ، وهى لا تستقبل أحدا » . فهتفت الزائرة : « فليكن .. ولكنى سأراها برغم ذلك » . وأزاحت الخادم المشدوهة عن طريقها ، قبل أن تتمكن هذه من أن تعترضها ، وركضت فى الردهة نحو غرفة صديقتها — وكانت تعرف موقعها — ثم راحت تطرق الباب فى عجلة ، وولجت فألقت بنفسها فى أحضان مرجريت



ثم راحت تطرق الباب فى عجلة ، وولجت فألقت بنفسها فى أحضان (مرجريت) ..

هاتفة : « انا القادمة ، فلا تطرديني .. ليس لميلاني ذنب في ذلك ! » . وصاحت مرجريت : « امذه انت يا جان ؟ لماذا اتيت ؟ » . فأجابت الفتاة : « لانك وحيدة مهمومة .. إن هناك عددا كبيرا من السيدات اللاتي ذهبن إلى الجلسة وكأنهن ذاهبات إلى حفلة للهو والسمر . أما انا ، فقد رأيت أن مكاني هنا ، بجوارك . إنني احبك كل الحب » غربتت مرجريت خد صديقتها قائلة : « ما أطيبك ! » .

— آه ، لا ! كل ما هنالك هو أنني اكن لك ودا كبيرا .. لقد كنت اعجب بك منذ صغري ، ولكم أود أن اكون مثلك !

وغيرت الفتاة مجرى الحديث فجأة ، إذ قالت وكأنها تسر إليها بأمر خاص : « تصوري انهن اتخذن أبهى زينة ، ليذهبن إلى دار القضاء .. تماما كما لو كن ذاهبات إلى حفلة صباحية ! » . فتساءلت مرجريت : « من ؟ » .. وأجابت الفتاة : « هؤلاء السيدات ! » . فقالت الآنسة روكفيار في حسرة : « أجل .. إن الأمر يمس شرفنا ، ومن ثم فهو مشهد ممتع ! » .. فأمسكت جان ساسيناى بيدها وقالت : « أما أنا فلا يساورني أي قلق » ، ثم أردفت في لهجة المسيطر الذي يحسم نزاعا : « وعلى العموم ، فباى وزر خطير يؤاخذ اخوك ؟ .. ابانه اختطف امراة ؟ .. ليس هذا بوزر يذكر ! » .. وابتسمت مرجريت بالرغم من حزنها ، فتشجعت صديقتها على المضي في حملتها : « إنك لتفهمين جيدا أن المراة لا تنتزع كما تنتزع الشائبة عن الثوب ! .. إنني أنسب أظافري فيمن يقدم على اختطافي ، وأعضه ، والحق به ضررا جسيما .. ما لم

اكن راغبة في الرحيل معه ! » .. فهتفت مرجريت : « صه يا جان ! » .

— آه ! من يدري ؟ إن المرء إذا أحب صار قادرا على كل شيء .. فالحب شيء فظيع !

— وما الذي تعرفينه عنه ؟

— ولم لا أعرف عنه شيئا ؟ .. إنني لم أعد صبية صغيرة !

وضغطت الآنسة ساسيناى قبعتها التي فقدت التوازن فوق شعرها الأصفر ، ثم اخذت تنسق الخصلات التي تهدلت على جبينها ، وتصنعت شرود البال ريثما تتغلب على حمرة الخجل التي سرت في وجهها ، ثم تساءلت : « وهذه المراة الشريرة ، اتظنينه لم يعد يحبها ؟ » . فقالت مرجريت : « موريس ؟ .. لا اظن ! » .

— اواثقة انت ؟

— إنه لا يتحدث عنها .

— او لم يرها احد بعد فرارها ؟

فاجابت الآنسة روكفيار : « لا » . فاندفعت جان تقول : « هذا افضل ! إنني أكرهها ، فهي — أولا — لم تكن جميلة إلى هذا الحد . صحيح ان عينيها كانتا جميلتين ، ولكن نظراتهما كانت متكلفة . ولقد كانت لها ابتسامات ، وغمزات ، وتكلف مغر ، وفن في تصنع اوضاع رأسها على عنقها ، وهزات أكتاف وارداف » .. ونهضت عن مقعدها بسرعة ، وراحت تسير في الحجرة مقلدة مدام فرازن ، ممثلة حركاتها وإشاراتها العصبية التي كانت تنم عن فورات داخلية . فصاحت مرجريت : « جان .. ارجوك ! » . ولكن الفتاة استأنفت

حديثها ، وقد استبد بها الحماس ، قائلة : « لا ، لا ، أؤكد أن السمراوات لا يضارعن الشقراوات ، لا في اللون ولا في البهاء . فأنت بشعرك الكستنائي تجمعين جمال النساء جميعا .. ولكنك لا تتكلفين ولا تتصنعين .. ثم أنني اكرهها ! » .

— ولكن .. من تقصدين ؟

— مدام فرازن . لأنها امراة مشئومة ، تجلب النحس . ولقد أصاب أخاك من ورائها شر وبيل !.. لقد اشتقته ، ولم تكن تحبه ، فهي الجديرة بأن تلقى في السجن . أما أخوك ، فسوف تبرأ ساحته . ولعلك تعلمين أن أبي وأمي يتحمسان له . وقد كان والدي ينفر منه ، ولكنني انبته ولمته . ولكم أود أن أراه مطلق السراح . فاذا تحقق ذلك ، فهنئيه عني .. لابد أن الأمر سينتهي على خير وجه ، فيقضى ببراءته .

وكانت تثرثر دون توقف ، فقاطعتها مرجريت في لطف : « هل تحبين أن تصلي معي يا جان ؟ » . فأجابت الفتاة : « إذا راق لك ذلك » . ومن ثم جثت الفتاتان جنبا إلى جنب ، ولكنهما لم تكادا تشرعان في صلاتهما ، حتى دوت طرقات على الباب . وإذا الخادم تقول وهي تدفع إلى الآنسة روكفيار ببضع رسائل : « البريد يا آنسة » . وهنا قالت مرجريت لصديقتها : « أتأذنين لي ؟ إن اليوم هو الموعد الذي اعتدت أن أتلقى فيه خطابات هوبير . آه ! ها هو ذا خطاب منه .. لقد كنت ارتقبه ! » . وبيد مرتجفة فضت غلاف الخطاب الوارد من السودان . وهكذا اشترك الضابط الشاب في مأساة الأسرة من وراء حاجز الموت !.. وما أقل الأمور التي تهز

المشاعر قدر ما يهزها أدلة الود من أولئك الذين لم يعد لهم وجود ! وأفلت من مرجريت ذلك التجلد الذي كان يبديها — حتى ذاك الوقت — في مظهر من الهدوء والسكينة ، فأرسلت صرخة مفعمة بالأمل ، وهي تتلو الخطاب . ولاذت جان بالصمت وقد تغلب عليها الارتباك ، فلم تجد ما تواسيها به .

ولكن مرجريت ما لبثت أن تمالكت جأشها من تلقاء نفسها ، فما كانت تلك ساعة البكاء أو الاستسلام للأحزان .. ألم يرسم لها أبوها خير مسلك يحتذى ؟

وتمتمت مرجريت : « هوبير ! » ، وبدا عليها برهة أنها كانت تفكر فيما يجب أن تفعل ، ثم هتفت : « يجب .. يجب أن اذهب إلى دار القضاء في الحال » . فسألتها جان : « ولماذا ؟ » . وكان الجواب : « آه ! لأن هوبير كان هو الآخر يفكر فينا ! » . وحملقت فيها جان مذهولة ، وغمغمت : « هوبير ؟ » .

— أجل ، كان يعرف أنه موشك على الموت ، وقد حاول في بداية الخطاب أن يموه علينا ، وأن يدخل علينا السرور . ثم .. ثم كتب .. إليك ما كتب . يا إلهي ! أن عيني لم تعودا تبصران .. إليك : « ومع أنني مضطر إلى البقاء هنا ، دائما ، إلا أنني سأجود بحياتي ضحية من أجل اسمنا ، ومن أجل سلامة موريس ونجاته .. » ، ومن ثم ترين أنني مضطرة للذهاب إلى دار القضاء ..

وانفجرت جان باكية . وكان التحمس قد بلغ بمرجريت مداه ، فقالت وهي ترتدي قبعتها وقناعها : « إنني واثقة من

ان أبى فى حاجة إلى هذا الخطاب ، ومن ثم لا أملك ان أحجم عن الذهاب ! » .. لقد كان من خصائص الأسرة ان ثمة رباطا غامضا يربط — عبر الزمان والمكان — بين أمواتها وأحيائها !..
وقالت جان — فى إصرار — بدورها : « سـأصحبك ! » .
فهتفت مرجريت : « أجل ، تعالى ! سـأزداد شـجاعة فى صحبتك ! » . واندفعت الفتاتان إلى الخارج ، واجتازتا موقع القصر الذى كانت واجهته القاتمة تتدفأ تحت شمس الشتاء . وسلكتا دروبا تساعد على تقصير المسافة . حتى إذا اجتازتا ساحة السوق ، أشرفتا على دار القضاء فى دقائق قلائل .
فسألت مرجريت حارس الباب فى أدب : « أين تعقد الجلسة يا سيدى ؟ » . فأجاب : « هنـاك يا سـيدتى ، فى الطابق الأسفل . ولكن القاعة مكتظة ، ولن تستطيعا الدخول » .
فقاطعته جان ساسيناى قائلة : « بل لا بد لنا من الدخول ! إن معنا خطابا .. مستندا هاما يجب ان نسلمه لمحامى المتهم » .
— مستحيل يا سيدتى ، فقد بدأت المرافعة ، والوقت جد متأخر . ولكن ، من تكونان ؟
فرفعت أخت موريس النقاب ، قائلة : « الآنسة روكفيار » .
وإذ ذاك قال الحارس : « آه ، لا بأس .. اتبعانى ! » . كان الاسم قد أحدث فى نفسه مفعولا عجيبا ، فقادهما إلى الباب المخصص للشهود ، وقال : « ما عليك سوى أن تفتحى الباب يا آنسة ، فتجدين مقاعد المحامين أمامك .. إلى اليسار قليلا . وبعد ذلك ، اخرجى من الباب عينه ، ما لم تجدى مكانا خاليا لتجلسى فيه ! » .. ولما كان الحارس فى خوف من تصرفه ،

فقد أردف قائلا وهو يترك الفتاتين : « أرجو — بوجه خاص — الا تذكرا انى انا الذى قدتكما إلى هنا » .
وكانت مرجريت فى المقدمة ، فوضعت يدهـا على مقبض الباب . وسمعت حديثا فى القاعة . ولكنها لم تستبن صوت أبيها .. كان مصير موريس ، ومصير آل روكفيار ، يتقرران معا فى تلك الساعة . خلف ذاك الباب ! ولكنها كانت تحمل التميمة العظمى .. من لدن هوبير !

٨ — صوت الأموات

ودخلت الفتاتان . وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الثانية ، وقد أوشك الأستاذ بورتيريو ان يفرغ من مرافعته المسمومة المهينة ، ليترك الجمهور — الذى ضاقت به القاعة والردهة ، واختلط حابله بنابله — كى يلتهم كل فـرد منـه نصيبه من الأكلة الساخنة التى قدمهـا إليهم المحامى المحنك القاسى ، والتى صنعها من قلب آل روكفيـار النابض !..
وشوهدت الفتاتان تمشيان على وجل ، بعـد ان اجتازتـا الباب ، فقال الموثق كولانج : « إنهمـا قادمتـان للبحث عن زوجين ! » .. وكـان الموثق إذ ذاك يشرح — مع الأسـتاذ بابيه — ما كان يجرى فى الجلسة ، لبضع سيدات من الطبقة الراقية ، وقد خيل إليه ، إذ قال ما قال ، انه يتظـرف !..
وصاحت إحدى هؤلاء السيدات ، وهى تبدى اشمئزازا : « انظر إلى هذه الوقحـة ! » .. ذلك ان « جان » استهانت باحتقار البلدة كلها — بينما كانت مرجريت تسعى إلى أبيهـا لتسلمه خطاب هوبير — فاستدارت فى جراءة وهدوء ، بل فى

زهو ، نحو موريس روكفيار الذى كان يجلس فى مقعد العار ، وأومأت إليه بيدها وقد ارتسمت على فمها ابتسامة عريضة !

وكوفئت على جراتها فى الحال ، إذ رأت إشراقة العرفان بالجميل تسطع على وجه المتهم .. ذلك الوجه الذى أصابه الضمور والتغضن ، وكأنما كان يتقلص فى محاولته أن يظل جامدا تحت وابل السباب والتشهير . وسرعان ما أثار هذا الحادث تعليقات الحضور جميعا . ولما كانت مرجريت مطأطئة الرأس ، فانها لم تلق بالا إلى شىء مما حدث . وكانت هى الأخرى قد حيت أخاها ، ولكنها كانت أكثر تحفظا من زميلتها . ثم همست فى أذن هذه : « فلننصرف ! » . فأجابتها جان وقد تملكتها الرغبة فى حضور المناقشات : « أوه ! لا .. سأمكث ! » .

وأومأ لهما السيد روكفيار — بحركة سريعة — إلى مكانين خاليين فى مقاعد الشهود ، كى تجلسا . وكانت الشمس تنفذ خلال النوافذ الزجاجية ، ولكنها كانت بعيدة عن مقاعد المحلفين، فتركتهم فى الظلام لتلقى ضوءا على مقاعد القضاة ، والمحامى العام والمحامين والمتهم بوجه خاص ، وكأنها تبرز مشهدا يعرض فى مسرح . وهكذا ظهر الأستاذ بوتيريو وهو يهتز ويكرر اتهاماته ، مختتما مرافعته بملخص مركز لحججه ، وهو يضفى لهجة التأكيد تارة على قائمة من القرائن أخذ يكدس بعضها فوق بعض ، ويفسر تارة أخرى امتناع المتهم عن ذكر اسم مدام فرازن وسداد مبلغ المائة ألف فرنك بالكامل إلى السيد فرازن ، على أنها اعترافات لا تقبل الدحض . ثم انتهى إلى أن طالب — بعنف ! — بصدور حكم صارم رادع

علىُ هذا الشاب الذى احترف الحب النفعى ولم يتورع عن أن يسلب مع شرف المرأة خزانة الزوج !

ثم جلس المحامى وقد أثارت مرافعته المسهبة — التى ألقاها مبالغا فى اصطناع الاشمئزاز والغضب — همسات غامضة لا تحصى ، تشبه وسوسة الموج .. همسات تتناقل من شفاه إلى شفاه دون أن يعرف مصدرها . كانت المرافعة كوابل من السهام المسمومة تصوب تباعا ، وفى غير هوادة ، وفى اتجاه واحد .. بل من الممكن أن يقال إن المحامى كان يصوب سهامه إلى الأب ، وهو يتظاهر بتسديدها إلى الابن .. كان يصوبها إلى الأب — الذى أجبره الشعور بالعار على رد المبلغ — ويهدف من وراء تصويبها إلى أن ينال من الأسرة التى كانت تتمرغ ، مع ابنها المذنب ، فى الوحل !.. كان أقسى مما ينبغى على فريسته ، وأثبت أنه خصم عنيد لا يتورع عن أن يدوس جثث خصومه بقدميه ! والواقع أن الموثق أحسن اختيار المحامى الذى يتحدث باسمه ، فما كان يتصور أن يتدفق كل هذا السم وهذه المرارة من فم واحد !.. ولقد اضطر السيد روكفيار إلى أن يلتفت إلى ابنه وزوج ابنته — أكثر من مرة — ليهدئ ثائرتهما ، ضاربا بنفسه المثل فى الهدوء وضبط النفس أثناء العاصفة .

وقال رئيس محكمة الجنايات : « الكلمة الآن للمحامى العام » .. وكان صوته حزينا ، وكأنما أراد أن يقول : « ما الداعى إلى محام ثان للاتهام ؟ » .. ودفع الفضول المدعى العام — السيد فاليروا ، الذى كان يجلس وراء المحامى العام — إلى أن يميل إلى الأمام ليسر ببضع كلمات إلى زميله . ولكن

هذا أبدى ما ينم عن رغبته فى استبعاد رأى لا داعى له ، واكتفى بأن ذكر أنه يعتمد على تقدير المحلفين فى قضية رفعت بناء على شكوى المدعى بالحق المدنى ، وسبق للقضاء أن أصدر فيها حكما غيابيا . فما لبث الرئيس أن صاح فى لهجة قوية : « الكلمة للدفاع ! » ، وكأنه يبدى اغتباطه لإعفائه من الإصغاء إلى اتهام آخر . وهنا سأل الأستاذ هاميل زميله روكفيار — إذ كان يجلس إلى جواره : « أمستعد أنت ؟ » . فهتف السيد روكفيار . « بلا شك . ولماذا ؟ » .

— تكلم أنت أولا ، وإذا دعت الضرورة فسأحل محلك !

وأدرك السيد روكفيار أن النقيب الشيخ كان ما يزال يتأرجح تحت وطأة تقاليده العتيقة التى لا تسوغ له الدفاع فى أمثال هذه القضايا ، ولكنه ادخر جهوده ليبذلها إذا ما تعطل الدفاع بتأثير الانفعال والضعف والعجز ! على أنه وافق على اقتراح زميله قائلا : « حسنا ! » .

وفى خلال هذا الحوار المتبادل همسا بين الشيخين ، أخذت الأحاديث الخاصة بين أفراد الجمهور تزداد شيئا فشيئا ، هنا وهناك ، فتشيع فى جو المكان كما يشيع الغبار بعد مرور موكب ما : قال كولانج — الموثق الذى كان من أنصار السيد فرازن — معلقا على حملات محامى هذا الأخير : « لن يبرأ آل روكفيار قط من هذه الجراح ! » . فعارضه السيد بابيه — الذى كان حاضر الدعابة دائما : « أيه ! أيه !.. أنتظر رد الأب ، فلن تلبث أن ترثى للأستاذ بورتيريو ! » .. وعقب واحد من عامة الشعب — سمع هذا الحديث ، وكان من المترددين على قاعة محكمة الجنايات — فقال لجاره فى تحمس : « أجل .. إن

الشيخ لشديد المراس » .. وكان السيد بابيه فى تلك الأثناء يضحك ويقول فى إصرار : « سترى أنه يعرف كيف يعض ، وأنه حاد الأنياب » .. وتمتمت إحدى السيدات فى إشفاق : « لشد ما يبدو متعبا ! » . فقال السيد كولانج وهو يسوى هندامه الدقيق : « تريدين أن تقولى إنه يبدو منهارا .. إن شيخين لا يعادلان شابا ! » .. وأضاف بلهجته المبتذلة : « لا سيما عند النساء ! » . ثم أشار خلسة نحو المحاميين الشيخين وهما يتبادلان ملاحظاتهما ، وقد جلسا غير بعيدين عن السيد باستار ، الذى غاصت أصابعه فى لحيته ، وهو يتأهب متربصا للدفاع ، أملا منه فى أن يشهد روكفيار وهو يتداعى !

ورفع السيد روكفيار قلنسوته عن رأسه ، ثم نهض .. ونظر على التوالى ، وفى غير عجلة ، إلى ابنته وابنه ، فتزود مما كان يبدو عليهما من أمل وثقة به .. وسرعان ما سيطر الصمت : عميقا ، مثقلا بالانتظار الذى حبس على الحضور أنفاسهم وخفقات قلوبهم !.. كان وقوف هذا الرجل ذو الشعر الأشيب ، بل الأبيض تقريبا .. كان وقوف هذا الشيخ الذى تمثلت فى شخصه سلالة طويلة من الأجيال الشريفة ، وصفحات حافلة بالخدمات التى ظلت تبذل فى الحياة خلال نيف وستين عاما ، عن مواهب وإقدام .. كان مجرد وقوفه احتجاجا بليغا على السباب والتشهير اللذين خيل للبعض — أثناء مرافعة المدعى المدنى الطويلة — أنهما قادران على النيل من أسرته : ألم يذكر خصمه أن ثمن المزرعة دفع وفاء لمال لم ينفق جميعه بوساطة السارق ؟.. إن جميع المحامين من أمثال باستار — فى

العالم بأسره — ليعجزون عن سوق اعتراضهم بمثل هـذا الوضوح الذى ساقه روكفيار — ممثلا فى مجرد وقوفه ! — قبل أن يتكلم !

ودقت ساعة القـاعة مؤذنة بالثالثة ، فشد المحامى قامته — فى بطء — منتصبا ، ولاح رأسه مرفوعا وسط هالة من ضوء الشمس التى كانت قد بلغت من الشحوب درجة لا تجعل المرء يضيق بأشعتها . وتجلى الجبين العريض ، والقسمات الجميلة الحادة ، التى زادتها السن حدة وإرهافا ، والتى ظلت محتفظة بشممها وعزتها . وأضفى عليه شارباه — بشعرهما القصير الكثيف — منظر المناضل ، والزعيم الذى لا يتطلع إليه أمرؤ إلا واستمد منه شعورا بالقوة وحب الحياة ! أما اللهب الذى كان يتقد فى اغوار عينيه عادة ، والذى كان ينبعث منهما حادا قاهرا ، فقـد انقلب هادئا صافيا ، يوحى بالجلال بدلا من الرغبة فى الانتصار !

وقالت السيدة التى كان السيد كولانج يغازلها : « تقول إنه منهار .. الا انظر إليه ! » . فعقب السيد بابيه قائلا : « إننى لم اعد أعرفه لفرط سلطانه ! » . أما مرجريت والسيد هاميل ، فان يقظتهما والقلق المستحوذ عليهما كشفا لاعينهما الحماسة الخارقة التى تملكت روكفيار منذ نزهته فى المزرعة !

وبدأ الأب المحامى يتكلم بصوت خافت — بعض الشىء — مما أوحى إلى السيد باستار بخاطر جعله يقول فى رضى : « لقد فقد صوته المجلجل ! » .. ولكن الصوت وضح فجأة ، وكأنه دوى نفير شق الحجب ، لينادى الأموات على سـفوح التل الثلجية — التى كانت مستلقية تحت الظلام بالأمس — فيحشد

من أطيافهم جيشا يشد أزره !.. وأخذ صوت الشيخ يدوى منسابا وسط الصمت الحى ، الجاثم كالغيوم المتجمعة ، وكأنه قارب يشق البحر . وشرع يقول أن لابد من معرفة المتهم لكى يتسنى الحكم عليه .. وفى سـبيل معرفته ، لابد من تعقب الأصول التى نبت منها ، فان مصير الإنسان يختلف تبعا للبقعة التى نبت عليها ، وللأصل الذى انحدر منـه ، ولقدر مكتوب لابد لعزيمته من أن تستمد منه القوة والهدف » . فأنتم يا من تنتمون إلى سلالة أناس أشراف ، ويامن أسستم أسرات عريقة ، يجب أن تنصتوا إلى تاريخ أسرة عريقة قبل أن تنطقوا بحكمكم ! » .

وما كان فى وسع أولـئـك الريفيين القادمين من الســهل والجبـل ، والذين تألفت منهم هيئـة المحلفين .. ما كان فى وسعهم — بحكم طبيعتهم وتفكيرهم — أن يظلـوا بمنأى عن التأثر بهذه القصة الإنسانية الواقعية التى هزت حقيقتهـا عقولهم هزا عنيفا !.. وهكذا انطلق السيد روكفيار يروى تاريخ أسرته الطويل : فلقد غرس الجد الأول — حين أرسى أول حجر فى أساس البيت العتيق — جذور شجرة حياته ، فى الأرض التى صارت موطنـا لأسرته . وراح الشـيخ يسرد تاريخ جهود الأجيال المتعاقبة ، والعرق الذى سكب على الأرض المستصلحة ، والحوادث التى تعرضت لها والتى تسببت فى تلف المحصول تحت وطأة الصقيع ، والقناعة التى كانت تتقبل القليل فى رضى ، والاقتصاد الذى كان يعبد طريقا للمستقبل على حساب المتعة الشخصية والذى يعتبر مثالا للتجرد من المصلحة الخاصـة وينطوى على ثقة فى الذرية المقبلة !. هكذا سارت الحال فى المزرعة الجميلة ، التى كانت كرومهـا

وغاباتها وحقولها ومراعيها تنبت محصولا لا يتمثل فيه الدأب والاقتصاد والصبر على المشاق التي ناءت بها سلالة باكملها كانت تسير في الطريق المستقيم كالدوحة الباسقة.. إن الأرض المزروعة تتخذ شكل الوجه البشري ، فنحن حين نتطلع إلى ممتلكاتنا إنما نتامل وجوه اجدادنا !

ومع كل هذا ، فما الثمار التي اجداها العمل الذي اشترك في ادائه آل روكفيار ؟.. إن الأرض التي كانوا يمتلكونها ، باتت اليوم ملكا لخصمهم الذي استولى عليها بلا مقابل . افكان كد آل روكفيار وكفاحهم زهاء خمسمائة عام ، من أجل ان يقدموها هدية ؟.. لا ، إنما هم افتدوا بالميراث — الذي كونوه بالجلد والعناء — آخر سليل من ذريتهم . فمن الخاسر ، ومن السارق ؟.. إن السيد فرازن — في مقابل مائة ألف فرنك اختفت — تقبل ارضا تساوي ضعف هذا المبلغ ، فمن الذي اثرى ؟ ومن الذي فقد ثروته ؟.. فباسم الأموات الذين دفعوا الفدية ، يجب ان يبرأ المتهم !

ولكن ، اليست الأسرة قوة مادية ضخمة ، تتجلى — في ظاهرها — في توارث الارض ، وتمكن بصلابتها وتماسكها من المساهمة في تسديد ديون جزء منها بثمرة اعمال الجزء الآخر ؟ .. ثم ، اليست هي كذلك شيئا آخر ، اقل مادية وأكثر قداسة؟ اليست سلسلة متينة من التقاليد ، ومن الشرف المتوارث ، ومن الشجاعة والقناعة ؟.. فما جدوى تناقل الحياة من جيل إلى جيل ، إذا لم يكن من اجل احاطة هذه الحياة بإطار يليق بها ، يتمثل في مؤازرة الماضي ، وفي تهيئة مستقبل مشيد على اسس وطيدة ؟.. ذلك لأن تناقل الحياة تمكين للخلود !

ثم اخذ يروي الأعمال العامة ، وما كان لآل روكفيار من وجود نافع كان يرقى احيانا في نفعه إلى المجد !.. فذاك كبير العشيرة : وافته منيته وهو في مقر عمله أثناء وباء تولى إدارة المعركة ضده .. وذاك آخر أشرف — فيما بعد — على إدارة بلدة (شامبيري) أثناء فترة من القلاقل والاضطرابات ، فأنقذ ماليتها من اخطار كانت محدقة بها .. وهناك من كانوا منهم رؤساء امناء لمجلس اعيان (سافوا) ، ومن كانوا جنودا ماتوا وهم يقاتلون الأعداء في حروب طاحنة .. كانوا جميعا — سواء من لبسوا منهم أوشحة المناصب المدنية ، او من ارتدوا الثياب العسكرية — يحملون نفس القلب الجريء الباسل الذي طالما خفق بين جوانح الأجداد الأقدمين !..وكان هوبير آخر الجميع .. هوبير الذي لفظ انفاسه في خدمة الوطن ، وحيدا ، بعيدا عن ذويه ، في أرض عدوة ملتهبة ، وقد عبر عن رغبة الأسرة فيما كتبه ، قائلا : « إنني اجود بحياتي من اجل شرف اسمنا ، ومن اجل خلاص اخي ! » .. فهل في وسع امرىء أن يرفض هذا القربان وينسى القرابين السالفة ، التي تشهد بالفضيلة المتجددة في الأسرة عبر القرون دون انقطاع ؟.. إن مثلها في ذلك مثل النيران ، تطهر الحقول من الأعشاب اليابسة في الأمسيات !

وهكذا ألقى الشيخ في الميزان بفضائل الأسرة ، فرجح الكفة . وراح جيش الأموات ، الذي هبط بالأمس من مزرعة البرج وانتشر في الوادي الصغير خلال القمة لينضم إلى زعيمه الذي كان واقفا إلى جوار شجرة البلوط على هضبة (سان كاسان) . راح هذا الجيش يمر أمامه وكأنه في عرض عسكري !

وتحول السيد روكفيـــار يضيف إلى فضـــائل الأموات ، فضائل الأحياء ! فما كانت الساعة ساعة تواضع وإخفاء للحياة الخاصة : ففى مستشفى هانوى كانت فيليسى تثبت جدارة لا تقل عن جدارة اختيها اللتين ارتضـــيتا الفقر لتمحيـــا عن اخيهما مجرد شبهة الاختلاس .. إذ أن المبلغ الذى دفع إلى السيد فرازن لم يكن ــ وما كان من الممكن أن يكون فى نظـــر الأسرة والقضـــاة ــ ســـدادا لمبـــلغ أو اعترافا بجـــريمة ؛ وإنمـــا هـــو دحض قاطـــع لأى اشـــتراك فى الذنب ، ولو عن جهل أو غير قصـــد !.. واعتـــذر المحـــامى الأب عن اسهابه فى تعداد هذه الخدمات الكثيرة ، فقد كان فى تعدادها تانيب لخصـــومه على جحودهم .. ففى الجانب الآخـــر من القاعة ــ جانب الخصوم ــ اناس لم ينسوا هـــذه الخدمات فحسب ، بل إنهم لم يتورعوا عن اتخاذها ذريعة للتحامل على المتهم ، إذ كانوا يريدون أن يتسللوا إلى الماضى عن طريق المتهم المزعوم ، وأن يتخذوه معولا يحطمون به أمجاد هذا المـــاضى العريق ، وأبوا فى تعنت ظالم أن يبقـــوا عليـــه ليكون حمى للمتهم !.. على أن فضائل أية سلالة تظل تحميها ، إلى اليوم الذى تتكالب فيه المثالب فتجرفها ، وبذلك تكون السلالة قد اختارت سقوطها بنفسها !.. ولكن ، منذا الذى يجرؤ على الزعم بأن سيل المثالب قد جـــرف آل روكفيـــار ؟ أجل ، إن الأموات قد قدموا لآخر سلالة روكفيار ضمانا أدبيا ، كما قدموا له ضمانا ماديا تمثل فى التضحية بالمزرعة .. وإذن ، فلن يحكم قضاته بإدانته ــ ولو كان مذنبا ــ دون أن يتجنوا على العدالة ! ولكن ، كيف يمكن أن يكون مذنبا ؟ وكيف اســـتطاع سليل

أمثال هؤلاء الأشراف أن يتحول فى استسلام إلى مجرم ؟ وأية أدلة قاطعة تتقدم على جرمه ؟.. اى وزن لهذه القرائن الهزيلة ــ التى ساقتها المصادفات ، وجسمها تأويل الظروف ــ أمام قرائن أدبية ومعنوية تنساب من بيئته العائلية فى تدفق ميـــاه السيل ؟!.. أهى مفاتيح المكتب ؟ لقد تداولتها يد بعد يد !.. أهى الأرقام السرية ؟ وكيف بحث عنها المتهم ، وعثر عليها ، وغيرها .. ومتى سجلها الكاتب فيليبو فى مفكرته ؟!.. أم هى الحاجة إلى المـــال ؟ لقد دفع المتهم جميع النفقات الرئيسية والثانوية التى تكبدها فى رحلته ، إما من المال الذى حمله معه والذى اثبت التحقيق هنا حسابه ، وإما من المـــال الذى تلقاه فى (أورتا) . وقد شهدت بذلك أوراق حساب الفندق ، التى تسنى الحصول عليها !.. فما الذى فعله بالمـــائة الف فرنك إذن ، مادام قد دفع حميع نفقاته من المبـــالغ التى أمدته بهـــا أسرته ؟ وإذا كان قد أودعها مكانا ما ، كما اشير فى معرض التلميح ، فلماذا عاد وسلم نفسه لبسجن ، بمجـــرد ان علم بالحكم الذى صدر عليه غيابيا ؟

لم يبق شىء من أدلة الاتهام قائما ، سوى شهوة انتقام لم تقو على ان تقاوم شهوة الكسب الاستغلالى .. إنهـــا لقضية فريدة فى نوعها ، يستحوذ فيهـــا المسروق على مال ســـارقه المزعوم !.. وختم السيد روكفيار مرافعته بهـــذه الكلمات : « لقد انتهت مرافعتى أيها السادة المحلفين . فباسم كل موتانا الذين يتالف من تعاقب ذريتهم شرفنـــا الحى على الدوام .. وباسم الأرض ــ التى اكتسبت فى بطء ، والتى فلحتها جهود الأجيال المتعاقبة ، والتى تخلينا اليوم عنها لتكون قربانا لتدعيم

هذا الشرف ! — أسألكم أن تردوا على ابنى .. أعيدوه لى ، لا بدافع من الشفقة ، وإنما بدافع من العدالة .. ولا كمنحة ، وإنما كحق تقررونه بالاجماع . إن عشيرتى كلها ، وأنا معهم، لبراءته لضامنون ! » .

وجلس .. ولم يكن قد قضى فى الكلام أكثر من ساعة . وما أن تلاشت أنغام صوته العذب الهادىء ، الذى ظل محتفظا طيلة الوقت بقوته ، حتى خيم على القاعة صمت دام بضع لحظات ، له ما لصمت الكنيسة من وقار قدسى !.. فبدلا من ثورات الغضب المريرة التى كان الجمهور يتوقع سماعها من المحامى الشيخ الذى عرف بحماسته الدافقة ، ردا على الهجمات المسمومة التى شنها السيد بورتيريو .. وبدلا من إثارة غبار الفضيحة ، وإلقاء التهم الملصقة بالعشيق على العشيقة .. بدلا من هذا وذاك ، سمع الجمهور دفاعا كريما مترفعا ، تسامى على السباب اعتدادا منه بقوته ، وسلك خطوطا بسيطة مستقيمة أثارت إعجابا كذلك الذى تثيره التماثيل الجامدة ، الرفيعة ، التى تطهر الرغبات من دنسها وتضطر النفوس إلى أن تخشع امامها .. كل ذلك ، دون أى ذكر لاسم مدام فرازن !

وفجأة ، انبعثت صيحة مدوية : « عاش آل روكفيار ! » .

وكانت « لافوشوا » هى التى بعثت هذه الصيحة من أعماق قلبها . وإذا الجمهور المكبوت المأخوذ يضج بالتصفيق .. وبينما كان الرئيس يهدىء هذه الجلبة — التى اضطرت السيد باستار إلى ان يهرب من القاعة فى ضيق — انحنى الأستاذ فالبروا من جديد على السيد باريه ، المحامى العام ، الذى طلب

الكلمة بعد أن تنحى السيد هاميل عن الكلام ، معتذرا لعدم استعماله حق التعقيب بعد أن تنحى عن حق استهلال الدفاع .. وما لبث السيد باريه أن قال للمحلفين : « لقد سمعت مثلكم مرافعة الاستاذ روكفيار .. لا ، ليس المذنب هذا الشاب الذى ستصدرون حكمكم فى أمره بعد دقائق .. بل إن المذنب غير موجود هنا . وما دام المتهم قد أوتى من الكرم ما جعله ينأى عن الإشارة إليه ، فاننى بدورى أتجنب الإشارة إليه كذلك ، ولكننى استنكر التدبير البارع الذى انتزع به الاتهام العطف من قلوبنا ، متخذا من مصائبه الشخصية سبيلا لإنماء ثروته . فبادروا إلى تبرئة موريس روكفيار ، وردوه إلى أبيه الذى يتمثل فيه شرف مهنتنا . وإذا كان المتهم قد ارتكب فى حياته الخاصة ما يؤاخذ عليه ، فمن الواجب الا يطول حبسه بتهمة سوء استغلال الثقة ! » .

وبدأ النهار فى الانصرام ، مسلما القاعة إلى ظلمة المساء المتكاثفة . وانسحب المحلفون ليتشاوروا فيما بينهم ، وسرعان ما عادوا ليعلنوا إجماعهم على البراءة . وإذ ذاك صاحت جان ساسيناى بصوت جهير : « برافو ! » .. وتمتمت مرجريت فى هدوء : « أبى .. لسوف تهنأ أمى ! » .. وانصرف الجمهور وهو يتبادل التعليقات . أما السيد لاتاش — الذى كان يتكلم بتحمس مع فريق من الناس — فقد راح يهز رأسه فى انفعال صارم ، وهو يقول : « إنها صفعة للسيد فرازن . وعليه — بعد التأنيب الذى وجهه إليه النائب العام — أن يصفى أعمال مكتبه ، ويغادر البلدة » .. فقال السيد باريه : « لسوف يبيع المزرعة ثانية » .. أما السيدة التى رافقتها

الموثق كولانج ، فقـد كانت تبدى السرور استثارة لمرافقها ،
وقالت تعابثه : « ولسوف تكون ابنة ساسيناى هى المشترية ،
فان لديها صداقا ضخما . اتراك لاحظت تلك الابتسامات التى
وجهتها إلى الشاب المعتقل .. إلى المنتصر ؟ لسـوف تتزوج
منه ! » . فعقب السيد كولانج على قولها مكتئبا : « أجل ،
هـذا ما سـوف يحدث ، لقـد كان الحظ دائمـا حليف
آل روكفيار ! » .

٩ ـ قوة الحيـاة

عجلت الرغبـة الصادقة ـ التى أبداهـا رئيس محكمة
الجنايات ـ بإجراءات إطلاق سراح موريس ، وبينمـا كان
الجمهور الذى غادر القاعة يتجمع أمام دار القضـاء ارتقابا
لخروج المتهم ومحاميه ، ليحييهما فى حرارة بالغة ـ اذكاها
تبكيت الضمير الذى ثار متأخرا ! ـ كان السيد روكفيار ينتظر
ابنه فى البهو الداخلى وحيدا ، إذ عهد إلى شارل مارسيلاز
باصطحاب السيد هاميل . وما أن انتهت المعركة ، حتى أحس
الشيخ بوطأة التعب والإعياء ، واستغرق فى تأملاته . وإذا
بصوت يناديه فى استحياء : « أبت ! » . فهتف : أهذا أنت ؟.
وبدلا من أن يرتمى كل منهما فى أحضان الآخر ، ظلا واقفين
بلا حراك ، وكأنهما سمرا فى موقفيهما !.. كانت أول بادرة
تصدر من أحدهما ـ دون روية ـ فى مثل هذه الظروف ، كافية
لأن تخلق النفور والعراقيل !.. وقرأ الأب على وجه ابنـه
أمارات الإعجاب والعرفان وحنان البنوة .. وقرأ الابن على
وجه أبيه علامات الحب والطيبة ، ودلائل الألم المبرح الناجم
عن الإعياء والشيخوخة . وسادهما صمت أليم لا قبل لهمـا

باحتماله .. وكانت الهتافات تتعالى مدوية فى الخارج . وفجأة ،
قال السيد روكفيار : « تعال ! » . واقتاد موريس إلى حديقة
عامة خلف المبنى ، كانت إذ ذاك خالية من الناس ـ لحسن
الحظ ـ ثم اجتازا القنطرة الحديدية القـائمة على مجـرى
(الليبس) ، والتى كان المـاء العكر يجرى تحتها .. حتى
بلغا المقابر ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة !
وكانت مدافن (شامبيرى) تقوم فى شرق البلدة ، عند مدخل
السهل الفسيح الممتد إلى بحيرة (بورجيه) ، يطل عليها تل
(ليمنك) الصخرى، يعقبه جبل (نيفوليه) ذو الطبقات المتدرجة .
وكان الظلام قد خيم على الحقول، وأخذ يمتد إلى الهضاب شيئا
فشيئا . ولكن السنة شمس الغروب المحتقنة كانت تحيط بالجبل،
الذى دبت الحياة فى لونه الأبيض وكأنما سرت فيه دماء !..
كان لأمسيات الشتاء الباردة ، الهادئة ـ التى تبدو وكأنهـا
صيغت من رخام ـ جمال ذو نقاء قدسى !.. وتبين موريس ـ
فى مواجهته ـ أعمدة هضبة (ليمنك) ، التى أجتاح الحب
قلبه فوقها .. وتلكأ شعاع أخير ليبدى معالم الهضبة ، ثم لاح
كأنما كانت الهضبة تأوى إلى المعبد الصغير وتغيب فيـه ،
فهمس لنفسه : « ما أبعد العهد بالذكرى ! » .
واجتاز الأب وابنه أشجار الصبار ذات الفروع الصـلبة
كأنها الحراب ، وقد كساها الصقيع ، وبدت مهيبـة كأنهـا
حراس يسهرون على المنطقة . وكان الدرب المزدوج ، المؤدى
إلى المدافن الخاصة ، يمتد خلف قبور الفقراء التى كانت تشير
إليها مرتفعات من الأرض لم تكد تبدو تحت الجليد .. وتمتم
موريس أخيرا ، وهو يفكر فى أمه : « كنت أدرك يا أبى إلى أين

تقصد » .. فقال السيد روكفيار مؤمنا على قوله : « إننا نسعى إلى مقبرة الأسرة ، لنشكر للأموات أن أنقذوك ! » .. فهتف الشاب : « بل أنت الذى أنقذتنى يا أبى ! » .. ولكن الشيخ قال : « إنما كنت أتكلم باسمهم ! » .

وما أن بلغا مدخل المدافن ، حتى لمحا شبحا أسود جاثيا على حجر أمام حائط ملىء بالنقوش . فهتف الشاب : « ها هو ذا القبر يا أبى .. هناك إنسان ما » . فأجاب الأب : « انها مرجريت .. لقد سبقتنا » . وتناهى إلى أذنى الفتاة صوت تحطم الجليد تحت أقدامهما ، فالتفتت . وما أن تبينتهما حتى تضرج وجهها ، ووقفت جامدة وكأنها خشيت أن تعكر عليهما التئام شملهما . وما لبثت أن قالت : « جئت أزور أمى ! » . فقال الأب مترفقا « امكثى ! » .

وكان المساء قد أطبق على حواف جبل « نيفوليه » ، فلم يعد يبدو سوى الجليد المتراكم على طبقاته العليا . وأخذ النور ينسحب فى انسياب سهل كأنه جدول من ذهب أو ارجوان . وبعد إشراقة سريعة رائعة ، صعد الظلام المظفر عبر الطبقة الأخيرة من الجبل ، واحتل القمة . وكان فى صدر المدفن حائط منقوش ، حمل لقبا واحدا ، هو لقب الأسرة ، وتحته أسماء عديدة وكثير من التواريخ ، وقد حف به سعف ناضر ، ذو فروع خضراء ، انحنى متقاربا بعضه من بعض كتاج من تيجان الربيع !

وقال السيد روكفيار — الذى بدا وجهه فى نفس ما كان عليه من صفاء فى الجلسة : « انصت ! .. ها هو ذا الليل ، وها هى ذى ساحة الموتى ! ومع ذلك ، فانك لن تسمع فى أى مكان آخر على الأرض أقوالا عن الحياة أقوى مما تسمع هنا ! ..

تأمل ، قبل أن يخيم الظلام . ها هو ذا الأفق الذى يفضله قلبك ، يحيط بك .. وها هى ذى أسرتك تهجع مستريحة ! » .

وجثا موريس .. وما أن تذكر تلك التى رحلت دون أن تودعه ، وذاك الذى قدم حياته قربانا من أجله ، حتى أخفى وجهه فى راحتيه . ولكن أباه لمس كتفه ، وقال بصوت حازم : « إننى أصبحت شيخا يا بنى ، ولسوف تخلفنى عما قريب ، فاصغ إلى فى هذا اليوم الذى يدعونى فيه الواجب أن أتحدث إليك : إن ما تراه هنا لهو الصورة الباقية .. وأن تمجيد الموتى لهو لب مصيرنا الخالد . فما قيمة حياة امرىء ما ، بل ما قيمة حياتى أنا ، إذا لم يخلع عليها الماضى والمستقبل معناهما الحقيقى ؟ لقد نسيت أنت هذا المعنى حين انقدت لأهوائك الشخصية ، فما من مصلحة فردية يمكن أن تكون جميلة ، وما من مجد إلا فى خدمة المجموع . يجب أن يخدم المرء أسرته ، ووطنه ، والله ، والفن ، والعلم ، والمثل الأعلى . ويالعار من لا يخدم سوى وطنه ! .. وأنت : لقد وجدت فينا سندك ، ولكنك تبينت أيضا الا استقلال لك عنا .. إن شرف الإنسان وكرامته ، فى قبوله لهذه التبعية ! » .

ولمح موريس — وهو ينهض — الشفق الراحل عن (كالفيردى ليمنك) ، فتمتم لنفسه فى أسى : « والحب ؟ » .. وكأنما قرأ أبوه ما كان يدور بخلده ، فقال : « ما أضأل الفارق الذى يفصل أحيانا بين الرجل الشريف والرجل الخسيس . والحب هو الذى يزيل هذا الفاصل بين الرجلين ، فى حين أن الأسرة تعززه . ومع ذلك ، فلست أعيب الحب — حتى فى هذه الساعة — لو أنك عرفت كيف تنهيه يا موريس :

إنه العزاء الذى يواتينا برغم المحن .. هذا هو الحب ، فصنه فى فؤادك ، لأنه ملك لك !.. ولسوف تجده فى جلائل الأعمال ، وفى الصمود للطبيعة ، وفى خوض مصيرك دون خوف أو وهن !.. وقبل أن تحب امرأة ، فكر فى أمك ، وفكر فى شقيقاتك ، وفكر فى السعادة التى قد تكون مدخرة لك ، إذا ما رزقت ابنة وعكفت على تربيتها !.. لكم اغتبطت أنا عند مولدك — كما ابتهجت عند مولد شقيقك وشقيقاتك — فعملت على حمايتك بكل قواى . وإنى لأنذرك بأنك ستشعر عند موتى كأن جدارا قد انهار ، وتركك أمام الحياة وجها لوجه . وإذ ذاك ، ستفهمنى خيرا مما تفهمنى الآن ! » .

وتمتم موريس وقد تهدجت أنفاسه لفرط الانفعال : « اغفر لى يا أبتاه .. لسوف تجدنى أهلا للانتماء إليك ! » . فلم يزد السيد روكفيار على أن قال ببساطة : « يا بنى ! » .

وما أن رأتهما مرجريت — وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر — حتى تذكرت الأمنية التى طالما ساورت أمها !

وفى السماء التى كساها الظلام ، وفى اتجاه المزرعة ، بزغ أول نجوم المساء ، متألقا . ورأى السيد روكفيار — وهو يضم إلى صدره ابنه الضال الذى عاد إليه .. آخر أبنائه .. ابنه الوحيد — رأى فى النجم بارقة أمل !

وفى المقبرة المعتمة — التى جاءها ردا لزيارة موتاه له بالأمس — وعلى الرغم من شعوره بأن منيته هو الآخر باتت وشيكة ، فقد عزز رب الأسرة ثقته فى الحياة !



رقم الإيداع : ٤٣٧٩ / ٧٧ — ٦ — ٠٨٠ — ١٦٣



مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

هذه الرواية التى بين يديك تمثل لونًا من الأدب الواقعى المعاصر . الذى تحس وأنت تقرؤه ـ بريح الصدق والواقعية الصارخة تهب عليك من خلال سطوره . وكأنك تعيش مع أبطال الرواية . فى الجو الذى يعيشون فيه . وتعانى الانفعالات التى يعانونها . وتنتابك المشاعر التى تنتابهم . وتضطرب فى محيط الحياة التى يضطربون فى غمرتها .. بل إن فى بعض مواقف القصة ما يملك عليك مشاعرك إلى حدّ تنسى معه أنك تقرأ أدبًا مفترضًا أنه من نسج خيال مؤلفه . فتخال أنك تعرف هؤلاء الأشخاص الذين تتلاعب أحداث حياتهم بعواطفك . فتأسى لأحزانهم حتى لتتحدر دموعك من مآقيك مشاركة لهم . أو تفرح لفرحهم وكأنك أنت من أصابه الحادث المفرح ! .. أو يخفق قلبك حبًا لمحبوبيهم . فتحس بنفسك قد رُددت إلى شبابك الباكر ردًا عنيفًا لا هوادة فيه .. وإذا أنت مستغرق فى أحلام الهوى . وأوهام الشباب . ونزوات الحب الطائش الذى أنسى بطل الرواية كل اعتبارات التعقل . والاحتكام إلى الضمير . والإخلاص للصديق أو الأهل والأقرباء .. بل الإخلاص للذات . ولو بغية حمايتها من التردى إلى الهاوية التى تصل إليها فيها يد القانون وسطوته الباطشة !

على أنى لن أسترسل فى التحدث إليك عن موضوع هذه الرواية الجبارة . أو عن أسلوب مؤلفها الفذ الذى بلغ حد الإعجاز فى التوفيق بين النقيضين : بين الواقعية فى تصوير المواقف والانفعالات . وتحليل المشاعر والنزعات .. وبين الإبداع والدقة فى وصف الأشياء والمناظر والمرئيات . إلى حد يرفعه إلى مستوى « رومانتيكية » لا مرتين وشاتوبريان . وإلى دقة « ديكنز » أعظم أديب اشتهر بالوصف عند الإنجليز !

والآن أتركك لتستمتع بقراءة الرواية بنصها « الكامل » !

